

الهيئة العامة للعناية بطباعة ونشر
القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما
Centre national pour l'impression
et la diffusion du Coran, de la Sounnah
et de leurs sciences. État du Koweït

100 حجة قطعية
على
صدق خير البرية

رشيد معاش

مترجم من الفرنسية

عبد الله محمدو سيديا

maachr@hotmail.fr
00966550790349

ISBN: 978-99966-767-4-1

الفهرس

تقديـم

هذا الكتاب وليد فكرة بسيطة تأسست على يقين مفاده أن محمدا ﷺ نبي وأنه آخر سلسلة الأنبياء الساميين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام وأنه أحد أحفاده وهو ما يقتضي بالضرورة وجود براهين على صدق رسالته. إن الهدف من هذا الكتاب هو إعطاء قائمة غير شاملة لتلك البراهين كما يتجلى ذلك من عنوانه، فقد اكتفينا بـ100 برهان تشكل مجتمعة حزمة من الحقائق لا ينكرها إلا مكابر، هذه البراهين تنقسم إلى صنفين:

الصنف الأول: أدلة نقلية

من المؤكد أن الكتب المنزلة قد ذكرت النبي محمدا ﷺ الذي هو اليوم صاحب الديانة الأولى في المعمورة ومؤسس امبراطورية غيرت وجه العالم. والقرآن يؤكد طبعا صدق رسالته ويسميه «النبي» بل وأكثر من ذلك يسميه «رسول الله»: «**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**» ولكن غير المسلمين لا يعترفون بأن القرآن كتاب منزل إذ لو اعترفوا بذلك لأصبحوا مسلمين. أما الكتب المقدسة اليهودية والنصرانية فقد أخبرت في نقاط عديدة وبصفة واضحة إلى حد ما، ببعثته. إذ كيف يمكن حصول غير ذلك؟

كيف يصح عقلا أن يتجاهل أنبياء التوراة حدثا على هذه الدرجة من الأهمية في تاريخ الإنسانية مع أنهم ذكروا أحداثا أقل أهمية منه بكثير؟ لذلك سيتناول الجزء الأول من هذا الكتاب والذي يحمل العنوان «النبي المبشر به» هذا الإخبار المتواتر باستمرار في نصوص العهدين الجديد والقديم.

الصنف الثاني: أدلة عقلية

قد لا تكفي الأدلة الكتابية المستنبطة من الكتب المنزلة قبل بعثة محمد ﷺ، لإقناع أصحاب الفكر العقلاني الذين لا يقبلون سوى البراهين العقلية مع أن ذكر بعثة محمد ﷺ في الكتب المقدسة، اليهودية والمسيحية، يكفي في حد ذاته دليلا عقليا ساطعا على صدق رسالته. إن النواة الصلبة لهذا الكتاب تتشكل إذن من هذه الأدلة العقلية التي تثبت مجتمعة بجلاء صدق رسالة رسول الله ﷺ وأن القرآن وحي إلهي وقد صنفنا هذه الأدلة في أربع فئات تقابل الأجزاء الثاني والثالث والرابع والخامس من هذا المؤلّف.

الفئة الأولى: نبوءات النبي:

إن ما يفرق بالفعل بين المتنبي الزائف وبين النبي الصادق هو صحة النبوءات. فقد ورد في العهد القديم ما يلي: «فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ فَهُوَ الكَلامُ الذِي لمْ يَتَكَلمْ بِهِ الرَّبُّ»[1].

الفئة الثانية: التعاليم التي أتى بها النبي:

كيف استطاع عربي أمي من القرن السابع الميلادي أن يأتي برسالة أثرت بهذه الدرجة من العمق في المجتمعات والأفراد، رسالة مُحكَمة التناسق خالية من التناقضات وهي، خلافا للكتب المقدسة الأخرى، لا تتعارض مع العقل ولا مع التاريخ ولا مع الحقائق العلمية الحديثة؟

الفئة الثالثة: إنجازات النبي

ما معنى أن تكون ثلة من المؤمنين الذين ذاقوا الأمرين في مكة حتى لم يعودوا قادرين على المجاهرة بصلاتهم، كيف لهم أن يُصبحوا هذه الأمة

---

(1) التثنية 18، 22.

التي غزت العالم؟ وكيف يمكن أن يسمح الرب بانتصار الإسلام وتوسعه قرنا بعد قرن، لو كان محمد متنبئا زائفًا؟

الفئة الرابعة: خصائص النبي:

سنُبين في هذا الفصل أن محمدا ﷺ لا تنطبق عليه أية صفة من صفات المتنبي، بل على العكس من ذلك، يتصف بكافة صفات نبي من سلسلة الأنبياء الساميين من ذرية إبراهيم.

الجزء الأول

النبي المبشر به



مدخل

لا شك أن الكتب المقدسة قد أخبرت ببعثة هذا النبي الذي غير مجرى التاريخ، سواء من أجل تحذير الناس منه إذا كان متنبئا أو من أجل أمرهم بالاحتفاء به وإتباعه إذا كان فعلا رسولا من عند الله. والحال أنه لو كان الأنبياء قد حذروا الناس من بعثة محمد ﷺ فإن خصوم الإسلام الكثيرين من اليهود والمسيحيين خاصة، لن يترددوا في الاحتجاج بتلك النصوص، وبما أن شيئا من ذلك لم يحصل فمعناه أنه توجد لزوما نصوص من الكتب المقدسة تُخبِر ببعثة النبي محمد ﷺ وتأمر الناس بإتباع تعاليمه.

ويرى بعض المسلمين الذين درسوا الكتب المقدسة بلغتها الأصلية، العبرية، أن النبي محمد ﷺ مذكور فيها بالاسم، لكن اسمه مُحَمَّدُ أو أحمد تمت ترجمتهما عن قصد أو عن غير قصد.

كما جاء الإخْبار به من خلال أمته، العرب المنحدرين من إسماعيل الابن البكر لإبراهيم عليه السلام الذي بشّر المَلاكُ والده إبراهيمَ بأن ذرية كثيرة ستخرج من صلب ابنه. وقد جاء الإخبار به من خلال أرضه، الجزيرة العربية، كما سنبين ذلك في هذه الدراسة.

وهو، حسب ما ذهب إليه كثير من المسلمين، «النبي» الذي بشر به موسى عليه السلام، هو «الذي يعود إليه كل شيء» (تشيلوه) كما تنبأ بذلك يعقوب، «عبد الله» الذي تنبأ به أشعياء، «ابن الإنسان» في رؤيا دانيال، والشفيع «الفارقليط» الذي بشر به عيسى عليه السلام تلاميذه. لأنه إذا كان عيسى عليه السلام قد أرسل إلى اليهود لهدايتهم إلى الصراط المستقيم فقد جاء أيضاً وبصفة خاصة لإعدادهم للمجيء القادم لملكوت الله الذي سيؤسسه آخر الأنبياء.



الفصل الأول
الأمة المبارَكة

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً (التكوين 17، 20).

1. الشعوب المختارة

إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض (آل عمران، 33–34)

لقد اصطفى الله وبارك بعضا من شعوب الأرض مجسدا هذا الاصطفاء في اختيار أنبيائه من بينهم. وأول من حظي بهذا الاصطفاء، هو نوح عليه السلام وذريته وعلامته هي قوس قزح. هكذا ورد في سفر التكوين: «وَكَلَّمَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ مَعهُ قَائِلا: وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ»[1]. لكن يبدو أن أحد أبناء نوح الثلاثة، وهو بكره، سام، يحتل مكانة مهمة للغاية حيث أن والده باركه بينما لعن حاما. أما يافث الابن الثالث فقد وعده نوح بأرض فسيحة ولكن دون أن يكون له الحق، مثل سام، في بركات والده[2]. والحال أن سام هذا هو جد اليهود والعرب وغيرهم.

ثم ضاق نطاق العهد بعد ذلك مقتصرا، من بين الساميين، على ذرية إبراهيم عليه السلام فقط الذي وعده الله بذرية كثيرة. لقد ورد ذكر ذلك في العهد القديم: «**وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي**

---

(1) التكوين 9، 8–9.

(2) التكوين 9، 25–27.

وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلا: أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ. وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ»[1].

ويجدر التذكير بثلاث مقاطع من هذا العهد: المقطع الأول يشير إلى أن هذا العهد «أبدي» والثاني أنه يعني جميع «ذرية» إبراهيم عليه السلام وينص الثالث على الشروط التي يجب أن تتوفر في المتعاقد: «سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا»، وبعبارة أخرى يقول الرب: «أطعني». ولنا عودة إلى الموضوع.

إن الميثاق المبرم مع إبراهيم عليه السلام منحه ذرية كثيرة ومنح المنحدرين منه أراضي واسعة: «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ»[2].

ومن المفيد أن نلاحظ أن الوعد بامتلاك أرض واسعة تلته مباشرة قصة هاجر، زوجة إبراهيم الثانية التي أساءت معاملتها سارة الزوجة الأولى لإبراهيم عليه السلام فهربت إلى الصحراء حيث تلقت وعدا بأن ذرية كثيرة ستخرج منها عبْر ولدها إسماعيل الذي كانت حبلى به في ذلك الوقت. والحال أن أحفاد هاجر العرب هم بالذات الذين تمكنوا بعد ظهور الإسلام من غزو هذه الأرض التي وُعِدَ بها إبراهيم عليه السلام.

---

(1) التكوين 17، 1-7

(2) التكوين 15، 18

2. علامة العهد

بقية الفصل التوراتي المتعلق بالعهد المبرم مع إبراهيم عليه السلام تعطي توضيحا أساسيا حول علامة هذا العهد: «هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. ابْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي»[1].

مع ذلك فإن بولس ألغى هذا الالتزام دون أن يؤسس ذلك على قول ولو يسير من أقوال عيسى عليه السلام مع كل ما لهذا القرار من تبعات في تاريخ الخلاص. ومن جانب آخر حارب المسيحيون الأوائل المنحدرون من مجتمع اليهود في القدس بشراسة قرارَ بولس. وهكذا وحسب شهادة يعقوب البار الذي يلقبونه «أخو الرب» أول رئيس لكنيسة القدس، فإن جميع الأتباع في المدينة المقدسة كانوا يمتَثِلون لهذا القانون بتحمس وقد غضبوا حين علموا أن بولس يعفي يهود الشتات «الجاليات» من إلزامية ختان أطفالهم[2]. هؤلاء اليهود المسيحيون لم يفعلوا سوى اتباع تعاليم عيسى عليه السلام الذي يلزمهم بالامتثال الحرفي للنَّامُوس: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ .فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ»[3].

---

(1) التكوين 17، 10-14

(2) أعمال الرسل 21، 20

(3) متى 5، 17-18

وقد ظل اليهود والمسلمون من جانبهم يخلدون هذه العادة حتى اليوم. وكان العرب حتى قبل ظهور الإسلام يمارسون الختان، الذي هو عبارة عن خاتم العهد الألفي الذي أبرمه الرب مع جدهم إبراهيم عليه السلام.

3. إسحاق وإسماعيل

اسمان من بين وَلَد إبراهيم عليه السلام يبرزان من رواية الكتب المقدسة للعهد الذي قطعه أبوهما مع الرب: إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، أو بالأحرى إسماعيل وإسحاق لأنه هو الأول من بين أبناء إبراهيم من زوجته هاجر والذي كان أول من حظي بمباركة الملاك الذي تجلى لأمه في العراء[1]، وتلقى إبراهيم عليه السلام عبره الوعد بـ «**أُمَّةً كَبِيرَةً**» في سفر التكوين 17، 20 : «**وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فيه. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً**». ودعا إبراهيم، خوفًا من أن يتأثر بكره إسماعيل، بالوعد الإلهي الذي أعطي له من خلال ابنه إسحاق، قائلا: «**لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ**»[2]. لنلاحظ أن تعبير «الأمة الكبيرة» لم يرد إلا خمس مرات فقط في سفر التكوين: مرتين بشأن إسماعيل عليه السلام (17، 20 و21، 18) ومرتين بشأن إبراهيم عليه السلام (12، 2 و18، 18)، ومرة واحدة بشأن يعقوب عليه السلام (46، 3).

بارك الرب إسحاق عليه السلام أيضا[3] وهي النعمة التي انتقلت، بعد دعائه، إلى ابنه الثاني، يعقوب عليه السلام، الذي من خلاله استمر العهد بين بني إسرائيل وهو العهد الذي تم تأكيده على سيناء مع موسى عليه السلام عندما استلم ألواح الشريعة: وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى عليه السلام:

---

(1) التكوين 16، 10

(2) التكوين 17، 18

(3) التكوين 17، 16

«اكْتُبْ لِنَفْسِكَ هذِهِ الْكَلِمَاتِ، لأَنَّنِي بِحَسَبِ هذِهِ الْكَلِمَاتِ قَطَعْتُ عَهْدًا مَعَكَ وَمَعَ إِسْرَائِيلَ».[1]

وهكذا بارك الله في ولدي إبراهيم المذكورين واللذين لهما نقاط مشتركة أخرى: فقد بشر الملاك بميلاد كل منهما واختار الرب اسميهما ونجاهما ملاك من الموت وكلاهما مختون وتلك علامة الاصطفاء واجتمعا عند دفن أبيهما إبراهيم عليه السلام.

فقد تحقق عبر هذين الولدين الأولين، إسماعيل وإسحاق اللذين انحدر منهما العرب واليهود، وعد إبراهيم بميلاد أمتين مباركتين كان لهما شأن كبير في تاريخ الخلاص.

تريد طائفة من اليهود والمسيحيين، في تناقض صارخ مع النصوص الصريحة لكتبهم المقدسة، أن تجعل عهد إبراهيم عليه السلام مع ربه مقتصرا على إسحاق عليه السلام وحده سعيا منها لإقصاء ذرية إسماعيل عليه السلام أي العرب ومن ثَمّ إقصاء المسلمين. غير أن الرب قال لإبراهيم عليه السلام: «وَابْنُ الْجَارِيَةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لأَنَّهُ نَسْلُكَ»[2]. وللتذكير ها هي شروط العهد: « وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ»[3]. العبارات أكثر وضوحا في سفر التكوين 18، 18–19: «وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ».

---

(1) خروج 34، 27

(2) التكوين 21، 13

(3) التكوين 17، 7

وعلاوة على ذلك، ووفقًا لما يقول اليهود والمسيحيون، فإن هذا العهد الخاص بأحفاد إبراهيم عليه السلام يعني، دون تمييز، جميع قبائل إسرائيل التي هي من ذرية أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر.

ومع ذلك، فإن أربعة من هؤلاء قد ولدتهم لإبراهيم عليه السلام جواري زوجتيه لَيْئَةَ وراشيل.

أما دَانًا ونَفْتَالِي، الابنان الخامس والسادس من أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر، فأمهم بِلْهَةُ جارية راحيل. كما أن جادا وعسير، ابني يعقوب السابع والثامن، فأمهما الطبيعية زِلْفَةَ، جَارِيَة لَيْئَةَ[1].

إذا كان اليهود والمسيحيون يريدون استبعاد إسماعيل عليه السلام من العهد، بسبب كونه ابن جارية سارة، فعليهم أن يفعلوا الشيء نفسه لأربعة من أبناء إسرائيل الاثني عشر، الذين أمهاتهم دَانًا ونَفْتَالِي وكذلك لجادا وأَشِيرَ اللذين أمهاتهما جاريتان أصبحتا محظيتين عند يعقوب عليه السلام.

4. نقض العهد

لقد مر بنا أن الرب، عندما أعلن لإبراهيم عليه السلام العهد الذي سيقيمه مع ذريته، وضع شروطًا لذلك: «**سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدّ**»[2]. بعد ذلك بزمن ذكّر الرب بني إسرائيل، أحفاد إسحاق من خلال ابنه يعقوب، بالشروط التي يجب عليهم التقيد بها إذا كانوا يرغبون في إدامة العهد»: فَاحْفَظِ الْوَصَايَا وَالْفَرَائِضَ وَالأَحْكَامَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ الْيَوْمَ لِتَعْمَلَهَا. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ تَسْمَعُونَ هذهِ

(1) التكوين 30، 1-13

(2) التكوين 17، 1-2

الأَحْكَامَ وَتَحْفَظُونَ وَتَعْمَلُونَهَا، يَحْفَظُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ الْعَهْدَ وَالإِحْسَانَ اللَّذَيْنِ أَقْسَمَ لآبَائِكَ»[1].

إذا كان الشعب العبري يرغب في الاستمرار في ادعاء الاصطفاء الإلهي، فعليه أن يحرص على عدم انتهاك القانون: «**إِنْ كَانَتْ هذه الْفَرَائِضُ تَزُولُ مِنْ أَمَامِي، يَقُولُ الرَّبُّ، فَإِنَّ نَسْلَ إِسْرَائِيلَ أَيْضًا يَكُفُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أُمَّةً أَمَامِي كُلَّ الأَيَّامِ**»[2].

ستتحول نعمة شعب الله إلى لعنة إذا ابتعدوا عن الْفَرَائِض وانتقلوا إلى آلهة أخرى: «**اُنْظُرْ أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ الْيَوْمَ بَرَكَةً وَلَعْنَةً: الْبَرَكَةُ إِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بهَا الْيَوْمَ. وَاللَّعْنَةُ إِذَا لَمْ تَسْمَعُوا لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمْ، وَزُغْتُمْ عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ لِتَذْهَبُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا**»[3].

لكن أبناء إسرائيل لم يتوقفوا أبداً عن انتهاك أول هذه الوصايا، وهي عبادة الرب وحدهً: «اسمعي يا إسرائيل! الرب إلهنا هو الرب الوحيد»، كما ذكر بذلك إيليا، الذي هو واحد من أنبيائهم، والذي يربط فسخ العهد بعنصرين: الشرك وقتل الأنبياء: «لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ، وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِالسَّيْفِ»[4].

عاب عيسى نفسه عليه السلام على معاصريه من اليهود موقف شعبهم من الأنبياء: «يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ»[5]. بعدما ضرب لهم

(1) التثنية 7، 11-12

(2) إرميا 31، 36

(3) التثنية 11، 26-28

(4) ملوك الأول 19، 14

(5) لوقا 13، 34

عيسى عليه السلام مثل الْكَرّامِينَ ووصف لهم فيه الطريقة التي سام بها أبناء إسرائيل الأنبياء سوء العذاب وقتلوهم، أخبر معاصريه من اليهود وبين لهم أن ملكوت الله ستنزع منهم وستكون من نصيب أمة أخرى: «ذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ»[1].

5. الأمة التي تعمل أثماره

ما هي إذن هذه «الأمة» التي سترث ملكوت الرب وتقطف ثمارها؟ هذه الأمة، حسب المسيحيين، هي أمة الوثنيين أي جميع الشعوب غير اليهودية. ومع ذلك فالعبارة اليونانية المستخدمة لا تترك مجالا للشك فهي «ethnos» بالمفرد وليس«ethnè» الجمع أي أن ملكوت الرب ستكون من نصيب أمة واحدة لا من نصيب جميع أمم الأرض. وتجدر الإشارة إلى أن العبارة اليونانية «ethnos» تتضمن فكرة العرق ومن مشتقاتها في الانجليزية (ethnicity) وفي الفرنسية (ethnie). ويتعلق الأمر إذن هنا بعرق واحد لا بجميع الأعراق البشرية.

تذكر نبوءة عيسى عليه السلام هذه بالكلمات التي نقل موسى عليه السلام عن ربه بشأن العبرانيين: «هُمْ أَغَارُونِي بِمَا لَيْسَ إِلهًا، أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا لَيْسَ شَعْبًا، بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ»[2].

يرى المفسرون المسلمون أن هذه «الامة الغَبِيَّةِ» أي الجاهلة، لا يمكن أن تكون غير الأمة العربية التي سيبعث منها نبي. وبالفعل، فإن العرب، قبل الإسلام، لم يشكلوا شعبًا موحدًا بل مجموعة من القبائل المتناحرة دائمًا والتي تميزت بالجهل لدرجة أن عصر ما قبل الإسلام قد سماه القرآن بأنه «عصر الجاهلية»[3].

(1) متى 21، 43
(2) التثنية 32، 21
(3) آل عمران، 154

كتب المؤرخ الانجليزي إدوارد جيبون (1737) (Edward Gibbon–1794) يصف العادات البدوية في الجزيرة العربية قبل الإسلام: «كان التشابه المبهم بين اللغات والعادات هو الرابط الوحيد الذي يجمع هذه القبائل ضمن أمة واحدة وكانت سلطة القاضي في كل مجتمع عاجزة ولا صوت لها واحتفظ التاريخ بذكرى ألف وسبعمائة معركة وقعت في عصور الجاهلية قبل بعثة محمد»[1].

تذكر نبوءة عيسى عليه السلام أيضا بكلمات الرب المذكورة في سفر أشعياء 65، 1: «أَصْغَيْتُ إلى الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا. وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي. قُلْتُ: هأَنَذَا، هأَنَذَا. لأُمَّةٍ لَمْ تُسَمَّ بِاسْمِي». إن الأمة التي تسمت باسم الله هي بلا شك إسرائيل، الاسم المصاغ من «إيل» التي تعني «الله» باللغة العبرية، حيث حلت محلها الأمة العربية التي لا يحمل اسمها اسم الرب.

لقد جاء عيسى عليه السلام مخبرا بملكوت الرب لا مؤسسا لها فمؤسسها غيره وقد كرر مرارا طيلة حياته العامة أن ملكوت الرب لم تظهر بعد. فكان يَقُولُ: «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ»[2].

إن ظهور ملكوت الرب في المستقبل هو إذن تلك «البشارة» التي جاء بها عيسى عليه السلام. نذكر هنا أن عبارة إنجيل المقتبسة من اليونانية (euaggelion) تعني بالضبط «الخبر السار» وبالتالي تكون مهمة عيسى عليه السلام الرئيسية هي بشارة شعبه أي اليهود بقيام مملكة الرب ليستعدوا لذلك.

(1) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Edward Gibbon, London, Strahan &Cadell, 1776-1788.

(2) مرقس 1، 15

«وليس من الخطأ أن نرى في مملكة الرب المفهوم الأساسي لبشارة عيسى عليه السلام» حسب ما ورد في قاموس الكتاب المقدس لفيجيرو[1]. وقد وردت عبارة «مملكة الرب» بصيغها المختلفة نحو مائة مرة على لسان عيسى عليه السلام الذي ضرب ما لا يقل عن أحد عشر مثلا في وصفها لأتباعه[2]. وقال لَهُمْ: «**إِنَّهُ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُبَشِّرَ الْمُدُنَ الأُخَرَ أَيْضاً بِمَلَكُوتِ اللهِ لأَنِّي لِهَذَا قَدْ أُرْسِلْتُ**»[3].

فمملكة الرب آتية إذن ولم تكون قائمة في عصر عيسى عليه السلام الذي طلب من أتباعه ترقبها والاستعداد لظهورها حتى أنه أمر الرسل الاثني عشر بأن يحملوا معه بشارتها إلى اليهود: «**إلى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا، وَإلى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إلى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ. وَفِيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائِلِينَ: إِنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ**»[4].

وخلافا لما يعتقد بعض المسيحيين الذين أوقعتهم في الخطأ عبارة «مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ» المستخدمة أحيانا كما هو الحال هنا للإشارة إلى مَلَكُوت الرب، فاعتبروها سماوية وهي في الحقيقة أرضية. لذا نرى بارت ارمان (Ehrman Bart) الأستاذ بكلية اللاهوت في جامعة كارولينا الشمالية الاختصاصي المعترف به في مجال العهد الجديد يقول جازما بشأن هذه النقطة: «مملكة الرب هذه ليست «الجنة» – المكان الذي تذهب إليه عندما تموت– (كما في التقليد المسيحي اللاحق). بل هي مملكة على الأرض سيسود فيها حكم الله»[5].

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, Paris, 1912, vol. 5, part 1, p. 1242.

(2) متى 13، 31–47 .

(3) لوقا 4، 43 .

(4) متى 10، 5–7 .

(5) Jesus, Interrupted, Revealing the Hidden Contradictions in the Bible, Bart Ehrman, Harper Collins, 2009, p. 157.

بالنسبة للمسلمين، فإن الأمة التي سترث مملكة الرب وتقطف ثمارها لا يمكن أن تكون سوى الأمة المنحدرة من إبراهيم عبر إسماعيل عليهما السلام. لأنه إذا كان بنو إسرائيل، أحفاد إسحاق عليه السلام، قد نقضوا العهد المبرم مع جدهم إبراهيم عليه السلام والذي تجدد مع موسى عليه السلام فإن أبناء إسماعيل عليه السلام، كانوا هم الأحق دون غيرهم بأن يرثوا الرسالة النبوية، نظرا للوعد الذي تلقاه إبراهيم عليه السلام في الكتاب المقدس في سفر التكوين 17، 20 لجعل بِكره، إسماعيل عليه السلام، وذريته أمة عظيمة. ولنتذكر أن العهد المبرم مع إبراهيم عليه السلام «أبدي» كما جاء في الكتاب المقدس.

وفضلا عن ذلك فإن الحاخامات يرون، هم أنفسهم، أن هذه النبوءة قد تحققت بالفعل منذ أكثر من 2000 سنة بعد الوعد الذي تلقاه إبراهيم عليه السلام وهي بعثة نبي الإسلام محمد ﷺ. وهكذا جاء في الترجمة الفرنسية للتوراة ضمن منشورات أدمون ج صفره (Edmont J.Safra) من سفر التكوين 17،20 هذا التعليق للحاخام بيخاي (Bekhaye) الذي يروي عن الحاخام خانيل (Khanael) وهما من أبرز الحاخامات في القرنين 13 و 11: «نشاهد أن الوعد الذي تلقاه إسماعيل هنا تطلب تحقيقه 2333 عاما [مع ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي]. سبب هذا التأخير لا يعود إليهما فذرية إسماعيل ظلت طيلة هذه الحقبة الطويلة يحدوها الأمل القوي في تحقق الوعد يوما ما وأن تهيمن على العالم. أليس من واجبنا، نحن أبناء إسحاق الذين علينا أن نعتبر أنفسنا مسؤولين عن عدم تحقق الوعود التي تلقيناها، أن نأمل، من باب أحرى، تحقق وعد الله وأن لا نفقد الأمل؟»[1]

(1) Le Houmach, Edmont J.Safra, 2014, p. 79.

هذا التعليق الذي أوردناه هنا بين ظفرين هو تعليق حاخامات معاصرين شاركوا في هذه الطبعة من الكتاب المقدس وبالتالي يوضحون شرح الحاخام بخاي (Rabbi Bekhaye) الذي يستشهد بالحاخام خانيل (Rabbi Khanael) فوِفْق هؤلاء الحاخامات فإن الله حين وعد إبراهيم عليه السلام بأن يخرج من ابنه إسماعيل عليه السلام «أمة عظيمة» فإنما يعلن ظهور أمة المسلمين وبالتالي نبيهم محمد ﷺ أبرز المنحدرين من سلالة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ومع ذلك، وحسب رأي منتقدي الإسلام، فإن «الأمة العظيمة» التي وُعِدَ بها إسماعيل عليه السلام هي من أمم الأرض وليست أمة بالمعنى الديني للكلمة، أمة يقودها نبي. بالنسبة لهم هذا الوعد لا يجعل بالضرورة من محمد ﷺ نبيا مرسلا من عند الله. والحال أنه لو كان الأمر كما زعموا فكيف يبارك الله في إبراهيم عليه السلام ويعده بأمة «عظيمة» ومع ذلك ينحدر منها متنبئ وكيف يفرح إبراهيم عليه السلام بذلك؟! كما أن الوعود الإلهية ليست أبدا مجرد وعود دنيوية كما فسر ذلك جيدا الكاتب الإنجليزي مارتين لينغز (Martin Lings): «لم تكن أمة واحدة وإنما هما أمتان عظيمتان كان يجب أن تعتبرا إبراهيم أبا لهما. أمتان عظيمتان أي قوتان على الطريق المستقيم، آليتان لتحقيق الإرادة السماوية لأن المباركة التي وعد الله بها ليست مادية إذ لا عظمة أمام الله غير عظمة الروح وهكذا كان إبراهيم مصدر تيارين روحيين لا ينبغي لهما أن يتخذا نفس المسار وإنما يسير كل واحد منهما في مساره الخاص».[1]

(1) Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources, Martin Lings, Islamic Texts Society, 1983.

في الواقع، فإن العهد الذي تلقاه إبراهيم عليه السلام يرتبط ارتباطا وثيقا بميلاد الأمم المنحدرة من سلالته – وخاصة أمة اليهود وأمة العرب– كما تُبين ذلك بوضوح عبارات العهد: «أَمَّا أَنَا فَهُوَ ذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ»[1]، وبالتالي لا يمكن أن تكون هذه الأمم إلا دينية ويقودها نبي.

6. رؤيا دانيال

تتعين مقارنة نبوءة عيسى عليه السلام المتعلقة بـ «مملكة الرب» مع رؤيا النبي دانيال (الفصل 7) التي رأى فيها أربعة وحوش ضخمة ترمز، حسب التأويل المسيحي الأكثر تداولا، إلى الإمبراطوريات الأربع التي هيمنت على العالم القديم انطلاقا من فترة دانيال وخاصة الأرض التي وُعِدَت بها ذرية إبراهيم عليه السلام، من النيل إلى الفرات (والتي تشمل إذن الأرض المقدسة، فلسطين) وهي الإمبراطوريات التي أذاقت شعب الله الأمرين: الإمبراطورية البابلية والإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية اليونانية والإمبراطورية الرومانية التي بسطت نفوذها على الأرض المقدسة 63 سنة قبل ميلاد المسيح والتي سيتم تدميرها حسب رؤيا دانيال وتعود السيادة في النهاية إلى شعب الله. يرى المفسرون المسلمون في ذلك قيام «مملكة الرب»، الإمبراطورية الإسلامية القائمة على دين الله وعلى أنقاض الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي يرمز فتح المسلمين للقدس سنة 638 إلى زوالها. ولا شك أن رؤيا دانيال تتطابق بدقة شديدة مع الوقائع التاريخية لتتابع أربع إمبراطوريات وثنية حكمت العالم القديم وخاصة الأرض المقدسة والشعب اليهودي بالذات قبل ظهور الإمبراطورية الإسلامية التي دعت

---

(1) التكوين 17، 4.

الى عبادة رب واحد والى إعادة الاعتبار للمؤمنين الحقيقيين. وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية قد أصبحت مسيحية انطلاقا من القرن الرابع في عهد قسطنطين (Constantin) فإنها لم تتخلص من الوثنية تماما كما سنرى فيما بعد.

وقسطنطين هذا هو الذي يعتقد بعض المسلمين أنه هو المعني ب «القرن الصغير» الذي يخرج، حسب رؤيا دانيال، من رأس الوحش الرابع (الإمبراطورية الرومانية) بعد عشرة قرون ترمز لعشرة ملوك: «وَلَهُ عَشَرَةُ قُرُونٍ. كُنْتُ مُتَأَمِّلًا بِالْقُرُونِ، وَإِذَا بِقَرْنٍ آخَرَ صَغِيرٍ طَلَعَ بَيْنَهَا، وَقُلِعَتْ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْقُرُونِ الأُولَى مِنْ قُدَّامِهِ»[1]. وقد فسر الملاك هذه الرؤى على النحوي التالي: «وَالْقُرُونُ الْعَشَرَةُ مِنْ هذِهِ الْمَمْلَكَةِ هِيَ عَشَرَةُ مُلُوكٍ يَقُومُونَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمْ آخَرُ، وَهُوَ مُخَالِفٌ الأَوَّلِينَ، وَيُذِلُّ ثَلاَثَةَ مُلُوكٍ»[2]. فعبارة: «وَيُذِلُّ ثَلاَثَةَ مُلُوكٍ» تنطبق تمامًا على قسطنطين، الذي استولى على الحكم على حساب ثلاثة منافسين هم: ماكسينس (Maxence) وماكسيمين دايا (Maximin Daia) وليسينيوس (Licinius).

أما «القرون العشرة» التي ترمز لعشرة ملوك، فيمكن أن تشير للأباطرة الرومانيين العشرة الذين اضطهدوا المسيحيين الأوائل قبل قسطنطين. والواقع أن تاريخ الكنيسة يتحدث عن عشر موجات من الاضطهاد طيلة الإمبراطورية الرومانية: الموجة الأولى تحت حكم نيرون (Néron) (54–68) والتي تربط بها التقاليد شهداء بطرس وبولس وطرسوس والثانية تحت حكم دوميسيان (Domitien) (81–96)، والثالثة تحت حكم اتراجان (Trajan)

(1) دانيال 7، 7–8 .

(2) دانيال 7، 24.

(98–117)، والرابعة تحت حكم مارك أوريل (Marc Aurèle) (161–180) والخامسة في ظل حكم سبتيم سيفير (SeptimeSévère) (193–211) والسادسة في ظل ماكسيمين (Maximin) (235–238) والسابعة تحت في ظل ديس (Dèce) (249–251) والثامنة في ظل فاليريان (Valérien) (253–260) والتاسعة في ظل أوريليان (Aurélien) (270–275) وأخيرا العاشرة في ظل الإمبراطور دقلديانوس (Dioclétien) (284–305) وهي الأخيرة والأكثر خطورة من بين موجات الاضطهاد.

لنعد إلى «القرن الصغير» في رؤيا دانيال الذي يبدو أنه لعب دورا محوريا فهو يمثل إمبراطورا هزم المؤمنين الحقيقيين وحاول تعديل القانون والأزمنة (الأعياد الدينية)[1] قبل الإحلال النهائي لمملكة الرب. والحال أننا نعرف الطريقة التي اضطهد بها قسطنطين المسيحيين الموحدين الرافضين لعقيدة الثالوث وخاصة الآريين وكيف غير تعاليم عيسى عليه السلام على الأخص بواسطة مجلس نيقية (325) والطريقة التي غير بها الأعياد اليهودية حيث جعل من يوم الشمس الوثني (dies solis)، يوم الأحد، يوم راحة شرعية، مغيرا بذلك سُنة السبت وفارضا الاحتفال بعيد الفصح المسيحي في تاريخ مختلف عن عيد الفصح اليهودي. وفضلا عن ذلك، تم في ظل حكمه سن عيد الميلاد الذي يحتفل بميلاد المسيح في تاريخ 25 ديسمبر. نشير إلى أن طائفة من البروتستانت تشبه «القرن الصغير» بالكنيسة الكاثوليكية وهو ما يتفق مع التفسير الإسلامي باعتبار قسطنطين هو، إلى حد ما، مؤسس هذه الكنيسة.

---

(1) دانيال 7، 24.

المملكة الواردة في رؤيا دانيال دنيوية ودينية في نفس الوقت وتعني إمبراطورية تطبق شرع الله وتخلف إمبراطوريات أرضية قائمة على الوثنية. والواقع أن الإمبراطورية الإسلامية هي وحدها التي تأسست في التاريخ على الدين كما يؤكد ذلك عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) (1841–1931): «إن الوضع المثالي الذي جاء به محمد كان دينيا حصرا والإمبراطورية التي أسسها العرب تمتاز بهذه الظاهرة الفريدة وهي أنها الإمبراطورية الكبيرة الوحيدة التي قامت باسم الدين وحده واستمدت منه جميع مؤسساتها السياسية والاجتماعية»[1].

7. قِيدَار

يصف العهد القديم، وهو كتاب يهودي بشكل أساسي، قصة عهد الله مع بني إسرائيل أحفاد إسحاق عليه السلام. فلا غرابة إذن أن يكون أحفاد إسماعيل عليه السلام على العموم غائبين عن هذه القصص ومع ذلك فأحد أسماء أبنائه قد لفت الانتباه في نبوءات أنبياء بني إسرائيل وخاصة نبوءات أشعياء: قيدار، الذي يعتبره المؤرخون العرب جدا للنبي محمد ﷺ.

وهكذا نجد في الكتاب المقدس هذه النبوءة لأشعياء: «ارْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ. جَاءُوا إِلَيْكِ. يَأْتِي بَنُوكِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي. حِينَئِذٍ تَنْظُرِينَ وَتُنِيرِينَ وَيَخْفُقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ، لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ الْبَحْرِ، وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ .تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

الرَّبِّ .كُلُّ غَنَمِ قِيدَارَ تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ. كِبَاشُ نَبَايُوتَ تَخْدِمُكِ. تَصْعَدُ مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي، وَأُزَيِّنُ بَيْتَ جَمَالِي»[1].

يرى أندرى ماري جرار (André-Marie Gérard) في قاموسه للكتاب المقدس أن هذا الوحي يعني «حجاج شمال الجزيرة العربية (مِدْيَانَ) وجنوبها (شَبَا) في طريقهم نحو القدس المسيانية»[2]، ولكن ماذا يمكن أن تكون هذه القدس التي سيتوجه إليها في المستقبل الحجاج العرب؟ سنعود إلى ذلك في الفصل الموالي.

يشغل قيدار إذن مكانة خاصة من بين وَلَدِ إسماعيل عليه السلام الذين انحدرت منهم القبائل العربية وهكذا أورد «أشعياء» اسمه قبل أخيه الأكبر «نيباخوث» (Nebajoth) في المقطع السابق ويبدو أن إسماعيل عليه السلام يرمز بمفرده لجميع العرب في هذه الكلمات التي وردت على لسان حزقيال (Ezéchiel): «اَلْعَرَبُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ قِيدَارَ هُمْ تُجَّارُ»[3]. ويؤكد جان اوغستين بوست (Jean-Augustin Bôst)، في قاموسه للكتاب المقدس (1849)، أن «لسان «قيدار» عند الحاخامات يعني العربية».

ويعتبر القديس جيروم (Saint Jérôme) من جانبه أن أبناء قيدار يقطنون «في صحراء ساراسين (Sarrasins) التي يرى هو وأسابيوس (Eusèbe) أنها توجد «شرق البحر الأحمر»[4] أي في وسط غرب وشمال غرب الجزيرة العربية في منطقة الحجاز الحالية حيث توجد المدينة المنورة ومكة المكرمة.

---

(1) أشعياء 60، 4-7.

(2) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, Robert Laffont, 1989, p. 831.

(3) حزقيال 27، 21.

(4) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, Paris, 1912, vol. 2, part 1, p. 358.

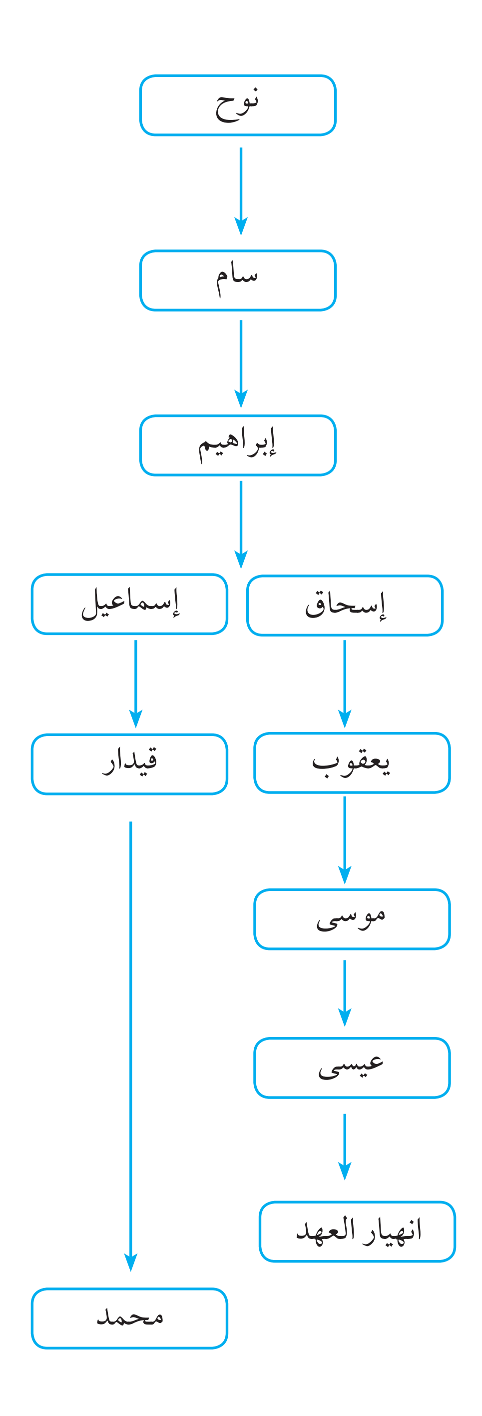
الخلاصة

لقد بيّنا في هذا الفصل أن الله قد اختار أمتين وباركهما:

- الأمة المنحدرة من إسحاق عليه السلام عبر يعقوب عليه السلام ثاني أبنائه: الشعب اليهودي الذي انحدرت منه أكثرية الأنبياء.
- الأمة المنحدرة من إسماعيل عليه السلام، عبر قَيدَار ثاني أبنائه، جد النبي محمد ﷺ.

والد إسحاق وإسماعيل عليهم السلام هو إبراهيم عليه السلام الذي اصطفاه الله وهم من ذرية سام الوحيد من بين أبناء نوح الثلاثة الذي بارك فيه الرب. لقد أوضحنا كيف أن الرسالة النبوية، كما أعلن النبي اليهودي الأخير، عيسى عليه السلام، قد انتُزعت من بني إسرائيل - بسبب نقضهم للعهد من خلال عبادتهم لغير الله وقتلهم للأنبياء- ليتم نقله إلى شعب آخر: أبناء إسماعيل عليه السلام عبر النبي محمد ﷺ.

الرسم البياني التالي يلخص أسماء الرجال والأمم التي وقع عليها الاختيار الإلهي:


نوح
سام
إبراهيم
إسحاق
إسماعيل
يعقوب
قيدار
موسى
عيسى
انهيار العهد
محمد



الفصل الثاني
أرض الوحي

1. وحي من جهة جزيرة العرب

وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاةِ الْعَطْشَانِ يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ .فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ .فَإِنَّهُ هكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ: فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قِيدَارَ وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قِسِيِّ أَبْطَالِ بَنِي قِيدَارَ تَقِلُّ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ (أشعياء 21، 13–17).

تصف نبوءة أشعياء، من وجهة نظر الشراح المسلمين، حدثين بارزين في حياة نبي الإسلام ﷺ. أما الأول فمهم جدًا لأنه يمثل بداية التقويم الإسلامي: الهجرة أي المنفى القسري للنبي ﷺ وصحبه من وطنهم، مكة، الذي احتلته قبيلته قريش التي تنحدر من قِيدَار[1]، نحو المدينة التي منحتهم ملجأ في «أرض تَيْمَاءَ». تَيْمَاءَ هي اسم كل من بلدة تقع شمال المدينة المنورة واسم أحد أبناء إسماعيل عليه السلام الاثني عشر. أما بالنسبة إلى الددانيّين فهم قبيلة جدها ديدان، حفيد إبراهيم عليه السلام، ومدينة توجد آثارها أيضًا في منطقة المدينة المنورة في العُلا. ومن اللافت للنظر أن هاتين المدينتين ظلت تقطنهما لمدة طويلة قبائل يهودية.

(1) The Historical Geography of Arabia, Charles Forster, London, vol. 1, p. 238-266.

الحدث الثاني الذي تنبأ به أشعياء، بحسب الشراح، من خلال هذه الكلمات: «فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدِ قِيدَارَ»، يتعلق بأول معركة كبرى في الإسلام، ألا وهي معركة بدر التي دارت رحاها، بعد سنة من الهجرة، بين وثنيين من قبيلة قريش المكيّة، من نسل قيدار، وبين المسلمين الذين استقر بهم المقام حديثًا في المدينة المنورة، وكان النصر حليفهم. كانت هذه المعركة مهمة للغاية لدرجة أن النبي ﷺ دعا ربه مستنجدا إياه لإنقاذ أصحابه، قائلاً على وجه الخصوص: «اللهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلامِ، فَلا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا»[1].

وأيا كان المعنى الذي ينبغي إعطاؤه لهذه النبوة، فإنها تدل على أن الجزيرة العربية تحتل مكانة خاصة في رؤيا أنبياء الكتاب المقدس، كما سيأتي. وسيبطل العجب متى عرفنا أن مهد الأمة اليهودية موجود في جزيرة العرب، كما جاء في القاموس الموسوعي للكتاب المقدس لمؤلفه ألكساندر ويستفال (Alexandre Westphal)، في مقالته «الجزيرة العربية» حيث كتب: «من المحتمل أن يكون «الشعب العبري» قد خرج من الجزيرة العربية في وقت مماثل، تمامًا كما خرج الإسلام بعد ذلك بقرون من الصحراء. هاجروا إلى الشمال وأصبحوا جزءًا من الشعوب السامية الشمالية المتميزة عن السبئية أو الفرع الجنوبي من السامية. فالأمة العبرية إذن كان لها أصل عربي».

2. جبل سيناء

سنبدأ هذه الفقرة بهذا الإعلان الذي سيفاجئ الكثيرين: إن جبل سيناء، خلافا لما تواترت عليه الروايات منذ عدة قرون، قد لا يكون في مصر بل في الجزيرة العربية. ويشاطر هذا الرأي الآن طائفة كبيرة من المجتمع الأكاديمي،

(1) مسلم، 1763.

بمن فيهم اختصاصيون مشهورون من أمثال هيرشيل شانكس (Hershel Shanks)، محرر مجلة علم الآثار التوراتية أو فرانك مور كروس (Frank Moore Cross)، أستاذ اللغة العبرية بجامعة هارفارد[1].

إن أولئك الذين تفاجأوا بهذا الإعلان سيتفاجؤون أكثر عندما يعلموا أن بولس، صاحب النفوذ القوي في المسيحية، يرى هو نفسه أن جبل سيناء يوجد في شبه الجزيرة العربية، وبالذات في غلاطية 4،25. فقد كتب بشكل لا لبس فيه ما يلي: «لأَنَّ هَاجَرَ هو جَبَلُ سِينَاءَ فِي الجزيرة الْعَرَبِيَّةِ». ويحرص المسيحيون على عدم ذكر هذا النص الذي ينسف الأطروحة الرسمية ويضع الجزيرة العربية في مركز الوحي الإلهي لأنها المكان الذي استلم فيه موسى عليه السلام الألواح وفيه أيضا، وفقًا للمسلمين، اُنزِل القرآن على محمد ﷺ.

نجد نفس الرواية عند المؤرخ اليهودي الذائع الصيت، فلافيوس جوزيف (Flavius Joseph) الذي ذكر، في كتابه «الآثار اليهودية»، أن جبل سيناء يقع في منطقة مدْين حيث لجأ موسى عليه السلام بعد فراره من مصر. والحال أن قاموس فيجوروا (Vigouroux) للكتاب المقدس (المجلد الرابع، الجزء الأول، ص 533–534) يعتمد بشكل خاص على كتابات يوسابيوس (Eusèbe) وجيروم (Jérôme) اللذين يتحدثان عن «مدينة اسمها مدْين، في جنوب المنطقة الرومانية من الجزيرة العربية، شرق البحر الأحمر، نحو صحراء ساراسين (Sarrasins)»، نقول يحدد هذا القاموس موقع مدْين في شمال غرب الجزيرة العربية.

يؤكد فلافيوس جوزيف هذا أن جبل سيناء هو بالتحديد «أعلى جبل في هذه المنطقة». وتوجد في الفصل 3 من سفر الخروج فقرتان تؤكدان ما ذهب

---

(1) www.ronwyatt.com.

إليه فلافيوس جوزيف. ففي الأولى نقرأ ما يلي: «وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ يَثْرُونَ حَمِيهِ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَسَاقَ الْغَنَمَ إلى وَرَاءِ الْبَرِّيَّةِ وَجَاءَ إلى جَبَلِ اللهِ حُورِيبَ»[1]. وفي آيات أخرى جاءت بعد ذلك يضيف الرب، بعد أن أمر موسى عليه السلام بالعودة إلى مصر لينقذ شعبه من نير فرعون: «إِنِّي أَكُونُ مَعَكَ، وَهذِهِ تَكُونُ لَكَ الْعَلاَمَةُ أَنِّي أَرْسَلْتُكَ: حِينَمَا تُخْرِجُ الشَّعْبَ مِنْ مِصْرَ، تَعْبُدُونَ اللهَ عَلَى هذَا الْجَبَلِ»[2].والحال أنه بعد مغادرة مصر مباشرة، تلقى موسى عليه السلام الألواح على جبل سيناء.

يلخص الكسندر ويستفال (Alexandre Westphal) هذا الرأي تلخيصا جيدا في المقالة التي أورد في قاموسه الموسوعي للكتاب المقدس، المكرس لمدْينَ: «حسب البيانات الغامضة التي جاءت في العهد القديم (التكوين 25.6؛ القضاة 6.3؛ الملوك 11.18؛ أشعياء 60.6) وتلك التي أوردها جوزيف في كتابه الآثار اليهودية II2.11، يوسابيوس (Onomast) و بطليموس (Ptolémée) (السادس، 7.2)، يكون بلد مدين على الساحل الشرقي للخليج الآيلانية (العقبة)، إلى شمال غرب شبه الجزيرة العربية [...] لذلك يكون موقع حوريب (سيناء) في شمال شبه الجزيرة العربية (الخروج 3.1 ، راجع غلاطية 4.25)».

وفي مقالة «سيناء»، كتب ألكسندر ويستفال عن جبل سيناء: «بيك في كتابه (Discoveries of Sinai in Arabia and of Midian، لندن، 1878)، وشاطره الرأي سايس (Sayce) في كتابه (Higher Criticism and the Monuments، ص 263) ونقاد آخرون، يعتبرونه موجود في مدين».

(1) الخروج، 3، 1.
(2) الخروج، 3، 12.

3. صحراء فاران

جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ (التثنية 33، 2)

يعتقد شراح الكتاب المقدس المعاصرون بصفة عامة أن صحراء فَارَانَ تقع شمال شبه جزيرة سيناء أي غرب البحر الأحمر ولكنه اعتقاد يجانب الصواب فيما يبدو لعدة أسباب.

أولاً: ورد في الكتاب المقدس أن إسماعيل عليه السلام «سَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ»[1]، بعد طرده هو ووالدته هاجر ويذكر أندريه ماري جيرار، في مؤلفه «قاموس الكتاب المقدس»، أن قبائل من الإسماعيليين ظلت تقطن الصحراء لاسيما في فترة عبور العبرانيين لها بعد مغادرتهم لسيناء حسب ما ورد في الوثيقة الكهنوتية. ويؤكد الكتاب المقدس كذلك أن أبناء إسماعيل عليه السلام «سَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ الَى شُورَ الَّتِي امَامَ مِصْرَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ اشُّورَ(العراق)»[2]. والحقيقة أن حَوِيلَةَ موجودة في جنوب الجزيرة العربية، في حين أن اشُّورَ تقع شمال شبه الجزيرة العربية، كما يؤكد ذلك سفر التكوين 25، 18 المذكور آنفا وسفر الخروج 15، 22. وعليه فإن هذا يدل على أن ذرية إسماعيل عليه السلام عاشت بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها، أي وسط شبه الجزيرة العربية، في الحجاز، شرق البحر الأحمر، حيث توجد صحراء فَارَانَ.

ثانياً: كتب أوريجانوس (Origène)، أب الكنيسة، ما يلي: «أخذ إبراهيم عليه السلام امرأة أخرى اسمها قطورة (Qetura) أنجبت له زمران

(1) التكوين 21، 21 .

(2) التكوين 25، 18 .

(Zimran). انحدرت من أبناء قطورة أمم كثيرة كانت تعيش في صحراء تروجلوديت (Troglodyte) والجزيرة العربية السعيدة، وما وراءها، إلى أراضي مدْين، ومدينة مدْين، الواقعة في الصحراء خارج شبه الجزيرة العربية في منطقة فاران (Paran)، شرق البحر الأحمر[1]».

ثالثًا: في ترجمته اللاتينية لكتاب (Onomasticon) لمؤلفه ازيبيوس (Eusebius)، كتب جيروم (Jérôme) واصفا حوريب (Horeb): «إنه جبل الله في منطقة مدْين، بجوار سيناء، وراء شبه الجزيرة العربية، في الصحراء، حيث يجتمع الجبل وصحراء سراسين (Sarrasins) التي تسمى فاران».

رابعًا: يشير جان أوغسطين بوست (Jean-Augustin Bôst) في قاموسه التوراتي بوضوح الى أن فاران يقع في الجزيرة العربية، وبالذات في منطقة الحجاز واصفا الجزيرة العربية بأنها حجرية أو صخرية: «هي الآن منطقة الحجاز: توجد جنوب غربها مدينتان مشهورتان هما مكة والمدينة، أماكن الحج المقدسة لدى أتباع محمد. كانت هذه المنطقة تنقسم في السابق إلى إقليم أدوم (Edom)، صحراء فاران وإقليم كوسان (Cusan)، إلخ» .

خامساً: يذكر الكتاب المقدس أن العبرانيين اجتازوا صحراء فران بعد مغادرتهم لسيناء: «فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي رِحْلاَتِهِمْ مِنْ بَرِّيَّةِ سِينَاءَ، فَحَلَّتِ السَّحَابَةُ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ»[2]. لقد بيّنا في الفصل السابق أن جبل

---

(1) Selecta in Genesim. Patrologiae, Series Graeca, Origène, J.P. Migne, 1857, vol. 12, p. 119-120.

(2) العدد 10، 12.

سيناء يقع على الأرجح في شمال الجزيرة العربية في مدْين. وعلاوة على ذلك، فإن الخطأ في تحديد موقع جبل سيناء هو الذي جعل المفسرين المسيحيين يظنون أن فاران تقع في شبه الجزيرة المصرية المعروفة الآن باسم سيناء.

يكتسي موقع صحراء فاران والجبل الذي يحمل نفس الاسم أهمية قصوى. فالمفسرون المسلمون يعتبرون أن هذا المقطع من سفر التثنية: «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ» هو في الواقع سرد لقائمة الأماكن الثلاثة التي نزل فيها الوحي الإلهي المُقارن هنا بنور الشمس: جبل سيناء الذي تلقى عليه موسى عليه السلام الناموس، وسعير في فلسطين حيث بشر عيسى عليه السلام، وجبل فاران، في الجزيرة العربية، وبالتحديد في الحجاز، الذي يعتبره المسلمون جبل مكة الذي تلقى عليه النبي محمد ﷺ بدايات الوحي. إنهم يرون أن هذه الفقرة من الكتاب المقدس تذكر بالآيات القرآنية التي يقسم الله فيها بهذه الأماكن المقدسة الثلاثة: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ»[1].

لذا فإن شجرة التين وشجرة الزيتون ترمزان إلى فلسطين التي بشر عيسى عليه السلام فيها بالإنجيل. وللتذكير يوجد في القدس تل معروف يسمى جبل الزيتون وتنتشر شجرة التين في هذه المنطقة. أما «الْبَلَدِ الأَمِينِ» فهو مكة.

(1) التين، 1-3 .

4. القدس الجديدة

مر بنا في الفصل المخصص لقيدار أن أندريه ماري جيرار فسر أحد رؤى أشعياء على أنها تعني «حجاج شمال شبه الجزيرة العربية (مدين) والجنوب (سبأ) في طريقهم إلى القدس المسيانية»[1]. والحال أن المكان المقدس الوحيد الذي كانت العرب تحج إليه، حتى قبل الإسلام، هو الكعبة في مكة المكرمة التي بناها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. فقد جاء في القرآن العظيم: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»[2].

النبي الذي يدعو إبراهيم عليه السلام ربه هنا أن يبعثه في العرب ليس سوى سليله محمد ﷺ، النبي العربي الوحيد المنحدر من مكة.

تذكر بقية رؤيا أشعياء طائفة أخرى من العرب، قيدار، تمثل بشكل خاص عرب الحجاز، في الوسط الغربي والشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية، ونبايوت (Nebajoth)، الابن البكر لإسماعيل عليه السلام: «كُلُّ غَنَمِ قِيدَارَ تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ. كِبَاشُ نَبَايُوتَ تَخْدِمُكِ». كتب أندريه ماري جيرار معلقا على هذا الفصل تعليقا في محله :»يستشهد أشعياء بنبايوت هذا مع شقيقه قيدار من بين القبائل العربية التي ستجلب قطعانها كقرابين إلى القدس المستقبلية»[3].

(1) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 831.

(2) البقرة، 127-129.

(3) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 984.

تتواجد هذه القبائل العربية إذن في جنوب ووسط وشمال الجزيرة العربية، أي في جميع أنحاء شبه الجزيرة، وتحج إلى القدس المستقبلية، جالبة قطعانها كقرابين وهي في خدمتها. هذه القدس المستقبلية لا يمكن أن تكون إلا مكة التي يذهب إليها العرب في رحلة حج وهم يقودون أضاحيهم.

وكذلك رد عيسى عليه السلام على المرأة السامرية التي قالت له: «آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هذَا الْجَبَلِ، وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ»، فرد عليها عيسى عليه السلام قائلا: «يَا امْرَأَةُ، صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ، لاَ فِي هذَا الْجَبَلِ، وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ»[1]. ما أكثر أوجه الشبه بين هذا النص والنص الذي جاء في إنجيل متى 21، 43 الذي تم تناوله سابقًا حيث أخبر عيسى عليه السلام اليهود «إِنَّ مَلَكُوتَ اللهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّة تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ». ولما فسخ نسل إسحاق عليه السلام العهد، منح الله ملكوته لأحفاد إسماعيل عليه السلام واستبدل هيكل القدس ـ الذي دمر تدميرا كاملا سنة 70 بعدما طرد عيسى عليه السلام قومُه ـ بالبيت الحرام في مكة.

5. وادي بلسم

ذكرت مكة بالاسم في هذا المزمور من مزامير داود عليه السلام: «طوبى للساكنين في بيتك، أبدا يسبحونك. سلاه طوبى لأناس عزهم بك. طرق بيتك في قلوبهم عابرين في وادي بكة، يصيرونه ينبوعا. أيضا ببركات يغطون مورة»[2]. وبالفعل فيما يتعلق بالكعبة، بيت الله الموجود في مكة، فإن القرآن يقول: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلًا»[3].

(1) يوحنا 4، 20-21.
(2) المزامير 84، 4-6 .
(3) آل عمران، 96-97.

لقد وقف مترجمو الكتاب المقدس حائرين أمام كلمة «بكة» في مزمار داوود عليه السلام لدرجة أنهم، في كثير من الأحيان، احتفظوا بها كما هي. ومع ذلك، اختار البعض منهم ترجمة هذه الكلمة بكلمة البلسان. وفيما يلي، على سبيل المثال، ترجمة هذا المقطع في ترجمة المجمع الكنسي للكتاب المقدس الذي ترجم المقطع كما يلي: «مرورا عبر وادي البلسان». يشرح لنا قاموس فيجورو للكتاب المقدس هذا الاختيار: «فعلا يقول بعض المؤلفين إن بكة تعني «التقطير» (تسيل مثل الدموع)؛ ومن هنا جاء اسم الجمع بكائم (bekâ'im)، المستخدم للدلالة على شجيرة تفرز عصيرًا صمغيًا يشبه البلسم. وهذه الشجيرة التي تسمى بالعربية بكة، أُطلِق اسمها على الوادي»[1]. فكلمة بكة التي وردت في الكتاب المقدس بمعنى البلسان لها أصل عربي. الأصل العربي لاسم هذه الشجيرة يعود في الواقع إلى موطنها الجغرافي وهو الجزيرة العربية وبالتحديد مكة. وهكذا، نجد في تعليق كيل (Keil) ودليتسوش (Delitzsch) على العهد القديم فيما يخص المزامير 84، 7، أن «بكة» هي «شجرة تشبه البلسان الذي يفرز العصير الصمغي والذي يطلق عليه بكة بالعربية وهو منتشر في وادي مكة القاحل». وفي سفر صموئيل الثاني 5، 24، حيث يتم استخدام مصطلح مشابه، يوجد هذا التعليق: «ذكر أبو الفضل أن بكة هي الاسم الذي يُطلق بالعربية على شجيرة تنبت في مكة وتشبه البلسم، إلا أن أوراقها أطول وأوسع، وفاكهتها مستديرة، وعندما تنكسر ورقة من أوراقها، يتدفق منها النسغ الأبيض». ما هو إذن هذا النوع من شجرة البلسان الذي ينبت في مكة والذي اشتق منه اسم هذا الوادي؟ أما اسمها العلمي فهو Commiphora opobalsamum واسمها الشائع في فرنسا فهو ... «بلسم مكة» (le baumier de la Mecque). وفي أطروحتها

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 2, part 2, p 1372.

للدكتوراه حول «بلسم مكة» التي ناقشتها في جامعة باريس عام 2013 كتبت آن صوفي مالابير (Anne-Sophie Malapert) ما يلي: «في فرنسا، يُطلق عليها بالعامية «بلسم مكة»، وهو اسم سبق أن ورد في كتاب أخيل ريتشارد (Achille Richard) عام 1823». وعلاوة على ذلك ذكر دوبليسي (Duplessy) في كتابه الذي نشر في عام 1802، أن «بلسم مكة يعتبر أثمن شيء يحمل هذا الاسم». ومن المحتمل جدا أن هذا البلسم الذي موطنه مكة أصلاً، والذي يظهر أنه كان مشهورا جدًا، قد تم نقله إلى فلسطين عبر طريق الحرير الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بالبحر الأبيض المتوسط. لذلك كان هذا الوادي يسمى هكذا بسبب شهرة انتشار نبات البلسم فيه.

أضف إلى ذلك أن العديد من المعلقين يرون أن هذا الوادي كان مكانا يرتاده الحجاج، وهو ما ينطبق تمامًا على مكة، التي هي المكان الوحيد الذي يوجد فيه اليوم حَرَم يشد ملايين المسلمين رحالهم إليه كل عام للحج. وقد ورد في قاموس فيغورو (Vigouroux)، في المقال المتعلق ببكة (Baca) حول هذا الموضوع: «حسب الكثير من المؤلفين المتأخرين والمعترَف بهم، فإن الفكرة المتناولة في هذا المقطع هي فكرة الحج الديني». هناك عنصر آخر يشهد لصالح مكة وهو أن قاموس فيجورو يلاحظ أن النص المقدس، «يصف لنا وادي بكة بأنه أرض قاحلة»، وهو ما ينطبق تماما على مكة. وهنا نلمس ما للآية القرآنية التي يدعو فيها إبراهيم ربه لإسماعيل عليهما السلام وبعضا من ذريته، بعدما أسكنه، من دلالات عميقة في هذا السياق: «رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ»[1]. ولا يفوتنا هنا أن إبراهيم عليه السلام، تماما كما جاء في المزمور، يستخدم مصطلحي «الوادي» و «البيت» كما يستخدمها المزمور: «طُوبَى لِلسَّاكِنِينَ فِي بَيْتِكَ أَبَداً يُسَبِّحُونَكَ».

(1) إبراهيم، 37 .

الخلاصة

لقد أوضحنا، في هذا الفصل، المكانة المركزية التي تحتلها الجزيرة العربية في تاريخ الخلاص، وهي المكانة التي قلل من شأنها المعلقون اليهود، وخاصة المسيحيون، عمداً، لا سيما من خلال اعتبار جبل سيناء وصحراء فاران موجودين فيما كان يسمى، خطأ، شبه جزيرة سيناء، ولكن أيضا من خلال رفضهم الأعمى أن تكون مكة المكرمة هي القدس الجديدة التي أخبر بها الأنبياء والمسيح عليهم السلام.

الفصل الثالث
النبي الموعود

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ (الأعراف، 157 - 156).

1. النبي الذي أخبر به موسى عليه السلام

أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيّاً مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ وَأَجْعَلُ كَلامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ (التثنية 18، 18)

إذا كان هناك فصل من العهد القديم قد أثار منذ زمن بعيد جدلا بين المسيحيين والمسلمين، فهو هذا الإعلان الوارد في سفر التثنية 18، 18 والذي يرى المسلمون أن المقصود به هو محمد ﷺ متعللين بالأسباب التالية:

أولاً: إن الكلمات «مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ» تعني العرب، إخوة اليهود، لأنهم منحدرون من إسماعيل عليه السلام بينما يرجع نسب اليهود إلى جدهم إسحاق، أخي إسماعيل والابن الثاني لإبراهيم عليهم السلام جميعا. ولربما شكلت هذه العبارة المصاغة على النمط السامي مفاجأة لكنها وردت من جديد في العهد القديم بشأن أبناء عيسو (Esaü) الملقبين بـ «إخوة» بني إسرائيل، لأن عيسو هو شقيق إسرائيل (يعقوب)، وكلاهما ابنا إسحاق[1]. والحال أن الله لم يبعث، من بين نسل إسماعيل، من نبي إلا محمدا ﷺ.

(1) التثنية 2، 4.

ثانياً: التعبير «مِثْلكَ» ينطبق تمامًا على محمد ﷺ الذي كان، مثل موسى عليه السلام، مشرعًا وقائدًا لقومه. ولا ينطبق، خلافا لما يعتقد المسيحيون، على عيسى عليه السلام الذي لم يأت بقانون جديد ولم يكن الملك المنتظر لدى إسرائيل. كما أن هذا التعبير لا ينطبق كذلك، خلافا لما تدعي طائفة من اليهود، على يشوع ولا على صموئيل اللذين لا يمكن أن يقارنا بموسى عليه السلام، هذا النبي الذي يقول عنه الكتاب المقدس: «وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيل مِثْلُ مُوسَى»[1].

ثالثاً: إن الكلمات «وَأَجْعَلُ كَلامِي فِي فَمِهِ فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ» تنطبق تمامًا على محمد ﷺ، الذي كان يكتفي، بصفته أميًا، بتكرار الكلمات التي ينقل إليه جبريل من عند الله.

يرد المسيحيون كل هذه البراهين بحجة أن السياق يستبعد أي نبي لا يكون عبريا وأن العبارة «مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ» تشير عمومًا في الكتاب المقدس إلى اليهود أنفسهم.

لا سبيل لنكران قوة الحجج التي أتى بها المسيحيون. ومع ذلك، فثمة فصل في الأناجيل كان من المفترض أن يثير اهتمام رجال الدين ولكن لا يبدو أنه لفت انتباههم، اللهم إلا إذا كانوا قد تجاهلوه عن عمد نظرًا لتبعاته. ويتعلق الأمر بالفصل الذي يحكي الاستجواب الذي تعرض له يوحنا المعمدان على يد بعض الفريسيين. «وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ اليهود مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَاعْتَرَفَ وَلَمْ

(1) التثنية 34، 10.

يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ. فَسَأَلُوهُ: إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟ فَقَالَ: لَسْتُ أَنَا. النَّبِيُّ أَنْتَ؟ فَأَجَابَ: لاَ»[1].

وبعد ذلك بفقرات نقف على هذا العتاب الذي وجهه له الفريسيون: «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ وَلاَ إِيلِيَّا وَلاَ النَّبِيَّ؟»[2]

من هذين الفصلين، نستنتج من جهة أن الكتب المقدسة أعلنت مجيء نبي معروف ذي مقام خاص، كما يتضح من استخدام أداة التعريف «ال» العهدية، و من ناحية أخرى أن هذا النبي يختلف عن المسيح.

يؤكد فصل آخر من العهد الجديد أن اليهود كانوا ما يزالون ينتظرون في زمن عيسى عليه السلام نبيًا آخر إلى جانب المسيح: « فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلاَمَ قَالُوا: هَذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ آخَرُونَ قَالُوا: هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ[3].ويربط العديد من المعلقين المسيحيين، من أمثال أوريجانوس (Origène)، بين النبي الذي أعلنه موسى عليه السلام في تثنية 18، 18 والنبي الذي ينتظره اليهود في زمن عيسى عليه السلام.

وعلى الرغم من أنه من غير الممكن الجزم بأن محمدا هو النبي الذي أخبر به موسى عليه السلام، فلا شك أن اليهود كانوا في القرن الأول من التاريخ المسيحي ينتظرون نبيًا آخر غير المسيح. والحال أنه حتى الآن، لم يأت من بين اليهود من يجسد هذه النبوءة. بل إن الانسان الوحيد الذي ظهر بعد عيسى عليه السلام وأعلن أنه نبيّ وجاء بدين يزعم أنه من عند إله إبراهيم عليه السلام هو نبي الإسلام.

---

(1) يوحنا 1، 19-21.
(2) يوحنا 1، 25.
(3) يوحنا 7، 40-41.

2. النبي الذي أخبر به يعقوب عليه السلام

لا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يأتي شيلوه وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ (التكوين 49، 10)

أخبر يعقوب عليه السلام أبناءه الاثني عشر بهذه النبوءة، وهو على فراش الموت، حيث حدثهم عن مستقبل قبائلهم جميعا. لقد اضطر مترجمو الكتاب المقدس، أمام الصعوبة التي طرحتها كلمة شيلوه (Chiloh) التي ظهرت مرة واحدة فقط في الكتاب المقدس، إلى إثباتها كما هي «شيلوه» دون ترجمتها. لكن الكتاب المقدس السرياني، المعروف باسم ابشيتا (Peshitta)، أوّل العبارة بهذه الطريقة: «الذي هم موّجّهون إليه» أي القَضِيب وَالمُشْتَرِع أي، حسب تأويل المعلقين المسيحيين، السلطات الزمنية والروحية على حد سواء. وبعبارة أخرى، فكما هو حال الأنبياء الملوك في بني إسرائيل، مثل داوود وسليمان عليهما السلام المنحدرين من يهوذا بالتحديد، فإن شيلوه هذا شيصبح ملكًا ونبيا في نفس الوقت. ولكن، وعلى عكس الأخيرين، بسط سيطرته على جميع الشعوب، وليس فقط على الأمة اليهودية، كما يشير التعبير «وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ».

وحسب تأويل المسيحيين، فإن شيلوه هذا هو عيسى عليه السلام، لكن أندريه ماري جيرار يعترف في قاموسه للكتاب المقدس (ص 210) أنه «لا يوجد نص آخر يسمي المسيح باسم شيلوه». ويتابع: «لذلك خمنا أن في القراءة خطأ، صححه المترجمون بطرق مختلفة جدا:» ... حتى جاء صاحب [القضيب]»، أو «حتى قُدِّمت له الجزية»، أو مرة أخرى مع القديس جيروم (Jérôme): «حتى يأتي الشخص الذي سيرسل». هذه الأوصاف

تناسب محمدا ﷺ أكثر بكثير مما تناسب عيسى عليه السلام، حتى ولو لم يكن ثمة ما يُثبت، على وجه اليقين، أن شيلوه هذا هو في الواقع نبي الإسلام. إن محمدا ﷺ هو بالفعل من أسس إمبراطورية فرضت الجزية على غير المسلمين، بينما كان عيسى عليه السلام يدفع الجزية للرومان[1]، وهو الذي جاء ذكره مرارًا في القرآن الكريم باسم «رسول الله»، وهو لقب لم يطلقه المبشِّرون الأربعة أبدا على عيسى عليه السلام. وعلاوة على ذلك، فإن عيسى عليه السلام لم يدّع أبدا سلطة زمنية ولا سلطة روحية، إذ كان يقول إن «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ»[2].

وعلاوة على ذلك، فإذا كان شيلوه هذا هو المسيح فعلاً، فلأي سبب لم تُطبّق هذه النبوءة على عيسى عليه السلام في العهد الجديد كما هي الحال مع نبوءات أشعياء أو داود عليه السلام على سبيل المثال، مع أنها صادرة من الأب يعقوب عليه السلام الذي له مقام أعلى من مقام النبي أشعياء أو حتى من الملك داود عليه السلام؟ ربما لأنه لا توجد في أذهان المسيحيين الأوائل أية علاقة بين المسيح وبين شيلوه هذا.

وحسب ما جاء في قاموس استرونغ (Strong) الشهير للتوراة فإن مصطلح شيلوه (Chiloh) مشتق من الكلمة العبرية (Chalah) التي تتضمن مفهومي «السكينة» و«السلام». وبالمثل، نرى جان دانييل ماتشي (Jean-Daniel Macchi)، في الدراسة اللغوية الطويلة التي أعدها حول المصطلح العبري «شيلوه» ضمن كتابه إسرائيل وقبائلها وفقًا لسفر التكوين 49، يختتم تلك الدراسة بهذا التأكيد:

(1) متى 17، 24-27.
(2) يوحنا 18، 36.

إن «تفسير كلمة(شيلوه) بمعنى مفهوم «السكينة» أو «السلام»، تبدو لنا أقرب اقتراح محتمل. وهكذا يكون التعبير 10 ﷺ يعني: «حتى يأتي السلام» ويشير إلى زمن من الهدوء سيأتي في المستقبل أو يحل في الحاضر»[1]. لذلك فقد لا يعني شيلوه رجلاً، بل حقبة جديدة. ومن الصعب ألا يجرنا هذا التأويل، الذي أجمع عليه العديد من المتخصصين المعاصرين، إلى التفكير بدين الإسلام، وهي كلمة مكونة من الجذر السامي «س ل م» الذي يعني «السلام»، سلام الروح الذي يحصل عن طريق الاستسلام لإرادة الله.

3. النبي الذي أخبر به أشعياء

إليكم هذه الرؤيا الأخرى لأشعياء التي يؤولها بعض المسيحيين خطأ على أنها تعني عيسى عليه السلام: «وَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ .قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إلى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ .هَكَذَا يَقُولُ اللَّهُ الرَّبُّ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَنَاشِرُهَا بَاسِطُ الأَرْضِ وَنَتَائِجِهَا مُعْطِي الشَّعْبِ عَلَيْهَا نَسَمَةً وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا رُوحاً[...]أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْداً لِلشَّعْبِ وَنُوراً لِلأُمَمِ لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ.أَنَا الرَّبُّ هَذَا اسْمِي وَمَجْدِي لاَ أُعْطِيهِ لِآخَرَ وَلاَ تَسْبِيحِي لِلْمَنْحُوتَاتِ.هُوَذَا الأَوَّلِيَّاتُ قَدْ أَتَتْ وَالْحَدِيثَاتُ أَنَا

(1) Israël et ses tribus selon Genèse 49, Jean-Daniel Macchi, Fribourg, 1999, p. 109.

مُخْبِرٌ بِهَا. قَبْلَ أَنْ تَنْبُتَ أُعْلِمُكُمْ بِهَا. غَنُّوا لِلرَّبِّ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً تَسْبِيحَهُ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ. أَيُّهَا الْمُنْحَدِرُونَ فِي الْبَحْرِ وَمِلْؤُهُ وَالْجَزَائِرُ وَسُكَّانُهَا لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ!»[1]

ما يزال اسم قيدار حاضرًا في هذا الفصل الذي يُنبئ، حسب أندريه ماري جيرار، بإعادة الاعتبار لذريته في القدس المستقبلية. ويعتبر هذا الفصل، حسب ما يراه المسلمون، بمثابة إخبار بظهور أبرز أحفاد قيدار أي نبي الإسلام ﷺ الذي ينطبق عليه تمامًا، خلافا لعيسى عليه السلام، وصف «العبد» الذي «يُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ». في الواقع، جاء ذكر محمد ﷺ في القرآن أكثر من مرة على أنه «عبد الله» كما في هذه الآية: «هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ»[2]. يضاف إلى ذلك أنه كان يحب أن يدعوه صحابته بهذا الاسم حيث قال لهم مرة: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله». وعلاوة على ذلك، وبخلاف عيسى عليه السلام الذي لم يرسل، حسب اعترافه هو نفسه، إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضائعة، فقد أرسل محمد ﷺ إلى الأمم كافة. وهو ما أكده القرآن في هذه الآية: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»[3].

إن كلمات أشعياء هذه «لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ» تصف بدقة كل الحروب التي شن نبي الإسلام ﷺ طوال ثلاث وعشرين سنة لنشر رسالته وشريعته، بينما عيسى عليه السلام الذي لم تدم حياته العامة أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات، لم يأت بأي شريعة، بل،

(1) أشعياء 42، 1-11.
(2) الحديد، 9.
(3) الأنبياء، 107.

على العكس، ظل يقول: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ»[1]. لنلاحظ أن النص يقول «شَرِيعَتَهُ» وليس «الشريعة»، مما يعني أن هذا «العبد» سيأتي بشريعة جديدة، الشريعة الإسلامية بعد نامُوسَ موسى.

رأينا في الآية القرآنية التي مرت بنا قبل قليل أن محمدا ﷺ أرسل إلى الناس لِيُخْرِجَهم» مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ» وهو ما يتطابق تمامًا مع كلمات أشعياء: «وَأَجْعَلُكَ عَهْداً لِلشَّعْبِ وَنُوراً لِلأُمَمِ لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ».

وأخيرًا وعلى وجه الخصوص، يدعو أشعياء العرب، المرموز لهم هنا بقيدار، وسكان سَالِعَ، العاصمة القديمة لشبه الجزيرة العربية الصخرية، إلى الفرح وتمجيد الرب الذي أرسل لهم عبده الذي اختاره من بينهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور. ولعل بحثا سريعا في الكتاب المقدس يكفي لإدراك أن الأمة الوحيدة المدعوة للفرح، باستثناء إسرائيل بالطبع، هي الأمة العربية، المرموز لها بقيدار، ألمع أسلافها الذي يجدر التذكير بأنه ينتمي لسلسلة نسب النبي محمد ﷺ. والحال أن واحدة من المناطق الوحيدة في العالم القديم التي أخفقت المسيحية في دخولها هي بالتحديد منطقة الحجاز، المقاومة بطبيعتها لكل تأثير خارجي وهي موطن القبائل العربية وخاصة أبناء قيدار. وحول هذا الموضوع كتب إدوارد جيبون (Edward Gibbon): «لقد اعتاد العرب المعزولون عن بقية الناس على الخلط بين فكرة الأجنبي والعدو»[2]. وإذا كانت المسيحية قد تمكنت من

(1) متى 5، 17.

(2) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, (1776 - 1788), Edward Gibbon, London, Strahan & Cadell.

الاستقرار في تخوم شبه الجزيرة العربية، إلى الجنوب تحت تأثير الحبشة وفي الشمال، تحت تأثير الإمبراطورية البيزنطية، فإنها لم تفلح أبدًا في اختراق الحجاز، قلب شبه الجزيرة العربية وموطن أبناء قيدار.

4. النبي الذي أخبر به عيسى عليه السلام

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (الصف، 6).

إنجيل يوحنا هو الوحيد الذي روى الخطاب الذي ألقاه عيسى عليه السلام اثناء وجبته الأخيرة مع الحواريين. والغريب أنه لا أثر لهذه القصة في الأناجيل الثلاثة الأخرى، رغم أنها ذات أهمية قصوى في مستقبل البشرية. ففيها يبين السيد المسيح عليه السلام فعلا مَن الهادي الذي يجب على الناس إتباعه بعد ما يتوارى هو. ويطلق الإنجيل اليوناني على هذا الهادي اسم فارقليط (Parakletos). واليكم جانبا من هذا الخطاب:
«لَكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ .وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرٍّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ .أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي .وَأَمَّا عَلَى بِرٍّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضاً .وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ. إِنَّ لِي أُمُوراً كَثِيرَةً أَيْضاً لأَقُولَ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلى جَمِيعِ الْحَقِّ لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ».[1]

---

(1) يوحنا 16، 7-13.

يقول المسيحيون إن هذا الفارقليط هو «الروح القدس» أو «رُوحُ الْحَقِّ»، كما هو واضح من النص. لكن هذا الاعتقاد يتناقض مع المصطلحات الأخرى الواردة في نفس الفصل من الإنجيل الذي يبين أن الفارقليط: «لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ» وأن «كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ» و«يُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ» و«يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ». والحال أن «الكلام» أو «السمع» أو «الإخبار» هي سمات البشر، وليست سمات روح، هي سمات نبي، وليست سمات روح الحق. خاصة وأن الفعل «سمع» يترجم كلمة (akouô) اليونانية، التي تعني إدراك الأصوات والتي اشتقت منها، على سبيل المثال، «الصوتيات» acoustics بالإنجليزية. ونفس الملاحظة تنطبق على فعل «تكلم» المقابلة للكلمة اليونانية «laleô» والتي تعني في إطلاقها العام «إصدار الأصوات». وهو ما جعل الباحث الفرنسي موريس بوكاي (Maurice Bucaille) يقول في كتابه القرآن والتوراة والإنجيل والعلم (La bible, le Coran et la science): «لذلك يبدو أن التواصل المذكور هنا مع البشر لا يتمثل في أي إلهام قد يكون من الروح القدس، لكن ذو طابع مادي واضح بسبب فكرة إصدار الصوت المرتبطة بالكلمة اليونانية المحددة لها. وعليه يكون الفعلان اليونانيان akouô وlaleô يحددان أفعالا ملموسة لا يمكن أن تعني إلا كائنا يمتلك جهاز سمع وجهاز كلام. لذلك، لا يمكن أن تنطبق على الروح القدس»[1].

---

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 108.

كما أننا نجد في إنجيل يوحنا 14، 30 وصف عيسى عليه السلام لهذا الفارقليط بأنه «رَئِيس هَذَا الْعَالَم»، وهو تعبير لا يمكن أن يناسب إلا إنسانا.

وبالتالي فنحن هنا أمام مشكلة لخصها ألكساندر ويستفال (Alexandre Westphal) ببراعة في قاموسه الموسوعي للكتاب المقدس، عند مقالته بعنوان الفارقليط: «هل هو شخص؟ عمله من ناحية عمل واع وودي ودقيق. ومن ناحية أخرى، أرسله الأب باسم عيسى (يوحنا 14، 26)؛ عيسى يرسله وهو يأتي من عند الأب. انظر (يوحنا 15، 26) أو روح؟ مشكلة قديمة، لم تحل أبدا بشكل تام».

هناك مشكلة أخرى تنضم لهذه المشكلة الأولى. الفارقليط المُخْبَر به «لن يأتي إلا بعد رحيل عيسى».

إن الادعاء بأن الفارقليط هو الروح القدس هو إذن التأكيد على أن الروح القدس كان غائباً خلال حياة عيسى عليه السلام العامة وهو ما يناقض الإنجيل نفسه الذي جاء فيه على سبيل المثال: «وَلَمّا اعْتَمَدَ جَمِيعُ الشّعْبِ اعْتَمَدَ يَسُوعُ أَيْضاً. وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي انْفَتَحَتِ السّمَاءُ وَنَزَلَ عَلَيْهِ الرُّوحُ الْقُدُسُ»[1].

ينبغي، لحل هذه المعضلة المزدوجة، الرجوع إلى المعنى الأصلي لكلمة Parakletos اليونانية واستخدامها خارج إنجيل يوحنا. حول هذا الموضوع كتب ألكساندر ويستفال (Alexandre Westphal): «يشير لفظ الفارقليط باليونانية، خارج العهد الجديد، إلى الشخص الذي يُدعى قائدا لقضية ما أو مدافعًا عنها، مناصرا أو شافعا». وقد ورد أيضًا في القاموس

(1) لوقا 3، 21-22.

الصغير للعهد الجديد لمؤلفه اتريكو (A.Tricot) ما يلي: «كان الفارقليط مصطلحًا شائعًا يستخدمه اليهود الهلنستيون في القرن الأول بمعنى الشفيع والمدافع». وقد استبعد ديفيد اباستورلي (David Pastorelli) مصطلحي «المحامي» أو «المدافع»، اللذين لهما دلالة قانونية لا توجد في مصطلح الفارقليط، ضمن دراسة مطولة تناولت دلالات كلمة الفارقليط اليونانية فكتب في خاتمة مؤلفه بعنوان «الفارقليط في المدونة اليوحانية»: «إن معنى الشفيع قد تأكد، في انجيل يوحنا الأول 2، 1–2 كما عند فيلون (Philon) وفي أدب الحاخامات أو الأدب المسيحي البدائي أو أدب آباء الكنيسة»[1].

وبالتالي فإن الترجمة الأكثر دقة لكلمة «الفارقليط» هي «الشفيع»، وهو مصطلح لا يناسب إلا الإنسان. فقد كان عيسى نفسه عليه السلام «فارقليطا» كما يشير إلى ذلك هذا الفصل الآخر من إنجيل يوحنا (14، 16) حيث يقول: «وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ فارقليطا آخَرَ» أو رسالة يوحنا الأولى التي يستخدم فيها نفس الكلمة «الفارقليط» عانيا عيسى عليه السلام باعتباره شفيعًا لدى الرب: «وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ»[2]. وفيما يتعلق بهذه الكلمات من رسالة يوحنا، ورد في قاموس Vigouroux: «المخلص (عيسى) يقوم بدور «الفارقليط» من خلال الشفاعة والتدخل للدفاع عنا بشكل فعال ضد عدالة الأب»[3].

(1) Le Paraclet dans le corpus johannique, David Pastorelli, Berlin, 2006, p. 291.

(2) يوحنا 2، 11.

(3) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 4, part 2, p. 2118-2119.

وعليه لم يكن أمام موريس بوكاي إلا أن يستنتج هذه الخلاصة: «لذلك، فإن المنطق يقودنا إلى اعتبار أن «الفارقليط» الذي يتحدث عنه يوحنا إنسانا مثل عيسى عليه السلام وُهب القدرة على الاستماع والكلام وهما ملكتان تستنتجان بصفة قطعية من النص اليوناني المعتمد لدى يوحنا. لقد أخبر عيسى عليه السلام إذن أن الله سيرسل لاحقًا إنسانًا إلى هذه الأرض للقيام بالمهمة التي حددها يوحنا والتي هي باختصار مهمة نبي يتلقى الوحي من الله وينقل رسالته إلى البشر. ذلكم هو التأويل المنطقي لنص يوحنا إذا ما أعطينا للكلمات معناها الحقيقي».[1]

الفارقليط هو إذن إنسان من نفس طبيعة عيسى عليه السلام وله نفس الرسالة لأن عيسى عليه السلام أخبر «بفارقليط آخر» مثله هو شفيع للناس عند الرب.

كيف نُؤوِّل إذن ذكر روح الحق (16، 13) أو الروح القدس (14، 26) في إنجيل يوحنا مباشرة بعد ذكر الفارقليط؟ البعض يعتقد أن الأمر إنما هو إضافة أو ربما تعليق بسيط من قبل الكَتَبَة. وهكذا كتب الخبير في شؤون التوراة أندريه بول (André Paul): «لقد ربط التقليد المسيحي هذا المجاز بمفهوم الروح القدس. ومع ذلك، فقد تم الاشتباه في الطابع الأصلي لهذا الربط، حيث وردت في بعض الأحيان فكرة أن الفارقليط كان في المقام الأول شخصية منقِذة مستقلة، وأن الأمر لا يعدو أن يكون خلطا حصل بعد ذلك بينها وبين الروح القدس».[2]

---

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 109.

(2) Encyclopædia Universalis, « Paraclet ».

ومن جهته يذكر جورج جونستون (George Johnston) في كتاب الروح الفارقليط (The Spirit–Paraclete) في إنجيل يوحنا عددًا من الشراح الذين يرون أن الفارقليط ليس هو الروح القدس: «يؤكد Betz جريا على ما ذهب إليه F. Spitta و H. Delafosse و H. Windisch و H. Sasse و R. Bultmann، أن الفارقليط والروح القدس يمثلان واقعين مختلفين»[1].

ويرى موريس بوكاي أن هذه الإضافة قد تكون مقصودة: «إن وجود عبارة الروح القدس في النص الذي بين أيدينا يمكن أن يكون محض إضافة لاحقة متعمّدة، تهدف إلى تحريف المعنى الأصلي لفقرة تخبر بمجيء نبي بعد عيسى عليه السلام، وهو ما يتناقض مع تعاليم الكنائس المسيحية الناشئة، سعيا منها إلى جعل عيسى عليه السلام هو آخر الأنبياء».

5. من هو ابن الانسان؟

لِذَلِكَ كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً مُسْتَعِدِّينَ لأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ لاَ تَظُنُّونَ يَأْتِي ابْنُ الإِنْسَانِ (متى 24، 44)

كل من يقرأ كلمات عيسى عليه السلام هذه دون التعليقات المسيحية التي ترافقها عادة سيستنتج لا محالة أن هذا الشخص يعلن عن مجيء شخص آخر ليس هو، يسمى «ابن الإنسان» له أهمية كبيرة، كما يستشف من العبارات «كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضاً مُسْتَعِدِّينَ».

إن تعبير «ابن الإنسان» معروف جدًا عند اليهود الذين يخاطبهم عيسى عليه السلام فهو يشير إلى رؤيا دانيال التي تحدثنا عنها سابقا وبشكل خاص

(1) The Spirit-Paraclete in the Gospel of John, George Johnston, Cambridge, 1970, p. 115.

في الفصل الذي يصف «ابن الإنسان» الذي من خلاله ستقام ملكوت الله إلى الأبد على الأرض: «كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إلى الْقَدِيمِ الأَيَّام فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ فَأُعْطِيَ سُلْطَاناً وَمَجْداً وَمَلَكُوتاً لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ وَمَلَكُوتُهُ مَا لاَ يَنْقَرِضُ»[1]. ومع ذلك يدعي الشراح المسيحيون، دون أدنى دليل، أن عيسى عليه السلام، من خلال إنجيل متى 24، 44، يتحدث عن نفسه، ويعلن عودته (الباروسيا). ومع ذلك، وكما هو الحال هنا، فإن صيغة «ابن الإنسان»، التي تكررت ثمانين مرة تقريبًا على لسان عيسى عليه السلام بضمير الغائب كما لو تعلق الأمر بإنسان آخر غيره. يضاف إلى ذلك أن لوقا ينسب إلى عيسى عليه السلام هذا القول: «وَأَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَنِ اعْتَرَفَ بِي قُدَّامَ النَّاسِ يَعْتَرِفُ بِهِ ابْنُ الإِنْسَانِ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ .وَمَنْ أَنْكَرَنِي قُدَّامَ النَّاسِ يُنْكَرُ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللهِ»[2]. وها هي الفقرة نفسها يرويها مرقس: «لأَنَّ مَنِ اسْتَحَى بِي وَبِكَلاَمِي فِي هَذَا الْجِيلِ الْفَاسِقِ الْخَاطِئِ فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ»[3]. من ناحية أخرى، فإن هذه الفقرة تشكل مشكلة كبيرة بالنسبة لمتى لدرجة أنه يعتقد أنه من الضروري إزالة عبارة «ابن الإنسان» واستبدالها بالضمير (أنا)، الأنسب في هذا المكان، إذا كان عيسى عليه السلام بالطبع يتحدث عن نفسه: «كُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا أَيْضاً بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ وَلَكِنْ مَنْ يُنْكِرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضاً قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ».[4]

(1) دانيال 7، 13-14.
(2) لوقا 12، 8-9.
(3) مرقس 8، 38.
(4) متى 10، 32-33.

ومع ذلك، فإن التفسير السائد منذ رودولف بولتمان[1] (Rudolf Bultmann) هو أن عيسى عليه السلام يتحدث عن ابن الإنسان بضمير الغائب وهو ما يدل على أنه لا يتحدث عن نفسه. بل إنه ربما اعتبر نفسه مبشرا بشخص يأتي من بعده مُخلِّصا. وعلاوة على ذلك، فإن تلاميذ عيسى عليه السلام لم يطلقوا عليه أبداً، في الأناجيل، لقب «ابن الإنسان»، خلافا للقب «ابن الله» الذي استخدموه ثلاث عشرة مرة في العهد الجديد قاصدين به المسيح. أضف إلى ذلك أن هذا اللقب لم يرد ألبته على لسان بولس رغم إلمامه الجيد بالكتاب المقدس، وخاصة برؤيا دانيال. وعليه فإنه لم يكن ليتقاعس عن وصف شخص رفعه إلى مرتبة الإله بهذا الوصف المليء بالتمجيد. كما أننا لا نجد أثرا لهذا اللقب في صيغ العقيدة المسيحية.

كل هذا جعل بعض شراح الكتاب المقدس من أمثال هانز ليتزمان (Lietzmann) في كتابه ابن الانسان (Der Menschensohn) (1896) يقولون بأن التعبير الآرامي الوارد في الإنجيل barends (ابن الإنسان)، لا يمكن أن يكون قد استُعمل كلقب مسيحي ولا أن يكون قد جرى تداوله في الأدب المسيحي بهذا المعنى إلا في فترة ما بين الستينيات والتسعينيات» أي في الأزمنة المتأخرة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن وصف ابن الانسان من قبل دانيال لا ينطبق بأي شكل من الأشكال على عيسى عليه السلام الذي لم يدمر الإمبراطورية الرومانية وكيف، وهو الذي قال لمن سأله عما إذا كان يُسمح بدفع الجزية إلى قيصر: «أَعْطُوا إِذاً مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّه»[2]. والقول بأن

(1) Die Frage nach dem messianischen Bewusstsein Jesu und das Petrus-Bekenntnis, ZNW 19, 1919-1920, p. 165-174.

(2) متى 22، 17-21.

الإمبراطورية الرومانية دمرت المسيحية من خلال قسطنطين على وجه الخصوص عن طريق تحريف رسالة عيسى عليه السلام، أصح من القول بأن المسيحية دمرت الإمبراطورية الرومانية التي عاشت قرونا بعدها.

ويمكن أن نقرأ المزيد في كتاب تاريخ تدمير الوثنية في الغرب للكاتب آرثر بيغنوت (Arthur Beugnot) (1797–1865):

«لقد تسللت عادات وثنية إلى الكنيسة وتسبب الاعتناق الشكلي للمسيحية من قبل الإمبراطور في بداية القرن الخامس في أفراح عارمة: فدخل العالم في مسيحية روما ملتحفا بغطاء من العدل. وسرعان ما انتشر الفساد. وبدت الوثنية مهزومة، بينما هي في الحقيقة منتصرة: فقد أصبح روحها يتحكم في الكنيسة الرومانية. وإذا بمجموعات بكاملها من السكان الذين كانوا، على الرغم من رِدتهم، وثنيين من حيث أعرافهم وأذواقهم وأحكامهم المسبقة وجهلهم، إذا بها تدخل تحت الرايات المسيحية حاملة ما لديها من معتقدات وممارسات خرافية. لقد تبنت مسيحية روما وأدرجت جزءًا كبيرًا من نظام العبادة القديمة في الإمبراطورية وكذلك احتفالاتها التي اكتست جميعها إلى حد ما صبغة مسيحية»[1].

كان المسيحيون الأوائل إذن ينتظرون العودة الوشيكة لابن الإنسان عيسى عليه السلام وهو ينزل من الغيوم محاطا بالملائكة، من أجل إقامة ملكوت الله على الأرض، متناسين كلمات المسيح هذه: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ»[2]، وهم ما يزالون ينتظرونه حتى اليوم!

(1) Histoire de la destruction du paganisme en Occident, Arthur Beugnot, 1835, vol. 2, p. 264-266.

(2) يوحنا 18، 36.

الخلاصة

لقد تم البشارة بالنبي محمد ﷺ إذن من خلال قومه المنحدرين من إسماعيل عليه السلام الذي ستخرج من صلبه، وفقا للوعد الإلهي لإبراهيم عليه السلام، «أمة عظيمة»، ومن خلال موطنه، أرض الوحي بامتياز، وحتى من خلال مدينته، القدس الجديدة التي ذكرتها النصوص. كما أخبر به الأنبياء مباشرة من خلال نبوءات، إذا لم تكن منطبقة عليه، فمعنى ذلك أنها لم تتحقق حتى يومنا هذا.

إلى متى سينتظر اليهود والمسيحيون تَحقُّق ما جاء في كتبهم المقدسة عن النبي الموعود، «ابن الانسان» الفارقليط الذي يتولى الشفاعة للمؤمنين عند الله؟ إلى متى يكابرون برفض الاعتراف بأن مملكة الله التي تنبأ بها دانيال وأخبر بها عيسى عليه السلام قد قامت بالفعل من خلال الإمبراطورية الإسلامية؟ ألم يخبر دانيال بأن هذه المملكة ستؤدي إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية التي اختفت منذ قرون؟ ألم ينبه عيسى عليه السلام تلاميذه، منذ أكثر من ألفي عام، على قرب ظهورها؟ ماذا ينتظرون للاعتراف بأن ما تم الإخبار به في الكتاب المقدس قد حدث بالفعل من خلال ظهور نبي الإسلام والإمبراطورية الإسلامية؟

ألا يخشى رجال الكنيسة أن يكونوا من الذين سيقولون يوم القيامة لعيسى عليه السلام: «يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا؟»[1] ألا يخشى المسيحيون الذين يتبعون تعاليم الكنيسة بشكل أعمى أن يكونوا من أولئك الذين وصفهم عيسى عليه السلام بهذه الكلمات: «ليس كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ»[2]. والآن مَن هم الذين يعتبرون المسيح ربهم غير المسيحيين ومَن هم أولئك الذين يستسلمون تمامًا لإرادة الله غير المسلمين!

(1) متى 7، 22.
(2) متى 7، 21.

الجزء الثاني
نبوءات نبي



مقدمة

إن الأصل اللغوي الفرنسي المتفق عليه لكلمة prophète (نبي) يعيد هذه الكلمة إلى المصطلح اليوناني الذي يعني «الإخبار بالأمر قبل حدوثه» والذي يعتبر النبوءة بمثابة تنبؤ بالمستقبل. يذكر لنا قاموس فيغورو[1] (Vigouroux) أن «هذا التفسير كان بالفعل مقبولا لدى القديس ايرييه (Saint Irénée) والقديس امبرواز (Saint Ambroise) والقديس بازيل (Saint Basile) والقديس اكريزوستوم (Saint Chrysostome) والقديس الأكبر اغرغوار (SaintGrégoire le Grand)». ويضيف هذا القاموس بعد ذلك بصفحات أن «العلامة المميزة حقا بين المتنبئين وبين الأنبياء الصادقين هي تحقق أو عدم تحقق نبوءاتهم. وقد كشف الله هذا المعيار لموسى عليه السلام (التثنية 18، 20-22)»[2]. يشير قاموس فيغورو بشكل خاص إلى هذه الكلمات: «وَإِنْ قُلتَ فِي قَلبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الكَلامَ الذِي لمْ يَتَكَلمْ بِهِ الرَّبُّ؟ فَمَا تَكَلمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلمْ يَحْدُثْ وَلمْ يَصِرْ فَهُوَ الكَلامُ الذِي لمْ يَتَكَلمْ بِهِ الرَّبُّ.» ترتبط مهمة النبي ارتباطًا وثيقًا بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل لدرجة أن النبي العبراني كان يُطلق عليه يومًا «الرّائِيَ»: «سَابقاً فِي إِسْرَائِيلَ هَكَذَا كَانَ يَقُولُ الرَّجُلُ عِنْدَ ذِهَابِهِ لِيَسْأَلَ اللَّهَ: هَلُمَّ نَذْهَبْ إِلى الرَّائِي. لأَنَّ النَّبِيَّ الْيَوْمَ كَانَ يُدْعَى سَابِقاً الرَّائِيَ».[3]

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 5, part 1, p. 709.

(2) المصدر السابق، ص 716

(3) صموئيل الأول 9، 9

والحال أن علماء المسلمين قد أحصوا العشرات من نبوءات محمد ﷺ التي تحققت بالفعل خلال حياته، أو حتى بعد وفاته، ناهيك عن تلك المتعلقة بنهاية الكون التي سنخصص لها فصلا مستقلا. وسنقتصر هنا على بعض الأمثلة المأخوذة من السنة النبوية التي يُجمع المسلمون على صحتها: أحاديث البخاري وأحاديث مسلم، التي يعتبرها العلماء المسلمون أصح الكتب الدينية بعد القرآن.

الفصل الأول

نبوءات محمد ﷺ

1. النبوءات التي تحققت في بداية الإسلام

النبوة الأولى: موت ابنته.

أخبر النبي محمد ﷺ أن ابنته فاطمة ستكون أول شخص في عائلته يلتحق به بعد وفاته. وتروي عائشة، زوجة النبي ﷺ، ما يلي:

«جاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال لها: مرحباً يا ابنتي فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثاً، فبكت، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت، فقلت لها ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عمّا قال فقالت ما كنت لأُفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم سألتها، فقالت أسر إلى أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي، فبكيت، فقال ﷺ: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين، فضحكت لذلك.»(1)

وبالفعل فإنها توفيت ستة أشهر بعد أبيها وكانت بذلك أول من لحق به من أهل بيته.

النبوءة الثانية: فتح بلاد فارس والإمبراطورية البيزنطية ومصر.

أخبر النبي ﷺ المسلمين أنهم سيفتحون الجزيرة العربية وبلاد فارس والإمبراطورية الرومانية الشرقية قائلا:

(1) البخاري، 3624 ؛ صحيح مسلم، 2450 صحيح

« تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ فَارِسَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا اللَّهُ»[1].

لنلاحظ أن النبي ﷺ لم يذكر هنا مصر، على الرغم من كونها محورية في تاريخ الفتح الإسلامي، لسبب بسيط هو أن هذه الدولة، في ذلك الوقت، كانت جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية البيزنطية.

وفي المقابل، جاء ذكر مصر بشكل مستقل في هذا الحديث الآخر للنبي ﷺ: «ستفتحون مصر»[2].

مضت عشر سنين قبل تحقق نبوات محمد ﷺ التي جاءت حسب الترتيب الذي ذكر. فبعد بضعة أشهر من وفاته عام 632، نجح خليفته أبو بكر في توحيد شبه الجزيرة العربية. وفي عام 637، هُزم الفرس الساسانيون في القادسية وسقطت عاصمتهم قطسيفون (Ctésiphon) في نفس العام وانْتُزعت القدس من الإمبراطورية الرومانية الشرقية في عام 638 وفي عام 639، وقعت أول غزوة في دلتا النيل وكانت مقدمة لسقوط الإسكندرية وجلاء البيزنطيين عنها سنة 642.

2. النبوءات المتعلقة بآخر الزمان

النبوءة الأولى: ستعود الجزيرة العربية خضراء

حدث النبي محمد ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا قائلا:

«لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا»[3].

(1) صحيح مسلم، 2900.
(2) صحيح مسلم، 6446.
(3) صحيح مسلم، 157.

نستنتج من كلمات النبي ﷺ هذه شيئين: الأول هو أن الجزيرة العربية كانت في وقت معين خضراء وتجري فيها الأنهار، والشيء الثاني هو أنها ستعود كذلك مرة أخرى.

«الجزيرة العربية الخضراء» (Green Arabia) هي بالضبط عنوان المؤتمر الذي عقد في 24 أبريل 2014 في مدينة أكسفورد، تحت رعاية كلية الآثار في جامعة أكسفورد. هذا المؤتمر، الذي حضره علماء الآثار وعلماء المناخ من جميع أنحاء العالم، كان يهدف بشكل خاص إلى أن يقدم نتائج مشروع «علم الصحاري في العصور الغابرة» (Palaeodeserts).

هذا المشروع، الذي حشد أكثر من 30 أكاديميًا من اثنتي عشرة مؤسسة وسبع دول، وحصل على منحة قدرها 2.4 مليون يورو من مجلس البحوث الأوروبي، كان يسعى لدراسة الرابط بين تاريخ البشرية والتغيرات المناخية التي حدثت على مر القرون في شبه الجزيرة العربية. كما أن فريق Palaeodeserts، ومقره في معهد ماكس بلانك (Max Planck) لعلم التاريخ البشري في ألمانيا، قد عمل في تخصصات مختلفة مثل علم الحفريات أو الجغرافيا أو علم الجيولوجيا أو علم الوراثة الحيوانية والبشرية.

وفيما يلي استنتاجات المؤتمر: المناخ المعتدل لشبه الجزيرة العربية في وقت معين من التاريخ، مع وجود مئات من البحيرات والأنهار والمروج، جعلها مكانًا مناسبًا لاستيطان أجدادنا القادمين من أفريقيا، مهد الإنسانية، قبل أن تتفرق هذه الجماعات البشرية إلى مناطق أخرى من الأرض. ويقول البروفيسور مايكل بيتراغليا (Michael Petraglia)، رئيس مشروع «علم الصحاري في العصور الغابرة Palaeodeserts»: «لقد أطلقنا عليه اسم

«الجزيرة العربية الخضراء» لأن العربية السعودية كانت مرات عديدة في الماضي خضراء فيها المروج والغابات والأنهار والبحيرات».

ويوضح مايكل بيتراغليا، المدير المشارك لمركز الآثار الآسيوية في كلية الآثار بجامعة أكسفورد، كيف رأى هذا المشروع النور: «تمكنا، انطلاقا من صور لصحراء الجزيرة العربية التقطتها وكالة الفضاء الأمريكية (Nasa)، من أن نرى من خلالها شبكة كاملة مدفونة في طبقات الأرض من وديان أنهار وأحواض بحيرات قديمة».

استنتاجات المؤتمر ونتائج مشروع «علم الصحاري في العصور الغابرة Palaeodeserts» تناقلتها على نطاق واسع الصحافة العلمية وحتى وسائل الإعلام غير المتخصصة. وهكذا نشر موقع بي بي سي بتاريخ 16 سبتمبر 2015 مقالًا بقلم سيلفيا سميث (Sylvia Smith) تحت عنوان: تلعب الجزيرة العربية الخضراء دورًا رئيسيًا في التطور البشري جاء فيه: «لقد سلط العلماء الضوء على الدور المحوري الذي لعبته شبه الجزيرة العربية في هجرة البشرية من أفريقيا. وبعيدًا من أن تكون صحراء، كانت المنطقة ذات يوم مغطاة بنباتات خصبة تتخللها الأنهار، مما وفّر لأسلافنا بيئة غنية للصيد. واستشهدت الصحفية بكلام رئيس المشروع مايكل بيتراغليا (MichaelPetraglia): «لقد ساعدت تقنية الأقمار الصناعية المبتكرة في رسم خريطة لأكثر من 10.000 بحيرة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك صحراء نفود القاحلة».

وحتى قبل انعقاد المؤتمر في 23 فبراير 2015، نشرت هيئة الإذاعة البريطانية مقالاً لمايكل مارشال (Marshall Michael) كتب فيه: «أصبحت الجزيرة العربية اليوم صحراء رهيبة، لكنها كانت في يوم من الأيام خصبة بل ويقال إنها استطاعت إيواء المجموعات البشرية الأولى القادمة من إفريقيا».

وكتب الصحفي ملخصا النتائج التي حصل عليها فريق مشروع علم الصحاري في العصور الغابرة: «تشير استنتاجات فريق المشروع إلى أن الرياح الموسمية تنتشر في الجزيرة العربية كل 23000 عام، مما يتيح للنباتات والحيوانات أن تزدهر على فترات منتظمة في هذه المنطقة».

لذلك ربط العلماء، من ناحية، بين وجود مناخ معتدل في الجزيرة العربية في وقت معين، وأراضي خضراء وأنهار وحيوانات، وبين استقرار مجموعات بشرية تركت القارة الإفريقية وجاءت لتستقر في الجزيرة العربية قبل أن تنتشر في بقية العالم عندما حدث تغير مناخي جديد.

يؤكد نيكولاس سانت فلور (Nicholas St. Fleur) في مقال نُشر على موقع نيويورك تايمز (New York Times) بتاريخ 2 نوفمبر 2018، أن آثار النشاط البشري القديم المكتشفة في الصحراء السعودية توحي بأن أول من استقروا هناك وجدوا منطقة تشبه سهول السافانا المعشبة التي تركوها وراءهم في شرق أفريقيا. وكتب على وجه الخصوص: «تحت رمال صحراء الجزيرة العربية، يوجد دليل على وجود ماض أكثر رطوبة وأكثر خضرة في شبه الجزيرة. إن البقايا الحفرية من الفيلة والظباء والفهود، التي انقرضت منذ أزمنة بعيدة، لا توحي بوجود منطقة قاحلة، بل بسهول معشبة ومزدهرة ومليئة بنقاط المياه».

ونقلت صحيفة ثا ناشيونال (The National) الإماراتية الصادرة باللغة الإنجليزية، في مقال مخصص لمؤتمر أوكسفورد، عن الأستاذ بيتراغليا قوله: «لدينا الآن أدلة على حدوث دورات متعاقبة عبر التاريخ بين الرطوبة والجفاف. فهناك الجفاف وتكوين الصحاري وتأتي بعدهما الرطوبة وتشكيل

البحيرات والأنهار. وقد جذبت هذه البيئة الناس عبر الصحراء وحتى الجزيرة العربية. ويمكن التنبؤ بأن الفترات الرطبة ستتكرر في المستقبل عبر الصحراء والجزيرة العربية».

لم تكن الجزيرة العربية في القدم خضراء فحسب، وفي عدة حِقب من تاريخها، بل ستعود خضراء تمامًا مرة أخرى، كما أخبر النبي ﷺ بذلك قبل أكثر من أربعة عشر قرناً.

حاول ريك بوتس (Rick Potts) وأدريان باركر (Adrian Parker) أثناء مؤتمر أوكسفورد، شرح كيفية حدوث هذه الدورات المناخية: «تقع شبه الجزيرة عند التقاء ثلاثة أنظمة مناخية رئيسية: الرياح الغربية للبحر الأبيض المتوسط والرياح الموسمية لشرق إفريقيا والرياح الموسمية الهندية. ويشكل الاثنان الأخيران على وجه الخصوص «منطقة تلاق مداري» قوي كانت قد انتقلت من موقعها الحالي خلال الفترات الجليدية نحو الشمال، جالبة معها المياه والحياة إلى شبه الجزيرة العربية. وقد أثبت ذلك ريتشارد جينينغز (Richard Jennings) بوضوح باستخدام نماذج من المناخات العالمية».

اليكم ما كتبه أندرو لولر (Andrew Lawler) في المقال الذي نشره في مجلة العلوم (Science) بتاريخ 29 أغسطس 2014: «تشير نماذج المناخ إلى أنه خلال فترات ما بين العصور الجليدية، كان الاخضرار منتشرا عبر شبه الجزيرة. وتبين النماذج أن نظام الرياح الموسمية انزلق شمالًا، فغمر ما هو صحراء الآن طيلة عدة آلاف من السنين أو أكثر قبل أن يستأنف مساره المعتاد إلى الجنوب». وكتب في مكان آخر قائلاً: «امتلأت البحيرات وتدفقت الأنهار في الفترات الرطبة وشهدت الجزيرة العربية بيئة مماثلة لبيئة

السافانا في شرق إفريقيا». ثم يضيف: «قد تكون هناك عشرات الآلاف من البحيرات والمناطق الرطبة في شبه الجزيرة العربية تعود إلى فترات رطبة قديمة حسب تفسير بول بريز (Paul Breeze) من الكلية الملكية في لندن وعالم الهيدرولوجيا الذي تعرف على 1300 من مواقع البحيرات القديمة والمناطق الرطبة في 10 ٪ فقط من شبه الجزيرة العربية».

وكتب أندرو لولر (Andrew Lawler) رابطا هذه الظواهر المناخية بما أخبر به النبي ﷺ: «وفقًا لحديث النبي محمد، لا تقوم الساعة حتى تستعيد شبه الجزيرة العربية مساحاتها الخضراء وأنهارها. إن تصديق القول بأن الكثبان الرملية والجبال الجرداء في شبه الجزيرة العربية كانت ذات يوم خضراء ظل ردحا من الزمن يتطلب إيمانا راسخا». وبمعنى آخر: اليوم لم يعد الأمر يتعلق بمجرد اعتقاد، وإنما بحقيقة علمية.

لا شيء يمكن أن يستنتج منه النبي ﷺ أن الجزيرة العربية، وهي اليوم من أكثر مناطق الأرض جفافاً، كانت خضراء ورطبة في غابر الأيام، وأنها ستعود مرة أخرى أرضا تغمرها الأنهار وتغطيها النباتات الخضراء.

النبوءة الثانية: التطاول في البنيان

تنبؤ آخر للنبي محمد ﷺ تحقق ألا وهو التطاول في البنيان. رد النبي ﷺ على من سأل عن بعض أمارات الساعة، فقال له: « أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البنيان»[1].

الحال أن هذا التطاول بدأ منذ مطلع القرن العشرين، وقد تسارعت وتيرته في القرن الحادي والعشرين. وهكذا، وفقًا للتقرير السنوي الذي

(1) صحيح مسلم، 8.

نشره مجلس جمعية المباني الشاهقة والإسكان الحضري (CTBUH) الذي مقره معهد إلينوي للتكنولوجيا في شيكاغو، كان هناك في عام 2018 ما لا يقل عن 1،478 برجًا بارتفاع يزيد على 200 متر في أنحاء العالم أي بزيادة نسبتها141 ٪ مقارنة مع عام 2010.

ولكن يبدو أن إحدى مناطق الكرة الأرضية موجودة في مقدمة هذا التطاول المحموم في البنيان ألا وهي الشرق الأوسط، وبشكل خاص ... شبه الجزيرة العربية. فقد تم تشييد ثلاثة عشر برجًا بارتفاع يزيد عن 200 متر في منطقة الشرق الأوسط في عام 2018، من ضمنها عشرة أبراج في دبي وحدها. عندما سُئل النبي ﷺ عمن هم هؤلاء «الرعاة» الذين سينهمكون في آخر الزمان في هذا التطاول في البنيان أجاب: «هؤلاء هم العرب». وبالفعل فإن أطول برج في العالم اليوم يقع في دبي بالإمارات العربية المتحدة، حيث يرتفع برج خليفة إلى 828 متر. وفي المرتبة الثانية يأتي برج الساعة الشهير في مكة الذي يزيد طوله عن 600 متر. ولكن هذين البرجين الناطحين للسحاب سيفقدان هذه المرتبة بحلول عام 2021 عندما يكتمل تشييد أول برج يتجاوز طوله الكيلومتر (1007 متر بالضبط) وهو قيد البناء اليوم في مدينة جدة على بعد 70 كم فقط من مكة. وكان من المقرر في البداية أن يصل طول البرج إلى 1600 متر، ولكن تعين على المهندس المعماري أدريان سميث (Adrian Smith) تغيير مخططاته، إذ لم تكن المساحة مستقرة بالقدر الكافي لتحمل بنيانا بهذا الحجم.

فسر النووي في شرحه الشهير لأحاديث مسلم، نبوءة محمد ﷺ هذه قائلا: «وَمَعْنَاهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ وَأَشْبَاهَهَمْ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ تُبْسَطُ لَهُمُ الدُّنْيَا حَتَّى يَتَبَاهَوْنَ فِي الْبُنْيَانِ».

وفي الواقع، حلت ناطحات السحاب هذه محل الخيام البدوية خلال جيل واحد. «لم تشهد دول الخليج العربية النموذج التقليدي للهجرة الريفية. فقد حولت طفرة النفط على الفور مدنا صغيرة إلى حواضر كبرى»، كما أوضح ذلك أوليفر دا لاج (Olivier Da Lage)، رئيس تحرير بإذاعة فرنسا الدولية (RFI) ومتخصص في شؤون الشرق الأوسط والصحفي جيرار جرزيبيك (Gérard Grzybek) في كتاب حول الخليج صدر في عام 1985»[1]. وقد كتب الاثنان في مكان آخر: «مدن جديدة حقيقية تخرج من العدم فجأة في الصحراء»[2].

كانت مدينة دبي قبل النفط مجرد قرية للصيادين. أما اليوم فلها أن تتباهى باحتضانها أعلى برج في العالم. ومع ذلك، لم تصدر إمارة دبي أول برميل من النفط الخام قبل سنة 1969. وهو ما يعني أن الانتقال من الفقر إلى ترف ناطحات السحاب قد عاشه نفس الجيل الواحد. ويبدو الآن أن حديث النبي ﷺ يشير إلى أن نفس البدو سيندفعون، بعد ما كابدوا من عوز وبؤس، في هذا التطاول في البنيان. لقد عاش بعض قادة دول الخليج في الصحراء وعانوا أحياناً من الحرمان، حسب ما كتب دا لاج (Da Lage) وغرزيبيك (Grzybek): «الجيل الممسك بالسلطة لم ينس بعدُ أنه قادم من الرمال. لقد قاسى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - الذي يصور أحيانًا على أنه واحد من أغنى رجال العالم - مرارة الجوع في طفولته»[3].

(1) Golfe : le jeu des six familles, Autrement, Paris, 1985, p. 75.

(2) المصدر السابق، ص 78.

(3) المصدر السابق، ص 85.

إذا كان النبي ﷺ قد تنبأ بكثير من الأحداث التي وقعت تماما كما أخبر بها، فإنه لم ينسب الفضل في ذلك أبداً لنفسه بل ظل يعزو تحقيقها لربه الذي خاطبه في القرآن قائلا له: «قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ».

لم تتحقق نبوءات محمد ﷺ فحسب بل كانت دعواته التي تعد بالعشرات مستجابة كما حَدَّث أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إلى الإِسْلاَمِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إلى الإِسْلاَمِ فَتَأْبَى عَلَىَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». فدعا لها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قائلا: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ».

وما إن رجع إلى أمه حتى وجدها تغتسل تحسبا لإعلان شهادتها أمامه بوحدانية الله وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم[1].

(1) صحيح مسلم، 2491.

الفصل الثاني
أخبار القرآن

1. الإخبار بالأحداث المستقبلية

الاخبار الأول: انتصار الروم على الفرس

غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم (الروم، 2-5).

نزلت هذه الآية على النبي محمد ﷺ في مكة، أي قبل عام 622، تاريخ الهجرة، هجرته إلى المدينة المنورة. وهي تخبر بهزيمة الروم أمام الفرس ثم بانتقامهم في فترة زمنية أقل من عشر سنوات إذ تشير الكلمة «بضع» الواردة في الآية، حسب أهل اللغة، إلى فترة تتراوح بين ثلاث وتسع أو ثلاث وعشر سنوات. وقد بين دينيس ماسون (Denise Masson)، في أحد هوامش ترجمتها للقرآن الكريم بوضوح أن: «كلمة بضع تطلق على عدد يتراوح بين ثلاثة وتسعة؛ وبالتالي يمكن أن نترجمها ب «أقل من عشر سنوات»»[1].

وصف فيليب كونراد (Philippe Conrad)، المؤرخ ورئيس تحرير صحيفة «نوفيل ريفيو ديستوار» (Nouvelle Revue d'Histoire) في مقال بعنوان: «الفتح الإسلامي في الشرق»، كيف أن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي مزقها الفرس كل ممزق، شنت هجومًا مضادًا ألحقت من خلاله بعدوها الفارسي هزيمة أولى في عام 622: «هاجم قيصر الثاني المنتصر (Chosroès II

(1) Le Coran, Masson, Bibliothèque de la pléiade, 1967, p. 906.

(le Victorieux) سنة 614 سوريا البيزنطية واستولى على إيديسا (Edesse) و أنطاكية (Antioche) و دمشق والقدس وقام بنقل الصليب المقدس إلى كتسيفون (Ctésiphon) عاصمته على ضفاف نهر دجلة. وبعد أن وصل بفتوحاته إلى مصر في عام 616، هدد مباشرة آسيا الصغرى واستولى على قيصرية سيليسيا، قبل أن يحاصر تشالسيدون (Chalcédoine)، في المنطقة المجاورة للقسطنطينية. وتمكن البيزنطيون من إنقاذ عاصمتهم بعد أن سيطروا على البحر وصار في مقدورهم إعادة الكرة اعتبارا من سنة 622. واستعاد هرقل (Héraclius) قبضته على أسيا الصغرى وأرمينيا، في حين أن وفاة القيصر (Chosroès) عام 628 وما تلاها من انتشار الطاعون والفيضانات الكارثية، كل ذلك مَهَّدَ لحصار كتسيفون (Ctésiphon) على يد البيزنطيين الذين فرضوا السلام واستعادوا الصليب الحقيقي. لقد توالت النكبات على الإمبراطورية الساسانية بعد ما حققت من انتصارات قبل ذلك ببضع سنين حيث تعاقب على عرشها 12 ملكا في الفترة ما بين 628 و632».

سجل البيزنطيون أول انتصار لهم على الفرس سنة 622 في إيسوس (Issus) في سيليسيا (Cilicie) (آسيا الصغرى) عندما كان الإمبراطور هرقل هو نفسه الذي يتولى قيادة الجيش البيزنطي، بينما كان الجيش الفارسي تحت إمرة شهرزبارز (Shahrbaraz). لذا فقد مرت فترة 8 أو 9 سنوات بين الهجوم الفارسي، الذي تميز أساسا بالاستيلاء الرمزي على القدس سنة 614، والهجوم المضاد للجيش البيزنطي الذي سجل أول انتصار له في إيسوس (Issus) سنة 622. وتلك بالتحديد هي الفترة الزمنية التي ذكر القرآن أن النصر فيها سيكون حليف البيزنطيين (الروم) وهو ما لم يكن يُتصور قبل الأحداث ببضع سنين.

كتب إدوارد جيبون (Edward Gibbon) في مؤلفه المرجعي: «تاريخ انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، في الفصل المعنون: محنة هرقل 610–622، يصف حالة الإمبراطورية البيزنطية عشية انتصارها على الفرس سنة 622: «لقد أخضعت أسلحة فارس سوريا ومصر وأقاليم آسيا، بينما لي آفار (les Avares)، الذين لم تُشبع حرب إيطاليا نهمهم للدم والنهب، كانوا يدمرون أوروبا من حدود استريا (Istrie) حتى السور الطويل لتراقيا (Thrace) [...].كان هؤلاء الأعداء العنيدون يشتمون ويطوقون هرقل من كل جانب. لقد أصبحت الإمبراطورية الرومانية منحصرة في جدران القسطنطينية وبضع مقاطعات من اليونان وإيطاليا وأفريقيا، وعدد قليل من المدن البحرية على ساحل آسيا التي تتواجد بين صور (Tyr) وتريبيسوند (Trébisonde). وبعد خروج مصر من السيطرة، حل الخراب بالعاصمة واستحكمت فيها المجاعة وتفشى فيها الطاعون. قرر الامبراطور، العاجز عن المقاومة وغير المرتاح لطلب النجدة، أن ينتقل بشخصه وحكومته إلى قرطاج، حيث كان يأمل أن يكون أكثر أمانًا من الخطر المحدق. وكانت سفنه محملة بكنوز القصر. ولكن البطريرك الذي بسط سلطة الدين على البلاد ألقى عليه القبض، واقتاده إلى مذبح القديسة صوفيا (Sainte–Sophie)، وأرغمه على أداء اليمين القانونية أمام الملا بأن يعيش ويموت مع الشعب الذي استخلفه الله على رعايته»[1].

بعد التفكير في اللجوء إلى شمال إفريقيا، التمس هرقل السلام من الإمبراطور الفارسي الذي «طلب ـ كجزية سنوية أو فدية – من الإمبراطورية الرومانية: ألف طلنسية (talens) من الذهب وألف طلنسية من الفضة

(1) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (1776-1788), Edward Gibbon, London, Strahan & Cadell.

وألفا من الفساتين الحريرية وألفا من الخيل وألفا من العذارى. لقد أذعن هيركليوس لهذه الشروط المخزية والمشينة ولكنه استغل بذكاء المهلة الزمنية التي منحت له لجمع هذه الكنوز في التحضير لهجوم شرس، آخر مخرج من اليأس». ويضيف المؤرخ الإنجليزي الذي وصف بإيجاز الحالة النفسية للبيزنطيين عشية هجومهم المضاد: «لم يكن لدى الرومان أمل خارج عاديات الزمن التي قد تطيح بغطرسة وتفاخر ملك فارس وتقلب الأمور من حال إلى حال لصالح الروم وهم في آخر مرحلة من الإذلال».

يصف جيبون بالتفصيل في الفصل المعنون: الحملة الأولى لهرقل ضد الفرس. سنة 622، يصف المعركة الأولى التي انتصر فيها هرقل عام 622: «كان الفرس على مشارف سيليسيا (Cilicie) لكن سلاح فرسانهم تمايل وتردد في الاندفاع عبر شِعاب جبل طوروس (Taurus) مما مكن هرقل، بقوة الحركة، من تطويقهم؛ مع أنه أوهمهم أن جيشه اصطف لمواجهتهم في المعركة، فتسلل تدريجياً إلى مؤخرتهم وقام بحركة محاكاة، بدا أنها تهدد أرمينيا، دفعتهم مكرهين إلى اتخاذ إجراءات عامة فقوى الاضطراب الظاهري ثقة جنوده. ولكنهم ما إن تقدموا للمواجهة حتى وجدوا ظروفا غير مواتية: الأرض والشمس وجريان الرياح بما لا تشتهي السفن وثقة قوية لدى الأعداء؛ أدى الروم بمهارة في ساحة الوغى تمارينهم الحربية، وفي نهاية اليوم أثبتوا للعالم أجمع أنه من الممكن غلَبُ الفرس، وأن بطلا كان يرتدي ملابس أرجوانية. وفي خضم نشوته بفوزه وبشهرته تسلق هرقل بجرأة مرتفعات جبل طوروس واجتاز سهول كابادوكيا (Cappadoce)، وأقام معسكراته الشتوية في موقع آمن وفي مقاطعة كثيرة الخيرات على ضفاف الهايليس (Halys)»[1].

(1) المرجع السابق.

يشير جيبون في كتابه إلى إخبار القرآن بانتصار بيزنطة قبل وقوعه معترفا بأنه كان من المستبعد جدا، وقت نزول الآية القرآنية، أن ينقلب ميزان القوة لصالحها حيث كتب:» كان محمد من موقعه على حدود الإمبراطوريتين الكبيرتين في الشرق، يراقب بارتياح خفي استمرار تدمير الإمبراطوريتين لبعضهما البعض فأخبر في غمرة انتصار الفرس بأن النصر سيتحول في بضع سنين إلى جانب الروم. كانت فترة نزول هذه الآية بلا شك فترة من الصعب أن يحصل فيها أبسط أمل في تحقُّق ما أخبرت به لأن الاثني عشر عامًا الأولى من حكم هرقل طغت عليها إرهاصات الانهيار الوشيك للإمبراطورية»[1]. ويضيف في الهوامش: «انظر السورة الثلاثين من القرآن، بعنوان الروم. يقدم العالم النزيه سال (Sale) الذي ترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية، عرضا جيدا (ص 330–331) تناول فيه هذا الافتراض أو هذا التنبؤ أو التحدي من محمد ﷺ؛ لكن بولانفيه (Boulainvilliers) (ص 329–344) سعى جاهدا، وبأسوأ النوايا، لإثبات حقيقة هذه النبوءة، والتي كان من اللازم، حسب رأيه، أن تسبب إحراجا لكُتاب المسيحية المجادلين»[2].

يلمح جيبون هنا إلى كتاب المؤرخ الفرنسي هنري دي بولانفيليه (Henri de Boulainvilliers)، بعنوان «حياة محمد» وبالتحديد إلى المقطع التالي: «هكذا ظننتني ملزما بالدخول في تفاصيل الوقائع التاريخية التي هي السبيل الوحيد لمعرفة التطبيق الشرعي لأحاديث محمد. والحال أن التاريخ يعلمنا، كما سبق أن رأينا، أن الروم، بعد هزائمهم المتتالية على يد الفرس من عام 615 ميلادية حتى عام 625، استعادوا تفوقهم للمرة

(1) المرجع السابق.
(2) المرجع السابق.

الأولى وانتصروا فجأة على أعدائهم الأشداء عن طريق ضربة لم تكن متوقعة على الإطلاق لدرجة أن ذاكرة البشر لم تسجل مثيلا لها. ومن الجدير بالملاحظة أيضًا أن الفاصل الزمني من عشر سنوات، الذي حدده محمد، بين الهزيمة والنصر، قد تحقق بدقة بين 615 و625. لذلك يجب الاعتراف بأنه إذا كانت سورة الروم قد نزلت عام 615، فلا يمكن لأحد أن ينكر تحقق النبوءة الواردة فيها»[1].

وهكذا يقر بولانفيلير أن الإخبار الوارد في القرآن قد تحقق ضمن الأجل المحدد أي أقل من عشر سنوات، حتى وإن تحدث عن تاريخين مختلفين بالنسبة للهزيمة ثم للانتصار البيزنطي (الرومي) 615 و625.

لم تكن لمحمد ﷺ أية مصلحة في الإخبار بهذا النصر المستبعد حصوله جدا، لأنه إذا كان تحقُّقُ هذا الإخبار لا يكتسي أهمية كبيرة بالنسبة لدعوته، فإن عدم تحقُّقه، هو الآخر، كان سيقضي على مصداقيته ويضع حدا لرسالته.

وخلافا لذلك فعندما سئل عن الساعة جاءه الأمر بأن يجيب أن لا علم له بها: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ»[2]. فلو كان متنبئا كاذبًا، لتجاسر ـ

دون أدنى خوف ـ على القول بأن نهاية العالم ستحدث خلال مئات، بل آلاف السنين، كما يفعل الكثير من المحتالين بعده. بل على العكس من ذلك، فقد خاطر بالإخبار المسبق عن انتصار لا يخطر على بال لشعب لا تربطه به صلة.

(1) La Vie de Mahomed, Boulainvilliers, P. Humbert, Amsterdam, 1730, p. 371-372.

(2) الأعراف، 187.

الإخبار الثاني: انتصار الإسلام.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: 55).

تناولنا في هذا الجزء وفي الجزء الذي قبله مسألة الانتشار «المُذهل» للإسلام وسنعود إليه بشيء من التفصيل في الجزء الرابع من هذا الكتاب. ومع ذلك فإن المقطع المذكور هنا يثير ملاحظتين. أما الأولى فهي أن هذه الآية قد نزلت في المدينة المنورة التي وجد المسلمون فيها ملجأ بعد أن أجبرهم عبدة الأصنام على الهجرة من مكة التي كانوا يعيشون فيها وهم غير آمنين من هجوم مباغت يدبره الاعداء.

فقد تكبدوا سنة 625 هزيمة عند سفح جبل أحد، على مشارف المدينة المنورة، وسقط منهم سبعون تحت ضربات أهل مكة، قبل أن يفرض تحالف القبائل المشركة حصارا طويلا على المدينة. ولم تكن سلطة المسلمين يومئذ تتجاوز المدينة المنورة فالفتوحات الإسلامية الأولى لم تبدأ إلا في عام 634 أي بعد وفاة النبي سنة 632.

الملاحظة الثانية هي أن الله سبحانه وتعالى اشترط تحقيق وعده بعبادته وحده حيث قال جل من قائل:» يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا». والحال أننا نعرف أن انحطاط الإمبراطورية الإسلامية لم يبدأ إلا عندما ابتعد المسلمون عن دينهم.

الإخبار الثالث: حفظ القرآن

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر: 9).

كتب المستشرق الايرلندي ويليام موير (William Muir) (1819–1905) مؤلف سيرة محمد ما يلي: «ربما لا يوجد كتاب في العالم، مثل القرآن، الذي احتفظ بنقاوته الأصلية كل هذه الفترة الطويلة من الزمن و سَلمَ من التحريف طيلة اثني عشر قرنا حتى الآن»[1].

تؤكد المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاجليري (Laura Veccia Vaglieri) (1893–1989) وجهة النظر هذه في كتابها المعنون An Interpretation of Islam حيث كتبت: «لدينا برهان آخر على أن القرآن وحي إلهي بدليل أن نصه بقي محفوظا بشكل مثير للإعجاب دون أن يتعرض، على مر القرون، لأدنى تحريف منذ نزوله وحتى يومنا هذا»[2].

درست ألبا فيدلي (Alba Fedeli) الباحثة الإيطالية، في إطار أطروحتها لنيل شهادة الدكتوراه، مجموعة تزيد على 3000 كتاب ووثيقة من الشرق الأوسط محفوظة في مكتبة جامعة برمنغهام (Birmingham) بعد أن جمعها في العشرينيات من القرن الماضي ألفونس مينجانا (Alphonse Mingana) وهو قس مولود قرب الموصل شمال العراق. عثرت الباحثة داخل أحد كتبه على ورقتين من نسخة قديمة من القرآن. لذلك قررت الجامعة إخضاع الورقتين للدراسة العلمية لتحديد تاريخهما بواسطة الكربون 14،

(1) The Life of Muhammad from Original Sources, William Muir, John Grant, Edinburgh, 1923, Introduction, p. XXII–XXIII.

(2) An Interpretation of Islam, Laura Veccia Vaglieri, Goodword Books, New Delhi, 2004, p. 44.

فأثبتت نتائج العملية بنسبة 95.4٪ من الدقة، وفقًا لهيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، أن هاتين القطعتين من رق الغزال يبلغ عمرهما 1370 عامًا على الأقل. وبذلك يكون المخطوط قد كُتب بين عامي 568 و645 م، وهو ما يجعل النسخة واحدة من أقدم نسخ القرآن التي عثر عليها حتى الآن. ونذكر أن القرآن نزل بين 610 و632، تاريخ وفاة النبي ﷺ.

في مقال بعنوان أقدم مخطوطات للقرآن الكريم نشر يوم 24 يناير 2017 على موقع المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية كتب إميليو بلاتي (Emilio Platti)، الأستاذ الفخري في جامعة لوفان الكاثوليكية، معلقا على هذا الاكتشاف: «بعد اكتشاف مخطوطات للقرآن موغلة في القدم وبعد استخدام الكربون 14 الذي أظهر أن تاريخ أوراق برمنغهام يقع ما بين 568 و 645 (بين 56 قبل الهجري و25 بعدها)، رفض معظم الباحثين المعاصرين التواريخ المتأخرة لأقدم المخطوطات القرآنية التي اقترحها جون وانسبورو (John Wansbrough) على سبيل المثال في كتابه «الدراسات القرآنية» (مطبعة جامعة أكسفورد، 1977). كما أن باتريشيا كرون (Patricia Crone) ومايكل كوك (Michael Cook) ينفيان وجود أي إشارة على وجود القرآن قبل نهاية القرن الأول/ السابع (Hagarism، مطبعة جامعة كامبريدج، 1977). ولعل أفضل فترة لتحديد هذا التاريخ هي تلك الأقرب إلى منتصف القرن الأول/ السابع، أو حتى قبل ذلك التاريخ».

لذا فإن أقدم نسخة معروفة من القرآن تعود إلى منتصف القرن الأول الهجري، أي منتصف القرن السابع بالتقويم المسيحي، حوالي عام 650. لقد توفي النبي ﷺ سنة 632، مما يعني أن هذا النص كان قد تم تدوينه بعد فترة وجيزة من وفاته، وربما خلال حياته. ومع ذلك، فإن هذه المخطوطات متطابقة تمامًا مع نصوص القرآن الحديثة.

وينطبق الشيء نفسه على مخطوطات صنعاء، التي اكتُشفت عام 1972 في الجامع الكبير في العاصمة اليمنية. وكانت الحكومة اليمنية قد كلفت غيرد روديجر بونيست (Gerd–Rüdiger Puinest)، وهو متخصص ألماني في علم الحفريات العربية، بترميم المخطوطات التي حدد تاريخها باستخدام الكربون 14 بالحقبة من عام 657 إلى 690.

وخلال مؤتمر عقد بتاريخ 6 أكتوبر 2005 في كوليج دو فرانس (Collège de France) تحت عنوان أصول القرآن، أكد مانفريد كروب (Manfred Kropp)، وهو اختصاصي ألماني في دراسة الإسلام ومدير سابق للمعهد الألماني للدراسات الشرقية في بيروت، على أن دراسة المخطوطات لم تكشف سوى أخطاء نادرة، يمكن أن تُعزى بشكل طبيعي إلى الناسخين، وأوضح قائلا: «كل ما نراه الآن، كل هذه الجذاذات تمتاز بتناسق واستقرار مدهشيْن. هناك اختلاف مادي طفيف جدا في الرسم، أي في البنية المتسقة للحروف الصوامت في النص القرآني. وتتعلق الاختلافات أساسًا بالفصل بين الآيات، والفصل بين السور، أي بالفصول المختلفة، وتفاصيل روابط فقه اللغة. وباستثناء ذلك، فمن المدهش حقًا كون النص قد حافظ، منذ بداية اعتماد شكله المادي، على استقرار هائل غير عاديٍ».

يؤكد فرانسوا دوروش (François Déroche)، الأستاذ في كوليج دو فرانس الذي يشغل منذ عام 2014 كرسي تاريخ القرآن، نصا ورواية، أن رسم مخطوطات صنعاء ظل مطابقا للنص المتاح حاليًا، على الرغم من وجود مخطوطات تنظم من خلاله السور حسب ترتيب مختلف[1].

---

(1) Dictionnaire du Coran, Robert Laffont, Paris, 2007, p. 735-739.

من بين أقدم نسخ القرآن المخطوطة المعروفة اليوم، نجد أيضًا مدونة Parisinopetropolitanus، وهي مخطوطة من 98 ورقة يعود اكتشافها إلى بداية القرن التاسع عشر في القاهرة، في مستودع مسجد الفسطاط الكبير، وتوجد منها سبعون ورقة في المكتبة الوطنية بفرنسا. وقد تمكن فرانسوا دروش، بفضل دراسة عبر تقنية قراءة النصوص القديمة، من اكتشاف أن تاريخها يعود إلى الربع الثالث من القرن السابع الميلادي (650 إلى 675 م) وتم إجراء دراسات مقارنة لتلك المخطوطة بالقرآن الحالي في عامي 1983 و2009. لا فرق يذكر بين نص الورقات المتاحة في مكتبة فرنسا الوطنية وبين القرآن الحالي. وقد كتب ماثيو تيلير (Mathieu Tillier)، الأستاذ في جامعة السوربون، يقول: «في النهاية، يبدو أن المدونة التي تمت دراستها تتوافق، مع بعض الاختلافات، مع النسخة العثمانية»[1].

قد يبدو الوعد الإلهي بحفظ القرآن من أي تحريف أمرا بسيطا لدى البعض وليس معجزة في حد ذاته. ومع ذلك، لم يصلنا أي نص ديني في حالته الأصلية دون تحريف قبل القرآن، بدءًا من الكتاب المقدس الذي يُجمع النقاد على أنه تعرض للتحريف على مر القرون.

وها هو الأستاذ بارت إيرمان (Bart Ehrman)، الذي يُدَرس في كلية اللاهوت بجامعة نورث كارولينا، والمتخصص في العهد الجديد وصاحب كتاب «عيسى المنقطع» الذي حطم الرقم القياسي من حيث عدد النسخ المباعة منه، يثبت من خلال مؤلفه أن الكتاب المقدس مليء بالأخطاء والتناقضات والتحريف البيِّن كما يثبت أيضًا أن العديد من القصص والعقائد المؤسِّسة

(1) La Transmission écrite du Coran dans les débuts de l’islam. Le codex Parisino- petropolitanus, Mathieu Tillier, Brill, Leyde–Boston, 2009.

للدين المسيحي غير مأخوذة من الأناجيل. فهو يشرح على سبيل المثال أن 8 كتب فقط من 27 كتابًا من العهد الجديد قد كتبها بالفعل المؤلفون المنسوبة إليهم، وربما تكون الأخرى مزورة، وأن العقيدة والثالوث جاءا متأخرين وأن المعاناة وألوهية المسيح والجحيم والجنة، ليست من تعاليم عيسى. وإليكم ما كتبه عن التحولات التي خضع لها الإنجيل: «لا نتوفر على أصل أي من كتب العهد الجديد. النسخ الوحيدة الموجودة بحوزتنا هي في الواقع بعيدة جدًا من حيث الزمن عن النصوص الأصلية، ومعظمها جاء بعدها بعدة قرون.

لدينا الآلاف من هذه النسخ باللغة اليونانية – اللغة التي كُتبت بها جميع كتب العهد الجديد – لكن كل هذه النسخ تحتوي على أخطاء، أو إزاحات عرضية من فعل الكَتَبَة، أو تحريفات مُتعمّدة من هؤلاء الكتبة الراغبين في تغيير النص لجعله يقول ما يريدون أو ما يعتقدون أنه الحقيقة. لا نعرف العدد الدقيق للأخطاء الموجودة في النسخ التي وصلت إلينا، لكن يبدو أنها تُعدُّ بمئات الآلاف، لدرجة أن عدد الاختلافات بين هذه المخطوطات أكثر من عدد الكلمات الموجودة في العهد الجديد»[1].

ربما تُفَسِرُ هذه الفروق بين المخطوطات الاختلافات المهمة الموجودَةً في ترجمات الكتاب المقدس. ولإثبات ذلك، سنكتفي بفصلين من العهد الجديد يختلف معناهما بشكل جذري حسب الترجمات التي تم الاطلاع عليها. فقد تُرجم الفصل الأول من انجيل يوحنا 9، 35، على النحو التالي من قبل الكتاب المقدس في القدس: «سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِابْنِ الانسانِ؟» يستخدم TOB أيضًا عبارة «ابن

(1) Jesus, Interrupted, Revealing the Hidden Contradictions in the Bible, Harper Collins, 2009, p. 183-184.

الإنسان»، لكن لويس سيغوند (Louis Segond) ترجم الفصل بهذه الطريقة: «سَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِابْنِ الله». لذلك أصبح «ابن الإنسان» «ابن الله». وينطبق الشيء نفسه على الترجمة الإنجليزية الشهيرة King James (the Son of God) أو في Reina-Valera، الترجمة المرجعية الإسبانية (el Hijo de Dios). لكن الفرق مهم بين «ابن الله» الذي يؤكد ألوهية عيسى و»ابن الإنسان» الذي يبرز طبيعته البشرية البحتة.

ويتعلق المثال الثاني بإنجيل متى 24، 36، الذي ترجمه لويس سيغوند (Louis Segond) على النحو التالي: «وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ مَلاَئِكَةُ السَّمَاوَاتِ ولا الاين إِلاَّ أَبِي وَحْدَهُ». والحال أن أيا من الملك جيمس (King James) ورينا فاليرا (Reina-Valera) لم يذكر «الابن» في هذا الفصل. ومع ذلك فالكلمة موجودة في المخطوطة السينائية (codex sinaiticus) والفاتيكانيه (Codex vaticanus)، أقدم مخطوطتين كاملتين للعهد الجديد. ومن الواضح أن الهدف هو عدم فتح المجال للاعتقاد بأن عيسى عليه السلام لا يعلم الغيب، الأمر الذي من شأنه أن يلقي بظلال من الشك على ألوهيته.

كتب الدكتور «موريس بوكاي (Maurice Bucaille) في كتابه: القران والتوراة والإنجيل والعلم (La Bible، le Coran، et la science): «إن أصالة النص القرآني التي لا جدال فيها تمنحه مكانة فريدة بين الكتب المنزّلة وهي مكانة لا يشترك فيها بشيء لا مع العهد القديم ولا مع العهد الجديد. لقد استعرضنا في الجزأين الأولين من هذا الكتاب سلسلة التحريفات التي

خضع لها العهد القديم والأناجيل قبل أن تصل إلينا في الحالة التي هي عليها اليوم. لم يحصل شيء من ذلك بالنسبة للقرآن لسبب بسيط هو أنه جُمِع بعناية في زمن النبي ﷺ»[1].

هذا الحفظ الخارق للنص القرآني يرجع إلى حد كبير إلى العدد الذي لا يحصى من المسلمين الذين حفظوا القرآن عن ظهر قلب، جيلا عن جيل، من زمن صحابة النبي الأوائل إلى اليوم. وحول هذا الموضوع كتب موريس بوكاي يقول: «كان النبي والمؤمنون من حوله يحفظون النص القرآني عن ظهر قلب، كلما نزل منه شيء ويقوم الكتبة المحيطون بالنبي بضبط نصه كتابة. لقد تميز القرآن، منذ البداية، بهاذين العنصرين اللذين هما من عناصر الأصالة واللذين لم يتوفرا للأناجيل. واستمر الحال على هذا النحو إلى أن توفي النبي ﷺ. إن تلاوة القرآن، في زمن لم يكن فيه الجميع يكتب ولكن يحفظ عن ظهر قلب، تمنح ميزة فريدة، من خلال تعدد الرقابة والتدقيق قبل الإجازة النهائية للنص»[2].

هذه السهولة التي يحفظ بها كتاب المسلمين هو تحقيق وعد آخر من الله يقول: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ؟»[3] وفي الواقع، فإن عدد الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب في العالم يقدر بالملايين. ويرى ويليام كوبر (WilliamCooper) وبيو يو (Piyu Yue) في كتاب نُشر عام 2008، أن هذا الرقم يصل إلى 10 ملايين: «يقدر عدد الحفاظ

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 129.

(2) المرجع السابق.

(3) القمر، 17.

في العالم حاليا بأكثر من عشرة ملايين. وغالبًا ما تنظم الدول الإسلامية مسابقات لحفظ القرآن. وفي مسابقة نظمت أخيرا في المملكة العربية السعودية تفوق صبي إيراني حاز المرتبة الأولى ويقال أنه أصبح حافظا في سن السادسة»[1].

وعلى سبيل المثال، ينقسم القرآن إلى 114 سورة تحتوي على ما لا يقل عن 6236 آية، أي أكثر من 000 80 كلمة ويتكون النص العربي عمومًا من 600 صفحة يقرأها، اعتمادا على الذاكرة، أئمة العالم بأسره في المساجد طيلة ليالي رمضان بمعدل 20 صفحة في اليوم. وعلى العكس من ذلك، لا يُعرف أحد قد حَفِظ مجرد نص العهد الجديد، أحرى الكتاب المقدس بكامله.

الإخبار الرابع: محمد ﷺ هو آخر الأنبياء.

ثمة إخبار ورد في القرآن قلما يذكره الغيورون على دينهم من المسلمين رغم ما له من أهمية بالغة.

قال الله تعالى ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2].وبالفعل فقد تحقق ما كان يعتبر إخبارا. لم يؤسس أي دين ولم يأت أي نبي بعده في تاريخ البشرية. وعلى العكس من ذلك، لم يؤكد عيسى عليه السلام، آخر نبي يهودي، أنه آخر الرسل، بل أخبر، خلافا لذلك، عن مجيء «ابن الإنسان» المكلف مثله بالشفاعة للمؤمنين وبتأسيس «ملكوت الله» على الأرض.

(1) Challenges of the Muslim World: Present, Future and Past, William Cooper et Piyu Yue, Elsevier, Amsterdam, 2008, p. 194.

(2) الأحزاب، 40.

2. الإخبار عن قصص من الماضي

أولاً: خلق الكون.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت، 11).

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ (الأنبياء، 30)

هاتان الآيتان تصفان، بصفة موجزة تتناسب مع مستوى المعرفة لدى الناس وقت نزولهما، عملية خلق الكون. وهما، وفق ما ذهب إليه الدكتور موريس بوكاي (Maurice Bucaille)، متفقتين تماما مع بيانات العلم الحديث. فقد كتب: «تجدر الإشارة إلى أن تشكيل الأجرام السماوية وتشكيل الأرض يتطلب، كما هو مُبيّن في الآيات من 9 إلى 12 من سورة فصلت، وجود مرحلتين. والحال أن العلوم العصرية تعلمنا أننا إذا أخذنا كمثال (وهو المثال الوحيد المتاح) تكوين الشمس ومشتقُّها الثانوي الذي هو الأرض، فقد تمت العملية بتكثيف السديم البدائي ثم الانفصال. وهذا بالضبط ما يعبر عنه القرآن بوضوح تام من خلال ذكر العمليات التي أنتجت، انطلاقا من «الدخان» السماوي، اللِّحام ثم الانفصال. لذلك نسجل هنا تطابقا مثاليا بين البيانات القرآنية والبيانات العلمية. فقد أظهر العلم تشابك حدثين في تكوين نجم (مثل الشمس) وقمرها الدائر في فلكها، أو أحد أقمارها الدائرة في فلكها (مثل الأرض). ألا يظهر هذا التشابك في النص القرآني كما رأينا؟ إن التطابق جلي بين التأكيد على وجود هذا «الدخان» في المرحلة الأولى

للكون، والذي يتحدث عنه القرآن لوصف الحالة الغازية الغالبة على المادة التي تُشكِّل الكون آنذاك وبين تَشَكُّل الخليط السديمي البدائي وفق نتائج العلم الحديث»[1].

حتى وقت قريب كان الباحثون يطلقون، كما فعل موريس بوكاي (Maurice Bucaille) هنا، على «الغبار» أو «الغاز» الكوني اسم الدخان الكوني كأصل لتكوين النجوم والكواكب وخاصة الشمس والأرض[2]، قبل أن يقوموا بتحليل عينات منه واكتشاف أن أنسب تعبير لوصفه هو كلمة «دخان»، وهو بالضبط المصطلح الذي استخدمه القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً (سورة فصلت، الآية 11). لقد أظهرت التحليلات بالفعل أن كثافة الكتلة الحجمية للغبار بين النجوم، وهو من نفس طبيعة السديم البدائي، تشبه كثافة «دخان السجائر»[3].

وفي هذا الإطار كتب أوليفييه إيسلينغر (Olivier Esslinger)، الحاصل على الدكتوراه في الفيزياء الفلكية وصاحب الموقع المسمى علم الفلك والفيزياء الفلكية، أن «هذه الحبيبات تشكل اليوم غبارًا بين النجوم حيث لا يتعدى حجمها المتوسط حوالي واحدا على مليون من المتر، يشبه على سبيل المثال حجم جزيئات دخان السجائر».

---

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 148-149.

(2) L'origine de l'Univers, Reeves, Horizons philosophiques, 1992, vol. 2, p. 21.

(3) Astronomie et astrophysique : Cinq grandes idées pour explorer et comprendre l'Univers, Marc Séguin et Benoît Villeneuve, Renouveau pédagogique, 2002, p. 262-263.

كما أن المقال الذي نُشر على موقع مختبر الفيزياء الفلكية في مرسيليا يقدم نفس الوصف لهذا الغبار الكوني: «تتجسد مادة ما بين النجوم (أساسا) في شكل حبوب يكون حجمها حسب طول موجة الضوء المرئي، أي بضع مئات من النانومتر. تحتوي هذه الحبوب على الأكثر على بضع عشرات من الذرات. يُطلق عليها الحبوب أو الغبار. لكن حجمها أقرب إلى حجم الجزيئات المشكلة للدخان».

الغريب حقا هو أن القرآن، وهو يقصُّ حكاية خلق الكون، لم يتناول أيا من الأساطير الشائعة في ذلك الزمان والتي تحدث، في معظمها، عن محيط لا غنى عنه لأصل الخلق. فبأسطورة المحيط هذه، على سبيل المثال، فسّر المصريون في العصور القديمة أو سكان بلاد ما بين النهرين، أصل الخلق.

ماذا عن هذه القصة في الكتاب المقدس؟ تصف أول آيتين من العهد القديم بالتحديد تكوين الكون: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالارْض وَكَانَتِ الارْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ».[1]

ويعلق موريس بوكاي على هذه القصة قائلا: «يمكننا أن نقبل جيدًا أنه في المرحلة التي سبقت خلق الأرض، فإن الكون قبل أن يصبح الكون الذي نعرفه، كان غارقا في الظلام الدامس، لكن ذكر وجود المياه في هذه الحقبة هو ببساطة مجرد استعارة مجازية. وقد يتعلق الأمر، على الأرجح، بترجمة أسطورة»[2]. وفي الآيات الموالية مباشرة أظهر الطبيب الفرنسي شدة لا تقل حدة عن تلك التي عالج بها موضوع الخلق: «قال الله: لِيَكُنْ نُورٌ فَكَانَ

(1) التكوين 1، 1-2.

(2) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 35.

نُورٌ .ورأى اللهُ النُّورَ انَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ .وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارا وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْما وَاحِدا»[1].

كتب موريس بوكاي: «في هذه المرحلة من الخلق، لم تتشكل النجوم بعد، وفقًا للكتاب المقدس، لأن «أضواء» السماء لم تُذكَر في سفر التكوين إلا في الآية 14 كخلق اليوم الرابع «للفَصَلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ»، «لِتُنِيرَ عَلَى الارْضِ»، وهذا صحيح تمامًا. لكن من غير المنطقي ذِكر التأثير الناتج (الضوء) في اليوم الأول، مع وضع وسيلة إنتاج هذا الضوء («المُنوِّرات») بعد ذلك بثلاثة أيام. بالإضافة إلى ذلك، فإن وضع مساء وصباح في اليوم الأول هو أمر مجازي بحت: فالمساء والصباح كعنصرين من اليوم لا يمكن تصورهما إلا بعد وجود الأرض ودورانها تحت إضاءة نجمها الخاص: الشمس!»[2]

هذان المثالان المأخوذان من بداية الكتاب المقدس يكفيان لإظهار الفرق بين الرواية القرآنية للخلق، والتي لا تتعارض مع ما وصل إليه العلم بشأن تكوين الكون، ورواية العهد القديم، غير المقبولة من وجهة النظر العلمية. كتب موريس بوكاي: «وبالتالي، إذا كانت المسائل التي طرحتها الرواية القرآنية لم تؤكدها بالكامل حتى الآن البيانات العلمية فلا يوجد، على كل حال، أدنى تعارض بين البيانات القرآنية المتعلقة بالخلق والمعارف العلمية الحديثة حول نشأة الكون. وهذه الحقيقة تجعل من الجدير التنويه بالإعجاز القرآني في حين ثبت أن نص العهد القديم الذي بين أيدينا، يقدم حول هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من الناحية العلمية»[3].

---

(1) التكوين 1، 3-5.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.

وصف موريس بوكاي مقطعا آخر من الرواية التي يقدمها الكتاب المقدس حول الخلق بأنه يتلاعب بالحقيقة، وهو المقطع الذي يزعم أن الله استراح في اليوم السابع من الخلق[1]، وهو ما يرفضه القرآن صراحةً من خلال الآيات التالية: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ»[2]. ومع ذلك، فإن المقطع التوراتي المذكور لا يوجد إلا في النص الكهنوتي حول الخلق، ولا يشير النص اليهودي الذي سبقه بعدة قرون، إلى سبت الرب الذي تعب من عمل أسبوع، فاضطر للراحة في اليوم السابع!

ثانياً: قصة الأنبياء المذكورين في الكتاب المقدس

يذكر القرآن الأنبياء الرئيسيين الذين وردت أسماؤهم في الكتاب المقدس وهو ما دفع البعض إلى الحديث عن الاقتباس أو حتى الانتحال. وسوف نثبت أن القرآن يقدم في الواقع تفاصيل مفقودة في رواية الكتاب المقدس وأنه يصحح أخطاءه دون أن يتبنى في أي وقت التباينات والتناقضات الكثيرة التي جاءت في نصه.

قدم المؤرخ الفرنسي هنري دي كاستري (1850–1927) (Henry de Castries) في مؤلّفه المكرس للإسلام، ردا مفحِما على هذا الاتهام بالانتحال: «محمد ليس دجالًا، كلّا ولا مُنتحِلا ولا «نبيا نهّابا» كما يسميه المدعو صايوس (Sayous). لا شك أن هناك أوجه تشابه بين القرآن وبعض مقاطع الكتاب المقدس؛ لكن سبب ذلك أن محمدا، بطبيعة الحال، يربط الدين الإسلامي مباشرة بالمسيحية واليهودية»[3].

(1) التكوين 2، 2.

(2) ق، 38.

(3) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 46.

كتبت جنفييف كوبيو (Geneviève Gobillot)، أستاذة تاريخ الفكر العربي الإسلامي بجامعة ليون، حول هذا الموضوع أن إحدى الوظائف الأساسية للقرآن هي توجيه القراءة تارة لتأكيد الحقيقة وطورا لإبرازها من الكتب السماوية السابقة. ويبدو أن هذه الملاحظة أصبحت محل إجماع منذ سنوات بين المتخصصين في النص القرآني[1]. وتفسر كوبيو هذا الدور التصحيحي الذي يقوم به القرآن للكتاب المقدس، قائلة: «يقترح القرآن الغوص في أعماق هذه الكتب السماوية بشيء من الحكمة. إذ لا يمكن قراءة كل هذه النصوص بأي طريقة بل يجب قراءتها بحكمة وهذه الحكمة هي التي يقترح القرآن ويحث عليها بمعنى أن هناك عددًا معينًا من المعايير لتحديد كيفية قراءة هذه النصوص، أي كيفية الفصل بين الغث والسمين منها»[2]. وتضيف في موضع آخر: «يقدم القرآن معاييره الخاصة لقراءة هذه المقاطع من الكتاب المقدس التي في الغالب تكلم عنها الحاخامات أو آباء الكنيسة، وهو يقدم قراءة ثانية. ولكن ما هي الخاصية التي تميِّز إعادة القراءة هذه؟ إن خاصيتها هي أنها من الله»[3].

من خلال مثال الآفات العشر التي حلت بمصر والتي جاء ذكرها بشكل مختلف في العهد القديم وفي القرآن، تعلق كوبيو على الطريقة التي استخدمها القرآن في تصحيح ما ورد في الكتاب المقدس: «لا يليق بالله أن يرتكب القتل العمد ولا أن يمارس العنف. فالآفات العشر التي نزلت

(1) Histoire et géographie sacrées dans le Coran, l'exemple de Sodome, Geneviève Gobillot.

(2) Le Coran, guide de lecture des Ecritures, Geneviève Gobillot, in Quelle sagesse pour notre temps, L'Harmattan, 2015.

(3) المرجع السابق.

بمصر في الكتاب المقدس أصبحت تسعا في القرآن، أي أنه تم حذف موت المواليد المصريين الأول، لأن الله لا يتصرف هكذا. إذن هناك سلسلة كاملة من المعايير من هذا النوع تحث على ضرورة إعادة قراءة النصوص، جميع النصوص المقدسة في كافة الديانات التوحيدية في ذلك الوقت. لقد جاء القرآن ليرشدنا إلى طريقة قراءة تلك الكتب وهي الطريقة التي تتمثل - في عجالة - في بيان كيفية تلك القراءة التي ينبغي أن تكون من خلال أسلوب النسخ المعروف. فماذا يعني هذا النسخ؟ نميل دائمًا إلى الاعتقاد بل إلى القول إن القرآن يلغي النصوص السابقة. نعم، إنه يلغيها! لكن ماذا يعني ذلك؟ هذا لا يعني أنه قام بمحوها ورفضها ووضعها جانباً، بل يعني أنه جاء بتصحيحات وتقويمات وطرق مختلفة لقراءتها. فكيف نقرأها؟ بالإلغاء والنسيان. وهذا يعني أنه عندما يتعذر إلغاء شيء ما وهو صادم حقًا، مثل الآفة العاشرة في مصر، فإننا نتغافل عنه. نتغافل عنه بكل بساطة. هذان هما المعياران اللذان يتعامل بهما القرآن تجاه النصوص القديمة».

وحسب ما ذهبت إليه المختصة الفرنسية في دراسة الإسلام، فإن القرآن يصحح الكتاب المقدس إما بتقويم أخطائه، كما سنرى في قصة ضيف إبراهيم، أو بتجاهلها، مثل الآفة العاشرة في مصر وموت المواليد المصريين الأول.

وقبل إعطاء بعض الأمثلة على هذه التصحيحات التي أجراها القرآن على الكتاب المقدس، دعونا أولاً نوضح كيف أن الاتهام بالانتحال لا أساس له من الصحة. فقد كان من الممكن للنبي ﷺ أن يستخدم نوعين من المصادر للكتابة المفترضة لهذه الروايات، ترجمة عربية للكتاب المقدس وتعاليم شفهية يقدمها اليهود أو المسيحيون:

1 – مصدر كتابي

يرجع تاريخ أقدم الترجمات العربية للكتاب المقدس في أحسن الأحوال إلى القرن الثامن الميلادي، بعد مرور قرن على الأقل على موت النبي محمد ﷺ. وبالتالي فقد ورد في قاموس فيجورو (Vigouroux) حول موضوع النسخ العربية الأولى للكتاب المقدس ما يلي: «في الواقع، لم تظهر الحاجة إلى هذه النسخ إلا بعد أن تخلت الأقاليم المختلفة الخاضعة للإسلام عن لغاتها الأصلية لتتبنى لغة الفاتحين وهذا يعني ما بين القرنين الثامن والعاشر بالتقويم الميلادي. وحينها تولى اليهود والمسيحيون إصدار نسخ عربية للكتاب المقدس»[1].

هذه المعلومات يؤكدها بروس ميتزجر (Bruce Metzger)، وهو متخصص معروف في العهد الجديد، في كتابه المعنون «الكتاب المقدس من خلال الترجمة» (The Bible in Translation). وقد جاء تأكيده لهذه المعلومات في الفصل الذي كرسه للترجمات الأولى للكتاب المقدس إلى العربية حيث كتب: «لا نعرف صاحب الترجمة الأولى للكتاب المقدس إلى اللغة العربية. فالروايات التقليدية تعزوا هذا الشرف لأشخاص مختلفين. كل ما يمكن قوله هو أن الترجمات الأولى للكتاب المقدس إلى هذه اللغة ربما تعود إلى القرن الثامن»[2].

يُعتبر بشكل عام أن أقدم نسخة من الكتاب المقدس باللغة العربية، مترجمة انطلاقا من السبعينية (Septante)، وهي نسخة حنين بن إسحاق

---

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 1, part 1, p. 845.

(2) The Bible in Translation: Ancient and English Versions, Bruce Metzger, Baker Academic, 2001, p. 46.

(808–873)، وبالتالي يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، ولكن لم يحفظ منها أي شيء. وأقدم نسخة معروفة هي تلك التي أصدرها السعدية غاون (Saadiah Gaon) (882–942) وهو يهودي مصري أصبح فيما بعد رئيس المدرسة الحاخامية في بابل.

أضف إلى ذلك أن نبي الإسلام كان أميًا، مثل الغالبية العظمى من العرب في عصره كما جاء في القرآن: «وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ»[1]. ويثير هنري دي كاستري (Henry de Castries) نقطة أساسية هنا حين كتب: «لم يكن محمد يعرف القراءة ولا الكتابة بل كان، كما كان يقول دائما، نبيًا أميًا وهو ما لم ينفيه أحد من معاصريه، وبالتأكيد لم يكن من الممكن في الشرق، حيث يعرف الناس كل شيء عن حياة بعضهم البعض، أن يتلقى تعليما في ظروف سرية»[2]. وهذه قاعدة يجب أن تبقى دائمًا حاضرة في أذهاننا. لقد كان الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب فور نزوله ويتعهّدونه بالتلاوة طول الوقت وبالأخص أثناء الصلوات، وقد قام بعضهم بكتابته وجمعه بعد ذلك في مصحف واحد. وبالتالي فإن المعلومات التي يقدمها هي بالتأكيد معلومات صحيحة وأصلية، فلو لم تكن كذلك لكان المعاصرون للنبي ﷺ قد فندوها وقضوا على رسالته. إليكم ما كتبه موريس بوكاي (Maurice Bucaille) بهذا الشأن: «نحن نعلم أن محمدا ﷺ وأصحابه اعتادوا تلاوة القرآن حفظا. فمن المستحيل إذن أن يتناول القرآن وقائع تتنافى مع الواقع في

---

(1) العنكبوت، 48.

(2) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 33.

الوقت الذي كان فيه من السهل جداً على الصحابة وكُتّاب الوحي اكتشاف أي خلل يطرأ عليه»[1].

يضيف هنري دي كاستري: «إن الأمر الأصعب هو إعطاء رأي في مسألة نزول القرآن التي لم يُقدم منتقدوها تفسيرًا مُقنعا أبدًا. كيف نعزو لإلهام بشري بحت لأمِّيّ تأليف هذه الصفحات التي يتّفق الشرق كله على أنها تحفة لا تضاهى مضمونا أو شكلا»[2]. ويتساءل بعد بضعة سطور: «كيف استطاع النبي تأليف هذا الكتاب بلغة أدبية بحتة كانت معرفتها وفهمها، مثل اللاتينية في العصور الوسطى، حكرا على الفئة المتعلمة؟»[3]

يقول لوسيان فيريه (Lucien Ferré) في كتابه «مدخل إلى الإسلام» (Introduction à l'islam): «كان رسوله، فائق الذكاء، ثاقب الفهم قوي الذاكرة وأميّا منذ البداية. ولكن ما ضره ذلك فقد كان يحفظ الآيات والسور عند نزولها ثم يتولى كَتَبَةُ الوحي تسجيلها وكتابتها وبثّها على الفور خلال جميع الشعائر الدينية أو ممارسات العبادة. وعليه فكم هي افتراء وتشهير لا معنى له تلك الاتهامات التي تطاولت على الرسول ﷺ واصفة إياه بأنه محتال أو منتحل أو أنه هو مؤلف القرآن»[4].

وقد كتب الصحفي السويسري روجر دو باسكييه (Roger du Pasquier)، مؤلف كتاب «اكتشاف الإسلام» (Découverte de l'islam): «أن نزول

---

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 131.

(2) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 38.

(3) المصدر السابق، ص 40.

(4) Introduction à l'islam, Lucien Ferré, Publisud, Paris, 1990, p. 62.

القرآن كان وما يزال المعجزة الأساسية للإسلام. لم يستطع أي شخص حتى الآن أن يشرح بشكل معقول كيف يمكن لرجل أميّ من رجال القوافل في أوائل القرن السابع أن ينتج، بوسائله الخاصة، نصًا يتمتع بهذا الجمال الذي لا يضاهى والقدرة على تحريك النفوس، مع درجة من المعرفة والحكمة تتجاوز بكثير معارف وأفكار الناس في عصره. إن الدراسات التي أجريت في الغرب لمحاولة تحديد المصادر التي يمكن لمحمد ﷺ أن يستمد منها ما عنده أو لاكتشاف الظاهرة النفسية التي حصل بها على إلهامه من «اللاوعي» لم تثبت أبدًا إلا شيئًا واحدًا ألا وهو تحيُّز أصحاب تلك الدراسات ومعاداتهم للمسلمين».[1]

2 – مصدر شفهي

بعد سرد قصة مريم في القرآن، خاطب تعالى نبيه قائلا: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]. هنا أيضا يذكر القرآن أن هذه الأحداث لم تكن معروفة من قبل عند النبي ﷺ ولا عند قومه وهو ما يثبت صحتها خاصة أنه من السهولة بمكان التأكد من ذلك لدى معاصريه.

يضاف إلى ذلك أن مكة أو المدينة المنورة، في زمن النبي ﷺ، لم تكونا سوى مدينتين يسكنهما بضعة آلاف من الناس المتعارفين فيما بينهم. وإليكم مقتطف من المقال المكَرّس لمكة المكرمة في الموسوعة العالمية (Encyclopædia Universalis): «إن مكة المكرمة التي هي أبعد ما تكون عن دولة، ليست سوى تجمُّع من عشائر تنتسب إلى جد واحد هو قريش وترتبط فيما بينها بمصالح اقتصادية تفرض وحدة معينة».

(1) Découverte de l'islam, Du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 63.

(2) هود، 49.

وعلاوة على ذلك، من ذا الذي يمكن له، في شبه الجزيرة العربية، أن يشكل مصدرا يستقي منه النبي ﷺ المعلومات إن لم يكن اليهود والمسيحيون. والحال أن النصوص لا تشير إلى وجود جاليات يهودية أو مسيحية في مكة حيث نزل معظم القرآن (86 سورة من أصل 114)، ولا سيما معظم القصص المتعلقة بالأنبياء المذكورين في الكتاب المقدس، وحيث قضى النبي ﷺ الجزء الأكبر من فترة الدعوة إلى الله أي ثلاثة عشر عاما من أصل ثلاثة وعشرين. وفي المقابل، كانت هناك جاليات يهودية كبيرة في المدينة عندما وصلها النبي ﷺ ومكث يدعو للإسلام خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته والتي نزلت خلالها 28 سورة فقط. إضافة إلى ذلك، فإن اليهود لم يخفوا أبدًا عداءهم لمحمد ﷺ وللإسلام خلال دعوته. فلو كان قد تلقّى منهم المعلومات قبل أن يعلن نفسه نبيا، لما ترددوا في كشف أمره ولجاهروا بأنهم هم الذين علّموه.

والأن سنتناول بعضا من هذه القصص القرآنية المتعلقة بأنبياء الكتاب المقدس، وسنبرز ما يميزها عن الروايات المشابهة في الكتاب المقدس.

– قصة آدم عليه السلام: قصة هبوط آدم، مطرودا من جنة عدن لأكله من الشجرة المحرمة، معروفة جيداً. وإذا كانت روايات القرآن والكتاب المقدس لهذه القصة متقاربة، فإنها مع ذلك لا تخلو من اختلاف لا يستهان به.

1. ما هي الشجرة المحرمة؟

بحسب الكتاب المقدس، هذه الشجرة هي شجرة معرفة الخير والشر. «وَامَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلا تَاكُلْ مِنْهَا لانَّكَ يَوْمَ تَاكُلُ مِنْهَا مَوْتا

تَمُوتُ»[1]. لذا عوقب آدم وحواء وأخرجا من الجنة بسبب رغبتهما في معرفة الخير والشر عقابا يبدو قاسيا جدا!

يفسر القرآن الخطيئة الأصلية بطريقة أكثر منطقية بكثير: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[2]. تتمثل الخطيئة الأصلية، وفقًا للقرآن، في الرغبة في الخلود الذي هو من صفات الله.

2. أيهما ارتكب الخطيئة أولاً؟

يقول الكتاب المقدس إن حواء هي التي أغواها الأفعى فكانت أول من أكل من الثمرة المحرمة ثم قامت بعد ذلك هي نفسها بإغواء آدم: «فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ انَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلاكْلِ وَانَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَاعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضا مَعَهَا فَاكَلَ».[3] عوقبت المرأة عقابا شديدا على فعلتها: ستعاني من آلام النفاس وتعيش تحت سيطرة زوجها: «تَكْثِيرا اكَثِّرُ اتْعَابَ حَبَلِكِ. بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ اوْلادا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ»[4].

وفي المقابل فإن آدم وحواء، حسب القرآن، شريكان في الخطيئة، دون أي فرق بين الرجل والمرأة: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.»[5]

3. من الذي قام بالإغواء؟

حسب الكتاب المقدس، فإن الثعبان هو الذي أغرى حواء وحسب القرآن فإن الشيطان هو الذي أغرى آدم عليه السلام وحواء.

(1) التكوين 2، 17.
(2) طه، 120.
(3) التكوين 3، 6.
(4) التكوين 3، 16.
(5) البقرة، 36.

4.هل غُفِرت الخطيئة الأصلية؟

كما مر بنا قبل قليل فإن حواء والنساء بعدها سيعانين إلى الأبد من عواقب الخطيئة الأصلية. وينطبق الشيء نفسه على آدم والرجال من بعده، المحكوم عليهم بأن يعيشوا حياة كد من أجل كسب العيش من الأرض: «وَقَالَ لِآدَمَ: لانَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأتِكَ وَأكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أوْصَيْتُكَ قَائِلا: لا تَأكُلْ مِنْهَا مَلْعُونَةٌ الارْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَاكُلُ مِنْهَا كُلَّ ايَّامِ حَيَاتِكَ»[1]. لكن المسيحيين لا يرون أن كل هذا العقاب يكفي لتخفيف غضب الرب مما استدعى منه إرسال ابنه الوحيد ليموت على الأرض تكفيرا عن الخطيئة الأصلية التي اقترفها آدم وحواء وورّثاها لجميع ذريتهم: إنها عقيدة الفداء.

يقدم القرآن رواية مختلفة تمامًا: فبعد طرده من الجنة، تاب آدم من خطيئته واستغفر ربه الذي غفر له: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[2].

5. كم عاش آدم عليه السلام؟

عاش آدم، حسب ما جاء في الكتاب المقدس، تسعمائة وثلاثين سنة، وهو ما قد يبدو عمرا طويلا بالنسبة لمن تلقى هذا التهديد من الله: «وَأمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلا تَاكُلْ مِنْهَا لانَّكَ يَوْمَ تَاكُلُ مِنْهَا مَوْتا تَمُوتُ»[3]. هذه القصة غير موجودة بتاتا في القرآن.

(1) التكوين 3، 17.
(2) طه، 121-122.
(3) التكوين 2، 17.

- قصة نوح عليه السلام:

﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ ﴾ (هود: 49)

نزلت هذه الآية على النبي محمد ﷺ بعد قصة نوح مباشرة. هنا أيضًا، يمكن ملاحظة الاختلافات بين رواية الكتاب المقدس لقصة نوح والطوفان ورواية القرآن.

1. سبب الطوفان

حسب ما جاء في الكتاب المقدس، فبعد توبته من خلق الانْسَانَ الذي «كَثُرَ شَرّه فِي الارْض»، غمر الله البشر تحت الطوفان: «فَحَزِنَ الرّبُّ انّهُ عَمِلَ الانْسَانَ فِي الارْض وتأسف فِي قَلْبِهِ. فَقَالَ الرّبُّ: امْحُو عَنْ وَجْهِ الارْضِ الانْسَانَ الّذِي خَلَقْتُهُ»[1].

تحاشى القرآن تقديم تفسير من هذا القبيل إذ أنه أقرب للمنطق أن ننسب التوبة للإنسان، كما فعل القرآن في قصة آدم عليه السلام، بدلا من أن ننسبه لله، كما فعل الكتاب المقدس في قصة نوح عليه السلام.

2.هل كان الطوفان شاملا أم كان محدودا؟

تشير عبارات مقطع الكتاب المقدس المذكور أعلاه إلى أن الطوفان غمر الأرض كلها. ومع ذلك، لا توجد أية بقايا أثرية أو تاريخية لطوفان قد غمر سطح المعمورة. تشير الرواية القرآنية، بشكل يتفق مع المعطيات التاريخية، إلى أن الفيضانات اقتصرت على قوم نوح الذين ابتلعهم الطوفان وحدهم.

(1) التكوين 6، 6-7.

3. نوح يسكر

بعد قصة الطوفان مباشرة، ذكر الكتاب المقدس مشهدا شَربَ فيه نوح مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى بشكل كامل. «شَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَابْصَرَ حَامٌ ابُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ ابِيهِ وَاخْبَرَ اخَوَيْهِ خَارِجا. فَاخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى اكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إلى الْوَرَاءِ وَسَتَرَا عَوْرَةَ ابِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إلى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ ابِيهِمَا»[1]. لعن نوح حاما على الجريمة الوحيدة التي اقترفها والمتمثلة في كونه أبصر عَوْرَةَ أَبِيهِ وأبلغ بذلك إخوته. توضيح هام: يوصف حاما هنا بأنه «أبو كنعان»، أحد ألد أعداء إسرائيل، من سكان أرض كنعان، فلسطين حاليا، التي استولى عليها الشعب العبري بالقوة.

إن القرآن الذي يتحدث عن الأنبياء بكثير من الاحترام لم يأت على هذه الواقعة.

- قصة إبراهيم عليه السلام:

سنتناول الآن قصة ضيف إبراهيم كما وردت في الكتاب المقدس ثم في القرآن.

«فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَاذَا ثَلاثَةُ رِجَالٍ وَاقِفُونَ لَدَيْهِ. فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إلى الارْضِ وَقَالَ: يَا سَيِّدُ انْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلا تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ. لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا ارْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَاخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ لأنكم قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ. فَقَالُوا: هَكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ فَاسْرَعَ ابْرَاهِيمُ إلى الْخَيْمَةِ إلى سَارَةَ وَقَالَ: اسْرِعِي بِثَلاثِ كَيْلاتٍ

(1) التكوين 9، 21-23.

دَقِيقا سَمِيذا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ ثُمّ رَكَضَ ابْرَاهِيمُ إلى الْبَقَرِ وَاخَذَ عِجْلا رَخْصا وَجَيّدا وَاعْطَاهُ لِلْغُلام فَاسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ .ثُمّ اخَذَ زُبْدا وَلَبَنا وَالْعِجْلَ الّذِي عَمِلَهُ وَوَضَعَهَا قُدّامَهُمْ. وَاذْ كَانَ هُوَ وَاقِفا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشّجَرَةِ اكَلُوا».[1]

إليكم نفس القصة كما حكاها القرآن: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾[2].

يبرز اختلافان واضحان عند قراءة هاتين القصتين. الأول يتعلق بعدد وطبيعة هذه الشخصيات التي استضافها إبراهيم عليه السلام والثاني، رد فعلهم على الوجبة المقدّمة لهم.

جاء في الكتاب المقدس أنهم ثلاثة رجال وأن إبراهيم عليه السلام سجد أمامهم قائلا «يَا سَيِّدُ انْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ» كما لو كان يخاطب شخصا واحدا. وتتعقد القصة في بداية الفصل الموالي حيث نُخبَر أن عددهم اثنان وأنهم ملائكة[3].

هنا أسئلة تطرح نفسها: هل تلقّى إبراهيم عليه السلام زيارة شخص واحد أم اثنين أم ثلاثة؟ كيف يمكن للشيخ الجليل أن يسجد أمام بشر أو حتى أمام ملائكة؟ كيف يمكن لأولئك الذين هم من الملائكة، كما هو واضح، أن يتناولوا الوجبة التي قدمها لهم إبراهيم عليه السلام؟

---

(1) التكوين 18، 2 – 8.
(2) هود، 69–70.
(3) التكوين 19، 1.

يُزيل القرآن هذا اللبس ويردُّ على هذه الاحتمالات المستبعدة من خلال تقديم هؤلاء الزوار على أنهم ببساطة «رُسُل» الله، أي ملائكة لم يتم تحديد عددهم. وفي المقابل تُبيِّن الرواية القرآنية، بطريقة منطقية للغاية: أن أيدي الملائكة لا تمتد إلى الوجبة وهو ما أخاف إبراهيم، ولكن ضيوفه بادروا الى طمأنته.

إليكم تعليق جنفييف غوبيو (Geneviève Gobillot) على هذه القصة: «في نص التوراة، عندما جاء الرسل إلى إبراهيم، ذبح لهم عجلا فأكلوا منه. تساءل العديد من الحاخامات قائلين: «هل يمكن أن يكون هؤلاء الرسل ملائكة؟ من هم هؤلاء الرسل؟ لقد أكلوا». شيئًا فشيئًا، وبمرور الوقت، توصلنا إلى فكرة أنه لا يمكن لهم أن يكونوا إلا ملائكة، وإن كان الأمر محرجًا جدًا. إذن نص مشكوك في صحته ـ كما هو حال وصية إبراهيم ـ حاول حل المسألة بقوله: «لقد كان هؤلاء الملائكة منزعجين جدًا عندما أحضر لهم إبراهيم هذا العجل وسألوا الله: لكن ماذا علينا أن نفعل؟ ها هو إبراهيم وقد جاءنا بعجل وأنت تعلم أننا لا نستطيع أن نأكل، نحن أرواح مجردة. إذن ماذا نفعل؟ فقال لهم الله: لا تقلقوا! عليكم أن تلمسوا الطعام بأيديكم، وعندما تلمسونه، سأرسل روحا آكِلا سيجعل العجل يختفي». وبعد ذلك، تأتي معجزة أكبر من أختها تتمثل في مشاهدة سارة للعجل بعد أن عادت إليه الحياة مرة أخرى. نحن إذن أمام موضوع كامل يتعلق بمسألة لحوم الحيوانات الميتة الخ، لأنه بعد ذلك، مشى العجل ليرضع أمه. لكن المشكلة في رواية «عهد إبراهيم» هي أنه يقول: «سوف تلمسون اللحم وسوف يختفي». لكن القرآن له منطق. يوجد في القرآن منطق مُحكم للغاية، لا يقبل هذه الرواية: إذا لم يكن لهؤلاء الأشخاص جسد، إذا كانوا ملائكة حقًا فلا يمكنهم لمس الطعام فضلا عن أكله. إذن القرآن واضح جداً:

لم يلمسوا الطعام ولم يأكلوه. هذا هو نوع حالات التصحيح والإلغاء الدقيقة جدا والتي مع ذلك تقود إلى أبعد بكثير»[1].

- قصة لوط عليه السلام:

1. يقدم لوط عليه السلام بناته للمثليين

بحسب الرواية التي وردت في الكتاب المقدس جاء ملكان لزيارة لوط عليه السلام فرحب بهما في بيته. ولما علم المثليون بذلك، جاءوه يستحثونه على تسليم ضيوفه لهم ليمارسوا معهم الفجور. فما كان من لوط إلا أن قدم لهم بناته: «هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلا. اخْرِجُهُمَا الَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَامَّا هَذَانِ الرَّجُلانِ فَلا تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئا لانَّهُمَا قَدْ دَخَلا تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»[2]. وأما المشكلة فهي أننا، بعد بضعة أسطر في النص، نخبر بأن ابنتي لوط كانتا متزوجتين أو، على الأقل، مخطوبتين. «خَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ اصْهَارَهُ الاخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ لانَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ».[3] سواء كانت ابنتا لوط متزوجتين من هؤلاء الرجال، أو مخطوبتين فقط فكيف للوط أن يعرضهما على مثليين؟ القرآن لم يتعرض بطبيعة الحال إلى مسألة أصهار لوط عليه السلام.

2.علاقات زنى المحارم بين لوط وبناته

هذه أيضا حادثة لا أثر لها في القرآن، وهي علاقة زنى المحارم بين لوط وابنتيه. فبعد أن مات زوجا أو خطيبا البنتين في المدينة الخاطئة التي رفضا

---

(1) Le Coran, guide de lecture des Ecritures, Geneviève Gobillot, in Quelle sagesse pour notre temps, L'Harmattan, 2015.

(2) التكوين 19، 8.

(3) التكوين 19، 14.

مغادرتها على الرغم من نصيحة لوط لهما، قررت ابنتا لوط، خوفا من عدم الزواج بعد هلاك الرجال، أن تسقيا والدهما مسكرا قبل النوم: «وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: ابُونَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الارْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الارْضِ هَلُمَّ نَسْقِي ابَانَا خَمْرا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ فَنُحْيِي مِنْ ابِينَا نَسْلا»[1].

وفي المقابل نرى القرآن يوَقف قصة لوط عليه السلام عند تدمير سدوم. ومن الواضح أن المسلمين يعتبرون أن رواية الكتاب المقدس هذه ما هي إلا اختلاق ملفتين الانتباه إلى أن الابنين اللذين أثمرت عنهما ـ حسب الكتاب المقدس ـ هذه العلاقات بين المحارم، مُواب وبِنْ عَمِّي، هما أسلاف شعبين كانا من بين ألد أعداء الشعب اليهودي: الموآبيون والعمونيون.

- قصة يوسف عليه السلام:

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴾ (يوسف: 102).

نلاحظ هنا أيضا بعض الاختلافات بين قصة يوسف عليه السلام كما وردت في الكتاب المقدس وكما حكاها القرآن الكريم وبعض الأخطاء الموجودة في رواية الكتاب المقدس والتي سلم منها النص القرآني.

1. توبيخ أم توصية؟

عندما روى يوسف حلمه - الذي رأى فيه الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له - لإخوته ووالده، انْتَهَرَهُ ابُوهُ قائلاً له: «مَا هَذَا الْحُلْمُ الَّذِي حَلُمْتَ! هَلْ نأتي انَا وَامُّكَ وَاخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إلى الارْضِ؟»[2]

(1) التكوين 19، 31-32.
(2) التكوين 37، 10.

جاءت ردة فعل يعقوب كما وصفها القرآن منسجمة تماما مع مقامه كنبي. فوجه إليه نصيحة تفيض بالحكمة: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1].

2. من يعرض انقاذ يوسف ومن يشتريه؟

في سفر التكوين 37، 21، نُخبَر أن رَاوبَيْن هو الذي اقترح إنقاذ حياة شقيقه يوسف والاكتفاء برميه في بئر. ولكن بعد بضعة أسطر، نتفاجأ عندما نقرأ أن رَاوبَيْن ليس هو صاحب الاقتراح بل شقيقه يهوذا الذي عرض بيع يوسف بدلاً من قتله.

ليس القصص القرآني من النوع الذي يلجأ للتطويل الممل أو للتقصير المخل فنراه لم يعط اسم الأخ فاعل الخير ولا هوية القوم الذين اشتروا يوسف في نهاية الأمر. أما الكتاب المقدس، من جانبه، وفي تناقض جديد، فقد عرَفَهم أولاً بأنهم إسماعيليون، وبعد ذلك في الآية الموالية بأنهم مِدْيَانِيُّونَ[2].

3. هل تم تمزيق القميص أم سحبه؟

وفقا لرواية الكتاب المقدس، عندما أرادت زوجة فُوطِيفَار إغواء يوسف، «أَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: اضْطَجِعْ مَعِي». فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إلى خَارِجٍ».[3] مشهد سريالي لا يكاد أحد أن يتخيله!

أما رواية المشهد نفسه حسب ما جاء في القرآن فتبدو واقعيَّة تمامًا: «وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ»[4].

---

(1) يوسف، 5.
(2) التكوين 37، 27–28.
(3) التكوين 39، 12.
(4) يوسف، 25.

4. هل ثبتت براءة يوسف؟

يشير بعض شراح الكتاب المقدس إلى أن قصة يوسف في الكتاب المقدس «ما تزال نوعا ما غير مكتملة، لأن كذب المرأة لم يكتشف ولم يستنكر»[1].

وفي المقابل، نجد في القصص القرآني إثبات براءة يوسف بسبب القميص الممزق من الخلف، فيدافع عن نفسه قائلا: «هي راودتني عن نفسي». وشهد شاهد من أهلها قائلا: « إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[2].

5. رياح شرقية أم رياح جنوبية؟

ذكر الكتاب المقدس أحد أحلام ملك مصر على النحو التالي: «وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً. وَهُوَ ذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَ ذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا»[3]. ويوجد نفس الحلم في القرآن على النحو التالي: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾[4].

يشير الكتاب المقدس إلى أن السَنَابِلَ تحترق بواسطة «الريح الشرقية»، وهو ما لم يذكره القرآن. ومع ذلك، يقول نقاد الكتاب المقدس إن الريح التي تجفف المحاصيل في مصر هي الرياح الجنوبية

(1) Annuaire du Collège de France 2015-2016. Résumé des cours et travaux, 116e année, Paris, Collège de France, juin 2018, p. 243-260.

(2) يوسف، 26-27.

(3) التكوين 41، 4-6.

(4) يوسف، 43.

القادمة من الصحراء[1].في فلسطين، وليس في مصر، تجفف الرياح الشرقية المحاصيل[2].

6. ملك مصر أم فرعون؟

يحمل ملك مصر في مقطع الكتاب المقدس السابق لقب «فرعون»، بينما يُطلق عليه «الملك» في نفس المقطع من القرآن. والحال أن معظم المفسرين يحددون فترة وجود يوسف عليه السلام في مصر بأنها في عهد الهيكسوس (Hyksos)، وهم شعب آسيوي اجتاح دلتا النيل وبسط نفوذه على تلك المنطقة. وهؤلاء الهيكسوس الغزاة الأجانب كان قادتهم يحملون لقب الملوك، وليس لقب الفراعنة الذي هو اللقب الذي حمله الحكام المصريون. يقال إن ستة من هؤلاء الملوك الأجانب حكموا جزءًا من مصر مدة تزيد قليلاً على قرن من الزمان قبل أن يطردهم الأمراء المصريون الجنوبيون. وفي إشارة واضحة إلى الفرق بين «الملوك» الهيكسوس والفراعنة المصريين، ذكر الفرنسي بيير مونتي (Pierre Montet) المتخصص في دراسة مصر القديمة، في كتابه «مصر والكتاب المقدس» متحدثا عن يوسف عليه السلام: «حدثت وفاته بعد طرد أحمس (Ahmose) للهيكسوس من أفاريس (Avaris) ومن جميع أراضي مصر عام 1580. وهكذا تكون رسالة يوسف قد تزامنت مع آخر ملوك الهيكسوس ومع الفراعنة الأوائل من الأسرة المالكة الثامنة عشرة»[3].

(1) Word Biblical Commentary, Gordon Wenham, vol. 2, Genesis 16-50, Word Books, Dallas, 1998.

(2) هوشع 13، 15.

(3) L'Egypte et la Bible, Pierre Montet, Cahiers d'archéologie biblique n°11, Delachaux & Niestlé, Neuchâtel (Suisse), 1959, p. 21.

وفيما يلي مقتطف من المقالة التي وردت في الموسوعة العالمية (Encyclopædia Universalis) والتي تناولت هؤلاء السكان: «الهيكسوس (Hyksôs) هو الاسم الذي أطلقه المؤرخ المصري مانيتو (Manéthon) (القرن الثالث قبل الميلاد) على الغزاة الآسيويين الذين حكموا مصر من حوالي 1730 إلى 1560 قبل الميلاد، وقد احتفظ لنا المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس (Flavius Josèphe) الذي عاش في القرن الأول من عصرنا، بفقرات يذكر فيها مانيتو غزو الهيكسوس. «بشكل غير متوقع، تجاسر رجال من طينة مجهولة، قدموا من الشرق، على غزو بلدنا [مصر]، فاستولوا عليه بالقوة دون مقاومة أو قتال. وكان كل هؤلاء القوم يسمون Hyksos أي «الرعاة ـ الملوك» لأن كلمة Hyk في اللغة المقدسة، تعني «الملك»، وsos تعني في اللغة السوقية «راعيا».

ترجم شراح آخرون مصطلح «Hyksos» بعبارة «ملوك أجانب». ومهما كان الأمر، فإننا نلاحظ أن أصل مصطلح Hyksos يشير إليهم باعتبارهم ملوكًا لا باعتبارهم فراعنة. ويعلق البروفيسور فيركوتير (Vercoutter) على هذا الخطأ التاريخي في الكتاب المقدس قائلا: «ذِكْر فرعون في زمن يوسف غلطة تاريخية لا تقل فداحة عن استخدام كلمة «الاليزيه» للإشارة إلى قصر ملك فرنسا في عهد لويس الرابع عشر»[1].

وفي المقابل، نرى القرآن يسرد قصة موسى عليه السلام سردا يتفق مع الاستنتاجات التاريخية ويُطلق لقب فرعون على من حكم في ذلك الوقت وأغلب الظن أنه رمسيس الثاني (Ramsès II) الذي خلفه ابنه منبته (Mineptah).

(1) Encyclopædia Universalis, 1973, vol. 12, p. 915.

7. مفارقة تاريخية أخرى؟

يشكل ذكر رمسيس في هذا المقطع الآخر من سفر التكوين مفارقة أخرى: «فَاسْكَنَ يُوسُفُ ابَاهُ وَاخْوَتَهُ وَاعْطَاهُمْ مُلْكا فِي ارْضِ مِصْرَ فِي افْضَلِ الارْضِ فِي ارْضِ رَعَمْسِيسَ».[1] وهكذا ورد في قاموس الكتاب المقدس لمؤلفة أندريه ماري جيرار (André-Marie Gérard): «من المفارقة التاريخية أن تستخدم الوثيقة الكهنوتية عبارة «أرض رَعَمْسِيسَ» لوصف المنطقة التي أسكن فيها يوسف والده «فِي افْضَلِ الارْضِ فِي ارْضِ رَعَمْسِيسَ»: ففرعون ذلك الزمان لم يكن بعد رمسيس»[2].

8. هل تحقق حلم يوسف عليه السلام؟

القرآن وحده هو الذي أخبرنا أن حلم يوسف قد تحقق: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ ﴾[3].

9. هل كانت والدة يوسف حية أم ميتة؟

حسب ما ورد في الكتاب المقدس، فإن والدة يوسف عليه السلام لم تكن حية في ذلك الوقت: «وَكَانَ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِهَا (لانَّهَا مَاتَتْ) انَّهَا دَعَتِ اسْمَهُ بِنْ اونِي. وَامَّا ابُوهُ فَدَعَاهُ بِنْيَامِينَ. فَمَاتَتْ رَاحِيلُ وَدُفِنَتْ فِي طَرِيقِ افْرَاتَةَ (الَّتِي هِيَ بَيْتُ لَحْمٍ)»[4].

---

(1) التكوين 47، 11.

(2) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 1174.

(3) يوسف، 99-100.

(4) التكوين 35، 18-19.

وفي المقابل تشير الآية القرآنية السابقة إلى أن والدة يوسف عليه السلام كانت حية. والحال أن الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام في منامه في بداية القصة والموجودة في الكتاب المقدس كما هي الحال في القرآن الكريم، تؤكد الرأي الذي يقول إن والدة يوسف عليه السلام كانت على قيد الحياة، لأنه في الحلم رأى كلا من والده، الذي ترمز إليه الشمس ووالدته التي يرمز إليها القمر، وإخوته الأحد عشر، الذين يرمز إليهم الأحد عشر نجما، ورآهم ساجدين له، وهي رؤيا تحققت في مصر في القصة القرآنية.

- قصة موسى عليه السلام:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (القصص، 44).

إن دراسة متأنية لرواية موسى عليه السلام في مصر كما جاءت في الكتاب المقدس وفي القرآن تمكن من إثبات أن القرآن يصحح الكتاب المقدس تارة وطورا يقدم تفاصيل غابت عنه، متحاشيا تكرار أخطائه. وسنذكر خمسة أمثلة على ذلك.

1. كم عدد العبرانيين الذين شاركوا في الخروج؟

يذكر الكتاب المقدس أن عددًا كبيرًا جدا من العبرانيين تبعوا موسى عليه السلام في طريقه للخروج من مصر: «فَارْتَحَلَ بَنُو اسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ إلى سُكُّوتَ نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ الْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الاوْلادِ»[1].

وقبل ذلك حدد سفر التكوين عدد العبرانيين الذين رافقوا يعقوب عليه السلام في مصر: «جَمِيعُ النُّفُوسِ لِيَعْقُوبَ الَّتِي اتَتْ إلى مِصْرَ الْخَارِجَةِ مِنْ

(1) الخروج 12، 37.

صُلْبِهِ مَا عَدَا نِسَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ جَمِيعُ النُّفُوسِ سِتٌّ وَسِتُّونَ نَفْسا»[1]. والحال أن المدة التي قضاها العبرانيون في مصر بين وصولهم في زمن يوسف عليه السلام وخروجهم مع موسى عليه السلام تقدر بحوالي 400 سنة. فكيف تضاعفت عائلة يعقوب عليه السلام بهذا القدر لتصل إلى مئات الالاف بل وحتى ملايين الاشخاص؟!

لم يجد اندرى ماري جيرار (André-Marie Gérard) بدا من الاعتراف في قاموسه للكتاب المقدس بما يلي: «يجب أن نعتبر تقدير عدد «بني إسرائيل» المشاركين في المغامرة المقدسة من قبيل الأسلوب الملحمي: «600000 رجل» على أتم الاستعداد لخوض الحملة حسب ما أورده مؤلف الوثيقة الكهنوتية. وهوما يفترض، إذا شمل الحساب عدد النساء والأطفال والمسنين وجمهور المضطهدين من جميع الأصول الذين انتهزوا الفرصة للفرار معهم هربا من بؤسهم، أن ما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين شخص قد غادروا مصر مع موسى عليه السلام، بمعنى أن أكثر من نصف سكان البلاد وفقًا لأعلى التقديرات قد غادروا للالتحاق به: وهو ما يكفي بدون قطعان ولا مطايا ولا أمتعة، لتشكيل قافلة من الممكن أن تصل مقدمتها إلى الطرف الجنوبي من سيناء قبل أن تعبر مؤخرتها البحر الأحمر»[2].

القرآن، من جانبه، ينسب هذه الكلمات إلى فرعون وهو يصف العدد القليل من العبرانيين الذين فروا: «وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ»[3].

---

(1) التكوين 46، 26.

(2) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 372.

(3) الشعراء، 52-54.

2. هل تم العثور على جثة فرعون؟

إذا كان الكتاب المقدس قد ذكر وفاة هذا الفرعون مغمورا تحت الماء، فإنه لم يلمح إلى المصير الذي آل إليه جسده: «فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ.

لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلا وَاحِدٌ»[1]. وفي المزامير نجد ما يلي: «وَدَفَعَ فِرْعَوْنَ وَقُوَّتَهُ فِي بَحْرِ سُوفٍ»[2].

وفي المقابل يقدم القرآن توضيحا هاما بشأن مصير جثة فرعون المذكور في سفر الخروج. قال تعالى: «فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً»[3].

من المعروف جيدا اليوم أنه تم حفظ الجثث المحنطة للفراعنة المصريين، ولا سيما جثة رمسيس الثاني، التي عُرِضت على أنها جثة فرعون الذي اضطهد العبرانيين وابنه مينبتاح (Mineptah) الذي يُعتبر الفرعون الذي لقي حتفه غرقا تحت مياه البحر الأحمر. لكن جثث هؤلاء الفراعنة كانت في الوقت الذي نزل فيه القرآن، ما تزال محفوظة في مقبرة طيبة ولم تكتشف مومياواتهم إلا في نهاية القرن التاسع عشر. وهكذا اكتشف لوري (Loret) عام 1898 جثة مينبتاح ابن رمسيس الثاني المحنطة في مقبرة طيبة في وادي الملوك. ثم عرضت هذه المومياوات في قاعة المومياوات الملكية في متحف القاهرة، وفقًا لما ذكره القرآن الكريم الذي أخبر أن جثة فرعون قذفتها المياه «لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً».

---

(1) الخروج 14، 28.
(2) مزمور 136، 15.
(3) يونس، 92.

3.هل تم تأليه فرعون؟

الإجابة على هذا السؤال معروفة اليوم بفضل دراسة علم الآثار المصرية: «كان الفرعون، الملك صاحب السيادة المطلقة الموروثة، يعتبر في الأصل الإله الصقر حورس وأصبح فيمابعد يماثل ري (Ré)، إله الشمس. ومهما يكن من أمر فقد كان معظما كإله»[1]. لكن الإجابة لم تكن معروفة عندما نزل القرآن. ومع ذلك فإن هذا الادعاء مذكور في كتاب المسلمين المقدس حيث ورد على لسان فرعون أنه قال: «فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى!»[2] ويمضي القرآن في سبيل إيضاح ذلك فيذكر أن فرعون موسى عليه السلام لم يكن فقط مدّعيا للربوبية بل إنه هو وشعبه، كانوا يعبدون آلهة أخرى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[3]. والحال أن رمسيس الثاني كان يعبد آلهة الإمبراطورية العظيمة: آمون (Amon) ورع (Ra) وبتاح (Ptah) وأوزوريس (Osiris).

وبدلاً من إلغاء دينهم كما فعل أخناتون (Akhenaton)، أكد لهم دورهم المحوري في الحياة الاقتصادية والروحية للبلد وأسس لنفسه دينا خاصا به. لا يمكن أن يكون ثمة ما هو أدق من الآية في وصفها للديانة المصرية في ذلك الوقت: المصريون كانوا يعبدون فرعون، بالإضافة إلى آلهة أخرى كان ملكهم يعبدها هو نفسه. والغريب حقا هو أن الكتاب المقدس والذي هو كتاب ديني من المفترض أن يحارب الوثنية، لم يلمح إلى أي من هذه الطقوس.

---

(1) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 1089-1090

(2) النازعات، 24.

(3) الأعراف، 127.

4. هل رأى موسى عليه السلام ربه؟

إليكم القصة كما جاءت في العهد القديم: «ثُمَّ صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونُ وَنَادَابُ وَابِيهُو وَسَبْعُونَ مِنْ شُيُوخ اسْرَائِيلَ وَرَاوا الَهَ اسْرَائِيلَ وَتَحْتَ رِجْلَيْهِ شِبْهُ صَنْعَةٍ مِنَ الْعَقِيقِ الازْرَقِ الشَّفَّافِ وَكَذَاتِ السَّمَاءِ فِي النَّقَاوَةِ».[1]

لا يمكن، حسب عقيدة المسلمين، رؤية الله على الأرض، وإنما يراه المؤمنون وحدهم في الجنة. وبالفعل فإن هذه الرؤية هي أعظم جزاء يحصل عليه من فازوا بدخول الفردوس. فلا موسى ولا محمد عليهما السلام ولا أي نبي آخر تمكن من رؤية الله خلال حياته على الأرض.

إليكم قصة صعود موسى عليه السلام على جبل سيناء حسب ما جاء في القرآن: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2]. العهد الجديد يؤكد الرواية القرآنية. فقد ورد في إنجيل يوحنا 1، 18 أن «اَللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ».

5. هل كان هارون هو من صنع العجل الذهبي؟

بحسب الكتب المقدسة، فإن هارون نفسه هو الذي، في غياب موسى عليه السلام، قام بصنع العجل الذهبي: « فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْبِ اقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي اذَانِهِمْ وَاتُوا بِهَا إلى هَارُونَ .فَاخَذَ ذَلِكَ مِنْ ايْدِيهِمْ وَصَوَّرَهُ

(1) الخروج 24، 9-10.
(2) الأعراف، 143.

بِالْازْمِيلِ وَصَنَعَهُ عِجْلا مَسْبُوكا»[1]. كيف يتأتى لهارون، هذا الذي يعتبره اليهود أول رئيس للكهنة في تاريخهم ويعتبره المسلمون نبيًا، أن ينتهك الوصية الثانية من الشريعة التي ذهب موسى عليه السلام لتلقيها على جبل سيناء؟ لذلك فإن القرآن يبرئ هارون ويعزو هذه الجريمة إلى شخص يسمى السامري[2].

---

(1) الخروج 32، 3-4.
(2) طه، 85.

الفصل الثالث
ماذا عن نبوءات الكتاب المقدس؟

على الرغم من أن منتقدي الإسلام يشككون في صحة بعض نبوءات القرآن أو نبي الإسلام ﷺ فهناك مسألة لا يختلف اثنان عليها وهي أن محمدا ﷺ ما أخبر بشيء إلا ووقع. فلو حصل غير ذلك، لما بقي معه أتباعه ولما تغاضى عنه معارضوه بل حذوا حذو نقاد الكتاب المقدس، من أمثال كوينين (Kuenen)، الذين جمعوا النبوءات التي وردت فيه والتي لم تتحقق. وهكذا أثبت الناقد الهولندي، من خلال دراسة التنبؤات التي جاءت في الكتب الكنسية والمتعلقة بشكل خاص بالشعوب المجاورة لإسرائيل وبمصير الشعب المختار (النبوءات المسيانية)، أن الجزء الأكبر من هذه النبوءات لم يتحقق على الإطلاق[1]. وفيما يلي بعض هذه النبوءات التي وردت في الكتاب المقدس.

1. لما قتل قَايِينُ أخاه هابيل عاقبه الله قائلا له: «تَائِها وَهَارِبا تَكُونُ فِي الارْضِ»[2]. والحال أنه بعد بضعة أسطر، نتفاجأ عندما نُخْبَرَ أنه «ابتعد عن وجه الرب، وعاش في أرض نود، شرق عدن. عرف قايين زوجته. حملت، وحملت أخنوخ. ثم بنى مدينة وأعطى تلك المدينة اسم ابنه حنوك»[3].

2. فَقَالَ الرّبُّ: «لا يَدِينُ رُوحِي فِي الانْسَانِ إلى الابَدِ. لِزَيَغَانِهِ هُوَ بَشَرٌ وَتَكُونُ ايّامُهُ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً»[4].

---

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 5, part 1, 731-732.

(2) التكوين 4، 12.

(3) التكوين 4، 16-17.

(4) التكوين 3، 6.

لم تتحقق هذه الكلمات التي قالها الرب في عهد نوح عليه السلام لأن الكثير من الناس، بحسب محرري الكتاب المقدس، عاشوا مدة أطول من ذلك بكثير، بدءًا بنوح نفسه عليه السلام الذي عاش قرابة ألف سنة:» فَكَانَتْ كُلُّ ايّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَمَاتَ»[1].

3. إليكم ما قاله الرب: «إِنِّي عِنْدَ تَمَام سَبْعِينَ سَنَةً لِبَابِلَ أَتَعَهَّدُكُمْ وَأُقِيمُ لَكُمْ كَلاَمِي الصَّالِحَ بِرَدِّكُمْ إلى هَذَا الْمَوْضِعِ».[2]

لم تتحقق نبوءة أرميا، بشأن مدة ترحيل اليهود من أورشليم إلى بابل، لأن بين احتلال نبوخذ نصر (Nabuchodonosor) للقدس عام 587 قبل الميلاد وبين مرسوم كورش عام 538 بمناسبة عودة الشعب العبري من المنفى، مرت خمسون، وليست سبعين، سنة.

4. «أَغْرِسُهُمْ فِي أَرْضِهِمْ وَلَنْ يُقْلَعُوا بَعْدُ مِنْ أَرْضِهِمِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ قَالَ الرَّبُّ إِلَهُكَ».[3]

عاموس، صاحب هذه الرؤيا التي تنبأت لليهود بأنهم لن يُطردوا أبداً من أرضهم مرة أخرى، عاش في القرن الثامن قبل الميلاد. والحال أنه، كما مر بنا قبل قليل، تم ترحيل الشعب العبري بعد ذلك بقرنين إلى بابل.

5. «وَأُصَيِّرُكِ كَضِحِّ الصَّخْرِ فَتَكُونِينَ مَبْسَطاً لِلشِّبَاكِ. لاَ تُبْنَيْنَ بَعْدُ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِصُورَ»[4].

---

(1) التكوين 9، 29.
(2) إرميا 29، 10.
(3) عاموس 9، 15.
(4) حزقيال 26، 14-15.

تفيد نبوءة حزقيالهذه أن مدينة صور لن يعاد بناؤها أبدا بعد تدميرها على أيدي قوات نبوخذ نصر. والحال أن هذه المدينة الواقعة في جنوب لبنان، تقطنها أكثر من 150.000 نسمة في عام 2020.

6. يخبر عيسى عليه السلام تلاميذه أنه يُقْتَلَ وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيّام يَقُومُ[1]. والحال أن رواية يوحنا تذكر أنه دفن ليلة الجمعة وعثر على قبره فارغًا قبل فجر الأحد التالي. لذلك لم يبق عيسى عليه السلام في الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال بل يوما واحدا وليلتين فقط.

(1) مرقس 8، 31.



الجزء الثالث
رسالة نبي



مقدمة

تتكون رسالة النبي ﷺ من كل من النص القرآني وهو كلام الله الذي جاء به الملك جبريل ومن السنة أي جميع أفعال وأقوال محمد ﷺ التي جمعها الصحابة والتي هي، بالنسبة للمسلمين، من الوحي الإلهي مع أنها ليست من القرآن الذي هو كلام الله. لذلك فإن السنة شبيهة بالكتاب المقدس، الذي يعتبره المسيحيون وحيا إلهيا. أما القرآن، كلام الله الأبدي غير المخلوق، فلا مثيل له. وحدها الوصايا العشر المنقوشة على الألواح التي أعطاها الله لموسى عليه السلام على جبل سيناء، يمكن أن تقارن به، لأنها تعتبر كلام الله شكلا ومضمونا.

إن رسالة الإسلام، بمصدريْها القرآن والسنة، متسعة جدًا بحيث لا يمكن تناولها هنا بشكل كامل، وإنما من زاويتين فقط هما: تماسكها وتأثيرها. فهي تتميز بتماسكها التام، لأنها، على عكس الكتب السماوية لدى اليهود والمسيحيين، خالية تماما من أي تناقض، ولا تعارض تلك الكتب، بل على النقيض من ذلك، تروم استعادة نقاء الديانة الإبراهيمية بكامل صفائها والرسالة الأصيلة لأنبياء التوراة والإنجيل، كما أنها لا تتعارض لا مع العلم ولا مع العقل ولا مع التاريخ. وعلى العكس من ذلك، فإن القرآن نص لا يوجد فيه أدنى تناقض. «لَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِا اخْتِلَافًا كثيرا؟»[1]

هناك خاصية أخرى للرسالة القرآنية تثبت بالبينة صدقها، ألا وهي تأثيرها الدائم على النفوس والعقول، سواء من حيث محتواها ذو الحكمة التي لا تضاهى أو شكلها ذو الجمال الفائق. وسنبين بشكل خاص ما للدين الإسلامي وللقرآن، على وجه الخصوص، من تأثير كبير على الفكر التوحيدي وعلى بعض الأشخاص مثل الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte).

(1) النساء، 82.



الفصل الأول
القرآن والسنة

1. القرآن

فترة نزول القرآن

وبما أن القرآن، كما بينا ذلك سابقا، جاء أيضا لتصحيح أخطاء الكتب المقدسة فقد نزل في وقت كانت فيه البشرية أحوج ما تكون لتلقّي كلام الله في شكله الأصلي والنقي من كل تحريف. العبرانيون رفضوا آخر نبي أرسِل إليهم وهو عيسى عليه السلام الذي جاء يدعوهم للاستعداد لإقامة ملكوت الله، وقام المسيحيون، تحت تأثير بولس وقسطنطين خاصة، بتحريف رسالة عيسى عليه السلام، كما سنبيّن في الصفحات التالية. وعليه فقد دعا الله اليهود والمسيحيين إلى اتباع النبي محمد ﷺ الذي جاء لينقل إليهم تعاليمه الحقيقية: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ ﴾[1].

في وصفه لحالة الانحطاط التي وصلت إليها الحضارات البشرية قبل ظهور الإسلام بفترة وجيزة كتب المستشرق الفرنسي جول لا بوم (Jules La Beaume) (1806–1876) ما يلي: «لفهم روح الوعظ، لا بد من معرفة حقيقة الواعظ شخصيًا، ولتقدير قيمته حق قدرها لا بد من دراسة الوضعية الإنسانية التي كان يكابد ويعالج. لقد كان العالم في القرن السادس الميلادي مليئا بالقلاقل في الفترة التي تزامنت مع ميلاد محمد»[2]. ويضيف بعد ذلك ببضعة

(1) المائدة، 19.

(2) Le Koran analysé d'après la traduction de M. Kasimirski et les observations de plusieurs autres savants orientalistes, Jules La Beaume, Maisonneuve, Paris, 1878, p. 6.

أسطر: «ومع ذلك، هناك منطقة من العالم ظلت معزولة عن هذه الحركة، ليس بسبب حكمة أهلها وإنما بسبب موقعها البعيد من الطرق التي تسلكها الأمم المتحضرة. لقد ظلت منطقة شبه الجزيرة العربية بِمَنْأىً عَن العواصف القوية العنيفة التي كانت تهز أوروبا حتى ما كادت تُسمع عواصفها إلا همسا»[1].

مكان الوحي

تحتل الجزيرة العربية، كما أوضحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، مكانة مركزية في تاريخ الخلاص. وقد أوردنا هناك هذا التعليق الذي كتبه ألكساندر ويستفال (Alexandre Westphal) في قاموسه الموسوعي للكتاب المقدس: «ربما يكون الشعب العبري قد خرج من الجزيرة العربية في وقت مشابه، تمامًا كما خرج الإسلام بعد ذلك بقرون من الصحراء. هاجر هذا الشعب إلى الشمال وأصبح جزءًا من الشعوب السامية الشمالية المتميزة عن الصابئة (Sabéens) أو الفرع الجنوبي من السامية. كان إذن للأمة العبرية أصل عربي».

ولعل هذا ما جعل نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte) لا يتردد في القول: «إن الديانات الثلاث - التي عَرَفَت بإله سرمدي، خالق، غير مخلوق وقاهر- خرجت من الجزيرة العربية. فموسى وعيسى المسيح ومحمد عرب، ولدوا في ممفيس (Memphis) والناصرة ومكة. كما أن أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا، التي تحتوي على الكثير من المساحات الفسيحة الهائلة ومن الجبال العالية والبحار الشاسعة والسهول الغنية والمدن الكبرى تناجي موسى وعيسى المسيح ومحمدا وتتدارس الكتب المقدسة، الإنجيل أو القرآن، وأعناقهم مشرئبه نحو شبه الجزيرة العربية: القدس أو الناصرة أو مكة»[2].

(1) المصدر السابق، ص 7.

(2) Guerre d’Orient, campagnes d’Egypte et de Syrie, Paris, 1847, vol. 1, p. 210.

وكما رأينا قبل قليل من خلال كلمات جول لا بوم (Jules La Beaume)، كان مركز شبه الجزيرة العربية أرضا جرداء معزولة عن العالم وعن كل تأثير خارجي ليشكل زاوية من هذا الكوكب غدت المكان المثالي لنزول الوحي. ومع ذلك كان شبه الجزيرة العربية في قلب العالم القديم وملتقى طرق القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت أي آسيا وأوروبا وإفريقيا: «يقع شبه الجزيرة العربية نوعما في وسط العالم القديم وهو يشبه قارة إفريقيا الشاسعة المجاورة له»[1].

اللغة القرآنية

اللغة العربية لغة سامية كما هو حال العبرية، لغة العهد القديم والآرامية، لغة عيسى عليه السلام والمسيحيين الأوائل وبالتالي فإن اللغة السامية هي اللغة المقدسة بامتياز. وحسب ما ذكر معجم فيجورو (Vigouroux) للكتاب المقدس فإنه لا توجد أي لغة سامية أقرب إلى العبرية من اللغة العربية: «بين العربية والعبرية، يوجد، من حيث المفردات، تشابهً لافت، من السهل أن نلاحظه عند فتح قاموس مثل قاموس المرادفات لجيسنيوس (Gesenius). ويرى بعض المؤلفين أنه يوجد ثلثا الجذور اللغوية العبرية في اللغة العربية مع نفس الحروف ونفس المعنى أو ما هو قريب منه. وعند مراعاة مقابلة الحروف في اللغتين أو تبادلها الطبيعي، متى كانت تنتمي لنفس المخرج، قد يكون من الممكن أن نكتشف، كما يقال، تسعة أعشار الجذور»[2].

(1) Porte-feuille géographique et ethnographique, Engelmann et Berger, Paris, 1820, p. 20.

(2) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 1, part 1, p. 840.

ومع ذلك فإن المؤرخ وعالم اللغة الفرنسي إرنست رينان (Ernest Renan) (1823–1892) يعترف بتفوق اللغة العربية: «تعتبر اللغة العربية من عدة أوجه خُلاصَة للغات السامية. فكأننا بجميع الموارد المعجمية والنحوية للعائلة وقد تواعدت واجتمعت لتكوين هذه المجموعة الواسعة. لا يوجد في العبرية ولا في السريانية ولا في الإثيوبية أي أسلوب لا يوجد نظيره في العربية بالطريقة نفسها، بينما تنفرد العربية بمجموعة من الآليات القَيِّمة. صحيح أن العديد من الخصائص المميزة للغة العربية توجد بطريقة بدائية في اللغات السامية الأخرى: وبالتالي فإن الأشكال الشرطية للمستقبل توجد في أصول صيغة المستقبل في الترخيم العبري أوفي تغيير أواخر الكلمات أو أواخر الحروف أو صيغ التأكيد في العبرية والآرامية ضمن أشكال نادرة وغير طبيعية؛ لكن هذه مجرد أصول لا تكاد يشار إليها، في حين أن هذه الآليات أصبحت في مقام الأسلوب المتداول في اللغة العربية بل وتشكل واحدة من أهم المجموعات النحوية التي لا تتوفر في أي لغة أخرى على الإطلاق»[1].

الرسالة القرآنية

إذا كان العهد القديم هو رواية العهد القائم بين الله وأمة هي الشعب العبري، وإذا كان العهد الجديد هو سرد لحياة رجل هو المسيح، فإن القرآن هو كتاب مكرس لتوحيد الله، الموضوع الرئيسي لآخر كتاب مُنزّل. وقد صدق جاك بيرك (Jacques Berque)، أحد مترجمي معاني القرآن حين كتب أنه: «ربما يكون من الممكن تلخيص القرآن في كلمة واحدة هي توحيد الله»[2].

---

(1) Histoire des langues sémitiques, Ernest Renan, p. 384.
(2) Relire le Coran, Jacques Berque, Albin Michel, Paris, 1993, p. 20.

ويضيف علماء الإسلام إلى ذلك موضوعيْن، كما سنرى، يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بموضوع التوحيد: هما الأحكام وقصص الأنبياء.

الموضوع الأول: توحيد الله

الله وحده يستحق العبادة، لأنه خالق الكون والمتصرف فيه وهو الذي يوزع الأرزاق على مخلوقاته. ومع ذلك يعبد الناس من دونه آلهة افتروها وهي تتخذ أشكالًا مختلفة: الأصنام والشيطان والبشر، مثل عيسى عليه السلام وحتى أهواءهم التي يتّبعونها.

وتؤكد سورة الإخلاص وتشدد على وحدانية الله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

الموضوع الثاني: الأحكام

- العبادة: يعلم القرآن للمؤمنين كيف يعبدون ربهم: يعلمهم الوضوء وطريقة أداء الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت.

- الأخلاق: لا تقتصر تعاليم القرآن على بيان ما ينبغي أن تكون عليه علاقة الناس بربهم بل يعلمهم أيضًا ما يجب أن تكون عليه علاقتهم بالآخرين ولاسيما الزوجات والآباء والأبناء والجيران والأيتام.

وهكذا تذكر الآيتان التاليتان جملة من الأحكام الدينية: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1]. والآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ

(1) النساء، 36.

﴿...بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

الموضوع الثالث: قصص الأنبياء

آدم عليه السلام هو أول الأنبياء ومحمد ﷺ هو آخرهم. وقد ذكر القرآن أعظم الأنبياء الذين ورد ذكرهم في الكتاب المقدس وهم نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم السلام. كما ذكر ثلاثة من أنبياء العرب هم: هود وصالح وشعيب عليهم السلام. وعليه، لم يكن محمد ﷺ بدعا من الرسل بل سبقه العديد من الأنبياء الذين دعوا جميعهم إلى التوحيد فرسالته ليست بالجديدة. وكما واجهه قومه بالرفض والاضطهاد فقد تعرض هؤلاء الأنبياء أيضا لكل ذلك على أيدي قومهم.

وهناك موضوع رابع يمكن أن يضاف إلى هذه الموضوعات الرئيسية الثلاثة، تناولته السور الأخيرة بكثرة ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بموضوع وحدانية الله، القادر وحده على بعث البشر بعد الموت ومحاسبتهم، ألا وهو نهاية العالم وعلاماته والبعث وأدلته العقلية والحساب الذي يليه الدخول إما في الجنة وإما في النار.

من خلال ربط هذه المواضيع الرئيسية الأربعة فيما بينها تأخذ الرسالة القرآنية الشكل التالي:

الله، المعبود وحده بحق لأنه هو خالق الكون، أرسل رسوله محمدا ﷺ، تماماً كما أرسل أنبياء آخرين من قبله، كلفهم كما كلفه بدعوة الناس إلى عبادته وحده وإلى تعليمهم كيفية العبادة وكيفية التعامل مع الآخرين. فمن كذبه فمصيره النار ومن أطاعه فمصيره الجنة.

---

(1) النحل، 90.

اعجاز القرآن الكريم

إن استحالة الإتيان بمثل القرآن الكريم، شكلا ومضمونا، هي عقيدة إسلامية معروفة. وقد كتب هنري دي كاستري (Henry de Castries) بشأن نزول القرآن ما يلي: «كيف لنا أن نعزو إلى إلهام بشري بحت لدى أمي هذه الصفحات التي يدعي الشرق كله أنها تحفة لا سبيل لمضاهاتها فكرا أو شكلا»[1]. وتعتمد هذه العقيدة بشكل خاص على بعض الآيات القرآنية التي يُتحدى فيها الكفار بالإتيان بنص يُشابه نص القرآن أو حتى بسورة واحدة منه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2]. وحتى الآن، لم يتمكن أحد من رفع هذا التحدي الموجه للناس كافة.

ويقول هنري دي كاستري بشأن استحالة الإتيان بمثل القرآن، إن هذه» تحفة لا سبيل لمضاهاتها فكرا أو شكلا»، لا تقارن بالابتذال الذي تتسم به بعض فقرات الكتاب المقدس ولا بعبثية بعض قوانينه. ويكفي مثال واحد لإثبات ذلك: «زوجة الميت لا تتزوج إلى خارج لرجل أجنبي. أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخي الزوج .البكر الذي تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من اسرائيل وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسما في اسرائيل. لم يشأ أن يقوم لي بواجب أخ الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه فإن أصر وقال لا

(1) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 38.

(2) البقرة، 23.

أرضى أن أتخذها تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه وتصرح وتقول هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه، فيدعى اسمه في اسرائيل بيت مخلوع النعل. إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضا رجل وأخوه وتقدمت امرأة أحدهما لكي تخلص رجلها من يد ضاربه ومدت يدها وأمسكت بعورته فاقطع يدها ولا تشفق عينك»[1].

ليت شعري هل من ظلم أشد؟ إذا رفض رجل الزواج من أرملة أخيه، فإنها تبصق في وجهه بعد خلع حذائه! وإذا أمسكت امرأة عورة الرجل الذي يتضارب مع زوجها تُقطع يدها دون رحمة! كيف لليهود والمسيحيين أن يعتبروا الكتاب المقدس كتاب وحي؟!

واليكم، على وجه المقارنة، فقرة من القرآن الكريم، يقول الشاعر الألماني غوته (Goethe)، الذي كان متأثرًا جدًا بالإسلام، إنها تمثل بطريقة ما، جوهر القرآن: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»[2].

المعجزة القرآنية

أعظم معجزة أعطيت لنبي الإسلام ﷺ هي القرآن الذي قال عنه: «ما مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا

(1) التثنية 25، 5-12.

(2) البقرة، 2-7.

أَوْحَاهُ اللَّهُ إلي»[1]. وتقول لورا فيكسيا فاجليري (Laura Veccia Vaglieri) إن القرآن هو في الواقع «أعظم معجزة قدمها محمد ﷺ إلى المترددين في هذا العالم» [2]. بينما يؤكد الصحفي السويسري روجر دو باسكييه (Roger du Pasquier) أن «المعجزة المركزية للإسلام كانت وما تزال هي هذا القرآن»[3].

إليكم ما يقوله ابن كثير عن المعجزة القرآنية: «بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِمُعْجِزَةٍ تُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَى زَمَانِ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، السِّحْرُ وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ. فَبَعَثَهُ اللَّهُ بِمُعْجِزَةٍ بَهَرَت الْأَبْصَارَ وَحَيَّرَتْ كُلَّ سَحَّارٍ، فَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ، وَصَارُوا مِنَ الْأَبْرَارِ. وَأَمَّا عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبُعِثَ فِي زَمَنِ الْأَطِبَّاءِ وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ، فَجَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إليه، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ الَّذِي شَرَعَ الشَّرِيعَةَ. فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّبِيبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْجَمَادِ، أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَهِ، وَالْأَبْرَصِ، وَبَعْث مَنْ هُوَ فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إلى يَوْمِ التَّنَادِ؟ وَكَذَلِكَ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي زَمَنِ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ وَنَحَارِيرِ الشُّعَرَاءِ».

2. السنة

ما هي السنة؟

تأتي السنة في المرتبة الثانية بعد القرآن وهي مصطلح للدلالة على جميع الأقوال والأفعال المنسوبة إلى النبي ﷺ والتي تم تجميعها في كتب تسمى كتب الحديث. فالحديث إذن هو قول أو فعل صدر عن النبي ﷺ وبلغه عنه أحد أصحابه. وبهذا تكون كتب الحديث، من حيث محتواها، قريبة من

(1) البخاري، 4981.

(2) Apologia dell' Islamismo, Veccia Vaglieri, A. F. Formiggini, Rome, 1925.

(3) Découverte de l'islam, Roger du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 63.

الأناجيل الأربعة التي تنقل أقوال عيسى عليه السلام وأفعاله إلا أن خطة الأناجيل تتبع مجرى حياة المسيح عليه السلام، في حين أن الأحاديث مصنفة عموما حسب المواضيع.

علم الحديث

ومع ذلك، فهناك فرق كبير يميز الأحاديث عن الأناجيل: ألا وهو «الإسناد». فإذا كانت حياة الإنجيليين الأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا، غير معروفة عندنا، أحرى من نقلوا نصوصهم إلينا، فكل حديث ينقل إلينا يُصحب بقائمة الرجال الذين رووه، بدءا بالصحابي الذي سمعه مباشرة من فم النبي ﷺ وحتى المحدث الذي صنفه في مصنفه. ومتى ما فُقد واحد من السند أو كان أحد الرواة قد تعرض للقدح من حيث الاستقامة أو الضبط فإن الحديث يرفض ولا يقبل.

كلمات ذات حكمة نبوية

هيا بنا نورد بعض الكلام الذي جاء على لسان النبي ﷺ حتى يرى القارئ الفرق الواضح بينه وبين كلام الله الوارد في القرآن والذي ذكرنا بعضا من آياته:

- الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره.
- الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدا رَسُول اللَّهِ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا.
- فمَن أحَب أن يُزحزَح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه.

- لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا.
- لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.
- اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.
- مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى.
- لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق.
- إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد.
- من لا يَرحم لا يُرحم.
- الظلم ظلمات يوم القيامة.
- لا تَحاسدُوا، وَلا تناجشُوا، وَلا تَباغَضُوا، وَلا تَدابرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّه إِخْوانًا.
- يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا.
- مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ.
- إذا مات الميت يتبعه ثلاث: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان: المال والأهل، ويبقى واحد: وهو العمل.
- إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

- ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْل ما يجعل أحدكم أُصْبُعَهُ في اليَمِّ، فلينظر بِمَ يَرْجع.
- الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.
- انْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.
- ما ءامن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه.
- مَا نَقَصَ مَالُ عَبدٍ مِن صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا.
- أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم.
- إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطِي على الرِّفق ما لا يُعطي عَلى العُنفِ، وَما لا يُعْطِي عَلى مَا سِوَاهُ.
- جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.
- ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا.
- جاء رجل للنبي - ﷺ - فقال: أجاهد، قال: لك أبوان؟ قال: نعم قال: ففيهما فجاهد.
- العاقل من حاسب نفسه.
- حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره.
- ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس.
- ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

الفصل الثاني
غياب الاختلاف

يقول الله تعلى واضعا معيار يساعد على الحكم بصحة الكلام الذي ينسبه الناس إليه: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا؟»[1] في هذا الفصل، سنثبت أن القرآن، على عكس الكتاب المقدس لدى اليهود والمسيحيين، ليس فيه أي اختلاف. بل وأكثر من ذلك، فإنه لا يتعارض مع الرسالة الأصلية للكتاب المقدس ولا مع التاريخ ولا مع العلم ولا حتى مع العقل.

1. لا يوجد اختلاف بين الآيات القرآنية

إن إثبات خلو القرآن من أي نوع من الاختلاف والتناقض ليس بالأمر الصعب، إذ لو كان الأمر كذلك، لجاء المستشرقون ـ الذين ما درس بعضهم الإسلام وكتاب المسلمين المقدس إلا لانتقاده وتصيَّد ما قد يحتويه من تناقضات ـ بسردٍ لتلك الاختلافات لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها سيما وأن الله تحدى الجميع بالكشف عن أدنى تناقض في كتابه. إن خلو القرآن من التناقضات يعد معجزة خارقة خاصة وأن فترة نزوله امتدت على ثلاثة وعشرين عامًا.

ومن جانبنا سنأتي على ذكر بعض التناقضات الموجودة في الكتاب المقدس والتي ظلت دون حل على عكس تلك التي ينسبها بعض الجهلة إلى القرآن الكريم.

(1) النساء، 82.

1. تتناقض شجرة نسب عيسى عليه السلام التي أوردها متى (1، 1–17) مع تلك التي جاء بها لوقا (3، 23–38). ولا يتطلب الأمر جهدا كبيرا للوقوف على الاختلاف الأول بين النسبين: فعند متى، يُدعى والد يوسف النجار، زوج مريم، يعقوب بينما يسميه لوقا هيلي! وهناك تناقض آخر: فبينما عند متى، هناك 27 جيلا بين عيسى وداود عليهما السلام فعند لوقا يبلغ عددها 41. ولعل التضارب الأشنع الذي ورد في نسب عيسى عليه السلام هو ذكر يوسف النجار الذي ليس هو، حسب المسيحيين والمسلمين، والد عيسى عليه السلام فكلاهما يعتبر ولادته معجزة إلهية. لقد سعى مؤلفو الأناجيل إلى تحقيق هدف محدد تماما من خلال ذكر يوسف ضمن نسب عيسى عليه السلام مع أنه لم يكن أباه البيولوجي: فهم إنما يريدون إثبات أن عسى عليه السلام هو المسيح المنحدر من نسل داود عليه السلام الذي ينتظره اليهود[1]، المسيح الذي قال عنه الملك مخاطبًا مريم: «هذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَابْنَ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الإِلهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ»[2]. وهذا هو أيضًا السبب وراء قيام مرقس بحذف يَهُويَاقِيمَ طواعية من نسب عيسى مدعيا أن: «يوشيا ولدت جيخونيا»، إذ جيخونيا هو الحفيد، وليس ابن يوشيا، كما ورد في سفر أخبار الأيام الأول 3، 15–16. وسبب هذا الاختصار هو هذه الكلمات التي تفوه بها إرميا: «لِذلِكَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَنْ يَهُويَاقِيمَ مَلِكِ يَهُوذَا: لاَ يَكُونُ لَهُ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ دَاوُدَ»[3].

(1) إرميا 33، 14–17.
(2) لوقا 1، 32.
(3) إرميا 36، 30.

2. يتناقض متى عند حديثة عن بُطْرُس في نفس الصفحة. كما في هذه الفقرة الأولى: «فَأَجَابَ عيسى وَقَالَ لَهُ: طُوبَى لَكَ يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لكِنَّ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَات وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا: أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا .وَأُعْطِيكَ مَفَاتِيحَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، فَكُلُّ مَا تَرْبِطُهُ عَلَى الأَرْضِ يَكُونُ مَرْبُوطًا فِي السَّمَاوَاتِ»[1]، فهذا يناقض بوضوح هذا الفصل الآخر الذي يأتي بعده ببضع سطور: «فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطْرُسَ: اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! أَنْتَ مَعْثَرَةٌ لِي، لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا للهِ لكِنْ بِمَا لِلنَّاس»[2].

3. هذه الفقرة من سفر الملوك الثاني 24، 8والتي تشير إلى أن «يَهُويَاكِينُ كان ابْنَ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ»، تعارض بوضوح سفر أخبار الأيام الثاني 36، 9الذي يدعي أن «يَهُويَاكِينُ كان في الثامنة من عمره عندما أصبح ملكًا». ويظهر بشكل واضح أن مترجمي الكتاب المقدس للقدس لم يقتنعوا بما يعتبرونه وحيا وبالتالي عمدوا إلى استبدال «ثماني سنوات» بـ «ثمانية عشر عامًا في الفقرة الثانية».

4. بالنسبة للفقرة: «ولم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها»[3] فإنها تتعارض تعارضا واضحا مع الفقرة الموجودة في نفس كتاب العهد القديم: «فَأَخَذَ الْمَلِكُ ابْنَيْ رِصْفَةَ ابْنَةِ أَيَّةَ اللَّذَيْنِ وَلَدَتْهُمَا لِشَاوُلَ: أَرْمُونِيَ وَمَفِيبُوشَثَ، وَبَنِي مِيكَالَ ابْنَةِ شَاوُلَ الْخَمْسَةَ الَّذِينَ وَلَدَتْهُمْ لِعَدْرِئِيلَ»[4].

(1) متى 16، 17–19.
(2) متى 16، 23.
(3) صموئيل الثاني 23، 6.
(4) صموئيل الثاني 21، 8.

ورغبة منهما في إخفاء هذا التناقض الواضح، عمد الكتاب المقدس للويس سيغوند (Louis Segond) والكتاب المقدس للقدس، في الفقرة الثانية، إلى استبدال اسم ميكال باسم ميراب، أختها الكبرى! ولم تُكتشف هذه الخدعة إلا بعد ظهور ترجمة أندريه شوراكي (André Chouraqui) التي اعتمد فيها على النصوص العبرية.

5. ثمة تناقض آخر يمكن ملاحظته في العهد القديم، في هذه الفقرة من سفر صموئيل الأول 17، 50 والذي ذكر فيه أن داود عليه السلام هو الذي قتل جالوت: «فَتَمَكَّنَ دَاوُدُ مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّ بِالْمِقْلاَعِ وَالْحَجَرِ، وَضَرَبَ الْفِلِسْطِينِيَّ وَقَتَلَهُ. وَلَمْ يَكُنْ سَيْفٌ بِيَدِ دَاوُد». وهو ما يتناقض تناقضا صارخا مع هذه الرواية الأخرى التي تذكر أن جالوت قُتِل على يد أَلْحَانَانُ: «ثُمَّ كَانَتْ أَيْضًا حَرْبٌ فِي جُوبَ مَعَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. فَأَلْحَانَانُ بْنُ يَعْرِي أُرَجِيمَ الْبَيْتَلَحْمِيُّ قَتَلَ جِلْيَاتَ»[1].

6. وهناك تناقض آخر هذه المرة بين العهد الجديد والعهد القديم في هذه الكلمات التي ينسبها يوحنا 3، 13 إلى عيسى: «وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» وهو مناقض تماما لما ورد في سفر التكوين 5، 24 حيث علمنا أن «أَخْنُوخُ سَارَ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ» بل ومع سفر الملوك الثاني 2، 1 حيث ورد ما يلي: «وكان عند إصعاد الرب إيليا في العاصفة إلى السماء».

التناقضات الموجودة في الكتاب المقدس أكثر من أن تحصى. ولنا أن نلاحظ مدى استحالة التوفيق بين هذه النصوص على عكس حال نصوص القرآن التي يسعى البعض عبثًا إلى إبراز اختلاف بينها.

---

(1) صموئيل الثاني 21، 19.

يقول شارل جينيبير (Guignebert Charles)، صاحب كرسي المسيحية في جامعة السوربون في الفترة ما بين 1919 و1937، بشأن هذا الموضوع: «التناقضات بين السينوبتيكات (synoptiques) الثلاث متكررة جدًا وبالغة الخطورة. كما أن القول بأنها لا تتناول إلا الجزئيات وأن الإنجيليين يتفقون على الأساسيات إنما هو مزحة. وخلاصة القول أنهم يستلهمون من مصدر مشترك وأن شهاداتهم الثلاث ليست سوى واحدة؛ ثم إن الحرية التي يستغل بها كل واحد منهم الأرضية المشتركة لا تبعث بتاتا إلى الاطمئنان متى تعلق الأمر بثبات التقاليد وصلابتها. وتكشف دراسة متأنية للنصوص السينوبتيكية عن عمل أسطوري يقوم به كل إنجيلي بطريقته الخاصة»[1].

2. الإسلام لا يتعارض مع العديد من نصوص كتب اليهود والنصارى

أولاً: العقيدة

- توحيد أم ثالوث؟

يتوافق المعتقد الإسلامي حول الله تعالى تمامًا مع معتقد اليهود: فالله واحد ولا أحد سواه يستحق العبادة. لا شيء أقرب من عقيدة المسلمين - «لا إله إلا الله» - إلى كلمة العقيدة المستخدمة في العهد القديم: «اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا هو الرب الوحيد». وردا على سؤال أحد كتاب الكتب المقدسة عن أول الوصايا كلها، أجاب عيسى عليه السلام نفسه، «اسمع يا اسرائيل. الرب الهنا رب واحد»[2]. ومع ذلك فإن المسيحية، التي تدعي أنها تابعة لعيسى عليه السلام، تقوم على عقيدة الثالوث.

(1) Jésus, Charles Guignebert, Renaissance du Livre, Paris, 1933, p. 502

(2) مرقس 12، 29.

وبناء عليه فإن النبي محمد ﷺ جاء لإحياء التوحيد الإبراهيمي وصقله من كل ما شابه وما ناله إثر عقيدة الثالوث. وإليكم ما كتبه حول هذا الموضوع جول لا بوم (Jules La Beaume): «لم تخامر محمدا للحظة واحدة فكرة ابتكار إله جديد أو إقامة دين جديد. ولم يدع، بصفته ساميا أولاً، إلا إلى إحياء التوحيد السامي القديم واستعادة ملة إبراهيم، وهذا يعني ملة موسى دون جسدها الكهنوتي ودار جنائز معبد القدس»[1].

كتبت المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاجليري (Laura Veccia Vaglieri) في كتابها «الدفاع عن الإسلام»: أنه «بفضل الإسلام، تم صد الوثنية بكل أشكالها كما تمت تنقية مفاهيم الكون والممارسات الدينية والعادات تنقية تامة من الخرافات التي شوهتها، وتم تحرير الروح البشرية من الأحكام المسبقة واستعاد الإنسان كرامته وأصبح متواضعا وخاضعا للخالق وسيد البشرية جمعاء»[2].

كما جاء النبي ﷺ أيضا للقضاء على كل وسيط بين الإنسان وربه. فالوسطاء ينتشرون في الديانة المسيحية من خلال المسيح الذي يعبده المسيحيون بل ويعبدونه أكثر بكثير من ربهم الحقيقي ومن خلال رجال الدين في الكنيسة الذين أعطوا لأنفسهم، على سبيل المثال، الحق في غفران الذنوب. أما الإسلام فليس لديه رجال دين.

(1) Le Koran analysé d'après la traduction de M. Kasimirski et les observations de plusieurs autres savants orientalistes, Jules La Beaume, Maisonneuve, Paris, 1878, p. 8.

(2) Apologia dell' Islamismo, Veccia Vaglieri, A. F. Formiggini, Rome, 1925.

وحول هذا الموضوع كتبت لورا فيشيا فاجليري أن: «الروح تحررت من الأفكار المسبقة ومن العواطف وتحررت إرادة الانسان من السلاسل التي كانت تكبلها وتبقيها أسيرة للآخرين وللقوى المستترة المزعومة. فالقساوسة والحراس الزائفون للأسرار الغامضة وسماسرة الخلاص وجميع الذين يدعون أنهم وسطاء بين الله والإنسان والذين بالتالي يعتقدون أنهم قادرون على التحكم في إرادة الآخرين، كل ولى إلى غير رجعة. أصبح الانسان عبدا لله وحده. أما تجاه الآخرين فقد أصبح يتعامل معهم معاملة الند للند. وفي حين أن الأفراد كانوا يعانون من ظلم الطبقة الاجتماعية، نادى الإسلام بالمساواة بين البشر. فالمسلم لا يتميز عن غيره من المسلمين بسبب نسبه أو أي عامل آخر مستقل عن شخصيته، إنما بالتقوى والعمل الصالح والأخلاق والمعرفة»[1].

إذا كان عيسى عليه السلام، شأنه شأن جميع أنبياء الكتب المقدسة، قد جاء لتعليم عقيدة التوحيد، فمن أين أتت عقيدة الثالوث يا ترى - العقيدة المسيحية للإله الواحد في ثلاثة أشخاص يشتركون في نفس الطبيعة - التي تعارض ذلك بوضوح؟ وهل ورد مصطلح الثالوث في الكتاب المقدس؟ الإجابة عن ذلك التساؤل جاءت على لسان أندريه ماري جيرار (André-Marie Gérard) في قاموسه للكتاب المقدس: «قد يبدو من الغريب إدراج هذه الكلمة في قاموس الكتاب المقدس وهي الكلمة التي لا توجد في أي نص من الكتب المقدسة. ويشير القاموس اللاتيني الفرنسي للمؤلفين المسحيين لصاحبه البيير ابليز (Albert Blaise) إلى أن أول من استخدم هذه الكلمة هو القديس تيوفيل انطاكية (Théophile d'Antioche) (حوالي

(1) المرجع نفسه.

180)، بالشكل اليوناني Trias، طبعا»[1]. ويتابع المؤلف بعد ذلك بقليل قائلا: «بالإضافة إلى ذلك، هناك مسألة ظل عيسى عليه السلام يؤكدها بل ويذكر بها هو نفسه ألا وهي توحيد الله، في مقابل الشرك الذي ما فتئ يراود الشعب المختار». وأكمل قائلا بكل جدية أنه «لو لم يكن الله واحدًا أحدا، لما كان هناك لغز للثالوث».

وكتب توم هاربور (Tom Harpur) عن هذا الموضوع في كتابه «لأجل المسيح» (For Christ's Sake): «لا يوجد ذكر لعقيدة الثالوث في الكتاب المقدس. وإذا كانت لدى القديس بولس رؤية واسعة لدور عيسى وشخصه، فإنه لم يؤكد يوما أن عيسى هو الله. كما أن عيسى لم يدَّع أبدا أنه كان الشخص الثاني في الثالوث وأنه يتبوأ نفس المكانة مع الله. وبصفته يهوديًا متدينًا، فالأحرى به والأولى أن ينكر هذا النوع من التفكير»[2].

إليكم، علاوة على ذلك، ما جاء في المقال الذي تناول «الثالوث» في الموسوعة البريطانية: «لا مصطلح الثالوث ولا هذا المفهوم موجودان في العهد الجديد. ويضاف إلى ذلك، أن المسيح وتلاميذه لم يناقضوا أبدًا كلمة العقيدة المستخدمة في العهد القديم: «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ»(التثنية 6، 4). الحقيقة أن عقيدة الثالوث تكونت على مدى عدة قرون، مما تسبب في الكثير من الجدل. فلم يسبق قبل مجلس نيقيا (Nicée) (325) أن ذكر أن للابن نفس طبيعة الاب. أما بالنسبة للروح القدس، فقد وردت إشارة عابرة بشأنها. فعقيدة الثالوث لم تتأسس إلا في نهاية القرن الرابع»[3].

(1) Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 1349-1350.
(2) For Christ's Sake, Tom Harpur, Beacon Press, Boston, 1987, p. 11.
(3) Encyclopædia Britannica, vol. 11, p. 928.

- ابن الله أم نبي؟

من بين المسائل التي تتصدر الخلاف بين المسيحية والإسلام وضعية عيسى عليه السلام الذي يرى المسيحيون أنه ابن الله والشخص الثاني في الثالوث بينما يرى المسلمون أنه نبي إلى بني إسرائيل. والحال أن العقيدة المسيحية للطبيعة الإلهية للسيد المسيح لا تستند إلى أي قول ورد عن عيسى عليه السلام حيث ما جاء عنه، على العكس، إلا أنه نبي ومجرد إنسان، على الرغم من قوة علاقته بربه. وإليكم بعض أقواله التي تتناقض بوضوح مع عقيدة الأبوة الإلهية لعيسى:

1. لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ[1].
2. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ[2].
3. وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَعيسى الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ[3].
4. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ، وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ.[4]
5. إِنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ مَقْبُولاً فِي وَطَنِهِ.[5]

---

(1) مرقس 10، 18.
(2) يوحنا 20، 17.
(3) يوحنا 17، 3.
(4) يوحنا 13، 16.
(5) لوقا 4، 24.

وإذا كانت عبارة «ابن الله» قد استخدمت ثلاث عشرة مرة في العهد الجديد للإشارة إلى عيسى عليه السلام فإنه هو نفسه لم يتلفظ بها أبدا إنما وردت على ألسنة تلاميذه. يضاف إلى ذلك أن لقب ابن الله أطلق على شخصيات الكتاب المقدس الأخرى: آدم (لوقا 3، 38) وداود (مزامير 2، 7) وسليمان (أخبار الأيام الأول 22، 10)، كما أنه أيضًا أطلق على الملائكة المقربين (أيوب 1، 6) وحتى شعب إسرائيل نفسه كان يسمى بـ«بكر» الله (الخروج 4، 22). كل هذا يؤكد أن تعبير «ابن الله» يعني في الواقع «صفي الله» أو «حبيب الله». وهكذا جاء في العهد الجديد ما نصه: «انْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ!»[1] ويطبق عيسى عليه السلام نفسه هذه الصيغة على تلاميذه: «طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون!»[2]

تعطي العبرية، كما هو حال جميع اللغات السامية، لمصطلح «الابن» معاني متعددة مشتقة من المعنى الأول. إليكم ما كتبه أندريه ماري جيرار (André-Marie Gérard) حول هذا الموضوع: «فبالنسبة للمؤلفين الملهمين، لا شك أن جميع الناس هم «أبناء» خالقهم بطريقة ما، ولكن المقربين من الله من خلال وظيفتهم أو مقامهم أو من خلال إيمانهم أو إخلاصهم، يبدون جديرين أكثر من غيرهم بأن يُدعوا ابناء الله»[3].

وحول هذا الموضوع كتب شارل غينبير (Charles Guignebert)، الذي يعتبر عيسى عليه السلام من سلالة أنبياء إسرائيل ما يلي: «لم يدَّع عيسى يوما أنه إله. فعبارة ابن الله، بالمعنى الدقيق والأرثوذكسي

---

(1) يوحنا 3، 11.

(2) متى 5، 9.

(3) Le Dictionnaire de la Bible, André-Marie Gérard, p. 402.

للكلمة، تعني شيئا فظيعا لا يمكن لليهودي تصوره. ولا مراء في أن فكر عيسى فكر يهودي. وعلاوة على ذلك، فإن اليهود لم يتهموه، لا أثناء محاكمته ولا في الأزمنة الرسولية، بأنه ادَّعى الربوبية. وتلك لعمري حجة بالغة»[1].

وها هو بارت إيرمان (Bart Ehrman) يلخص الرأي السائد اليوم بين علماء الكتاب المقدس حول طبيعة عيسى عليه السلام قائلا: «منذ أكثر من قرن الآن، منذ نشر التحفة التاريخية لألبرت شويتزر (Albert Schweitzer)، البحث عن عيسى التاريخي، فإن غالبية العلماء في أوروبا وأمريكا الشمالية يعتبرون عيسى نبيًّ يهودي لآخر الزمان»[2].

يتحدث اللاهوتي البريطاني جون هيك (John Hick) (1922–2012) عن إجماع حول هذا الموضوع: «هناك نقطة أخرى حظيت بإجماع واسع بين دارسي العهد الجديد وكان لها عميق الأثر في فهم تطور الكرستولوجيا: فعيسى التاريخي لم يدَّع يوما الألوهية التي نسبها له المسيحيون لاحقًا. ولم يخطر بباله يوما أنه تجسيد لله أو ابن له»[3].

يقول شارل غينبير (Charles Guignebert) إن عقائد المسيحية التي تتعارض بشكل أساسي مع الإسلام، لا يمكن أن تُنسب إلى عيسى: «لذلك فإن الأناجيل السينوبتيكية لا تتضمن في حقيقة الأمر ما يعبر عن العقائد

(1) Manuel d'histoire ancienne du christianisme : les origines, Charles Guignebert, Alphonse Picard et Fils, Paris, 1906, p. 222.
(2) Jesus, Interrupted, Revealing the Hidden Contradictions in the Bible, Bart Ehrman, Harper Collins, 2009, p. 156.
(3) The Metaphor of God Incarnate: Christology in a pluralistic age, John Hick, Westminster John Knox Press, 1993, p. 27.

الأساسية الثلاث للأرثوذكسية التي هي التجسيد وألوهية المسيح والخلاص. ومن المستحيل تاريخيا القول بأنها كانت في ذهن عيسى؛ بل يمكن، على العكس من ذلك، الجزم بأنها لم تخطر بباله»[1]. وفي معرض شرحه للأسباب التي دفعت المسيحيين إلى تعديل رسالة عيسى عليه السلام الأصلية، والتي كانت متفقة تماما مع العقيدة الإسلامية، أشار شارل غينبير إلى أن «عيسى – كما قلنا مرارا وتكرارا – لم يرُم تأسيس دين وإنما نفث روحا جديدا مفعما بالحيوية في اليهودية بعدما جففتها الشكليات الفريسية [...] لماذا إذن آل أمر هذه العقيدة البسيطة والواضحة إلى تعقيد في العقائد وإلى ظلام في الاسرار التي هي اليوم جوهر الأرثوذكسية؟ ولماذا تشكلت الكنيسة، وغدت مطلقة في سلطتها، قاسية في المناقشة ومتردية في الفردانية التي بدا أن عيسى سعى إلى تطويرها قبل كل شيء؟ فذلك لأن الملكوت المنتظر لم يأت، وتفاديا للاستسلام لليأس متى خطر بالبال أن السيد قد أخطأ، كان من الضروري تفسير كلماته، وتعميقها وتطويرها أبعد مما هو مفهوم»[2]. وكما أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب، فإن المسلمين من جهتهم يعتقدون أن ملكوت الله جاء بمجيء الإسلام.

ثانيا: العبادة

سنبين في هذا الفصل أن ممارسات الشعائر في الإسلام لا تختلف عن ممارسات أنبياء الكتاب المقدس والمسيحيين الأوائل.

---

(1) Manuel d'histoire ancienne du christianisme : les origines, Charles Guignebert, Alphonse Picard et Fils, Paris, 1906, p. 224.

(2) المرجع نفسه، ص 239-240.

- **الطهارة**

يؤدي المسلمون اليوم شعيرة الوضوء خاصة قبل كل صلاة. وهذه الشعيرة موجودة في الديانة اليهودية، كما يوضح قاموس الكتاب المقدس فيجورو (Dictionnaire de la Bible Vigouroux): «كان على الكهنة واللاويين، المكلفين بتطهير الناس، أن يبدؤا بتطهير أنفسهم، متى كان ذلك ضروريًا، قبل القيام بأية وظيفة من وظائفهم. وكان بنو إسرائيل أيضًا يتطهرون عند أداء بعض الواجبات الدينية تقربا من الرب»[1].

- **السجود**

المسلمون هم اليوم الموحدون الوحيدون الذين يسجدون أمام ربهم. لكن الكتاب المقدس يعلمنا أن الأنبياء كلهم كانوا يسجدون:

1. إبراهيم عليه السلام: «فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ»[2].
2. موسى وهرون عليهما السلام: «فَأَتَى مُوسَى وَهَارُونُ مِنْ أَمَامِ الْجَمَاعَةِ إِلَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَسَقَطَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا، فَتَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ»[3].
3. عيسى عليه السلام: «ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ»[4]. لا تتماشى هذه القصة مع العقيدة المسيحية القائلة بألوهية عيسى عليه السلام.

(1) Dictionnaire de la Bible Vigouroux, vol. 5, part 1, p. 879.

(2) التكوين 17، 3

(3) العدد 20، 6.

(4) متى 26، 39.

4. شعب إسرائيل: «وَبَارَكَ عَزْرَا الرَّبَّ الإِلهَ الْعَظِيمَ. وَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ، آمِينَ! رَافِعِينَ أَيْدِيَهُمْ، وَخَرُّوا وَسَجَدُوا لِلرَّبِّ عَلَى وُجُوهِهِمْ إلى الأَرْضِ»[1].

ليس هناك ما يشبه هذه الصلاة إلا صلاة المسلمين الذين هم اليوم الوحيدون الذين يرفعون أيديهم إلى السماء داعين ربهم والذين يركعون ويسجدون في الصلاة.

- الزكاة

الزكاة في الإسلام عبارة عن الصدقات الشرعية التي تؤخذ من الأموال الشخصية ومن منتجات الأرض ومن الماشية والسلع. وسيتفاجأ القارئ عندما يعلم أن اليهودية والمسيحية تفرضان أيضًا زكاة شرعية على القطعان والمحاصيل (العشور). لكن ثمة فرقان كبيران يميزان الزكاة عن العشور: أما الأول فهو أن المسلم يدفع هذه الضريبة الشرعية للفقراء والمحتاجين على وجه الخصوص، بينما يعطيها اليهود للاويين والمسيحيون للكنيسة: «يفرض العهد القديم على اليهود تسليم جزء معين من دخلهم(العشر) إلى اللاويين. وقد استمر العمل على هذه الطريقة دون أي صعوبة في الشرق بموجب القانون الجديد، وظل الناس في الغرب في بداية الأمر يعتبرونها ممارسة حميدة إلى غاية نهاية القرن السادس عندما سعت المجالس إلى فرضها واتخاذ عقوبات تأديبية بحق المتلكئين عنها. وفي عهد بيبان لو بريف (Pépin le Bref)، عمدت السلطة المدنية إلى إجبار الناس بالقوة على أدائها، طمعا في تخفيف الوضع المتردي للكنيسة الفرنجية الذي تسبب

(1) نحميا 8، 6 .

فيه لو بريف بنفسه. ومن وقتها أصبحت العشور عادة متعارف عليها بين الناس. فهي، من حيث المبدأ، وكما يشير اسمها إلى ذلك (decima pars)، عُشر الدخل وتدفع لكاهن الرعية»[1].

والأمر الثاني هو أن العشر قد انتهى به العمل تمامًا، على الرغم من جهود الكنيسة لفرضه، بينما يواصل الكثير من المسلمين أداء الزكاة، التي هي الركن الثالث في الإسلام. ولعل مما تنبغي الإشارة إليه أن العشور هي واحدة من الأحكام القليلة للقانون، إن لم نقل الوحيدة، التي استحسنت الكنيسة بقاءها وفرضها على المؤمن، وهي التي ادعت، بعد بولس، أن القانون يجب إلغاؤه.

- الصوم

صيام شهر رمضان هو الركن الرابع في الإسلام وتصومه الغالبية العظمى من المسلمين، سواء كانوا ممارسين للشعائر أو مؤمنين فقط. والصوم يوجد في العهد القديم، كما في سفر صموئيل الثاني 1، 12: «لقد كانوا في حداد، وكانوا يبكون ويصومون حتى المساء» أو في سفر صموئيل الثاني 12، 16: «فَسَأَلَ دَاوُدُ اللهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا»، ولكن أيضا في العهد الجديد: «فَصَامُوا حِينَئِذٍ وَصَلُّوا وَوَضَعُوا عَلَيْهِمَا الأَيَادِيَ، ثُمَّ أَطْلَقُوهُمَا»[2].

كان الصيام في أيام عيسى عليه السلام منتشرا انتشارا واسعا حتى كان الفريسيون والكتبة يوبخون تلاميذه على عدم المواظبة على الصيام: «وَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا يَصُومُ تَلاَمِيذُ يُوحَنَّا كَثِيرًا وَيُقَدِّمُونَ طِلْبَاتٍ، وَكَذلِكَ تَلاَمِيذُ

(1) Précis d'histoire du droit français, François Olivier-Martin, Dalloz, Paris, 1953, p. 69.

(2) اعمال 13، 3.

الْفَرِّيسِيِّينَ أَيْضًا، وَأَمَّا تَلاَمِيذُكَ فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَتَقْدِرُونَ أَنْ تَجْعَلُوا بَنِي الْعُرْسِ يَصُومُونَ مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ وَلكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ»[1].

- الحج

كان لزاما على الإسرائيليين أن يحجوا إلى القدس في الأعياد الثلاثة الرئيسية التي هي عيد الفصح وعيد العنصرة وعيد المعبد[2]. وذهب عيسى عليه السلام وتلاميذه في هذه المناسبة إلى أورشليم. أما اليوم وبعد تدمير الهيكل الثاني عام 70 م، أصبح المسلمون هم الوحيدون الذين يؤدون الحج، الركن الخامس في الإسلام حيث يذهبون الى بيت الله الحرام في مكة التي هي، كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الأول، القدس الجديدة التي ذكرها الأنبياء.

- الحجاب

حجاب المسلمين الذي يتعرض اليوم لانتقاد شديد كانت ترتديه اليهوديات والمسيحيات.

في العهد القديم، نرى ريبيكا تتغطى عند اقتراب خطيبها، إسحاق: «قالت: مَنْ هذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟ فَقَالَ الْعَبْدُ: هُوَ سَيِّدِي. فَأَخَذَتِ الْبُرْقُعَ وَتَغَطَّتْ»[3]. وفي هذا المضمار يؤكد أودون فإليه (Odon Vallet)، مؤرخ الأديان إن «التوراة لا تلزم شرعا ارتداء الحجاب ولكنه من الواضح أن النساء في العصور التوراتية كن يرتدينه. فالفتاة المخطوبة

(1) لوقا 5، 33-35.
(2) الخروج 23، 17.
(3) التكوين 24، 65.

والمحجبة لا تخلع حجابها إلا في بيت الزوجية لدرجة أن العريس لا يعرف من التي تزوج، كما يتضح من حادثة يعقوب الذي كان يظن أنه يتزوج من راشيل فإذا به، يجد نفسه متزوجًا من ليا (التكوين 29، 26)»[1].

وقد ورد في العهد الجديد ما يلي: «إِذِ الْمَرْأَةُ، إِنْ كَانَتْ لاَ تَتَغَطَّى، فَلْيُقَصَّ شَعَرُهَا. وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا بِالْمَرْأَةِ أَنْ تُقَصَّ أَوْ تُحْلَقَ، فَلْتَتَغَطَّ»[2].

يضاف إلى ذلك أن القديسة مريم تظهر محجبة في جميع صورها كما أن عيسى عليه السلام يعفي لحيته في جميع التماثيل المعروفة له. إنها حقائق ينبغي أن تثير تساؤلات في أذهان أولئك الذين يعبدون عيسى عليه السلام باعتباره ابن الله ومريم باعتبارها أم الله. ألا نتذكر أننا كنا في الماضي القريب نشاهد الراهبات يتجولن في شوارعنا وهن يرتدين الحجاب دون أن يصدم ذلك أحدا. وحتى في وقت قريب، كانت النساء تذهب إلى الكنيسة وهن محجبات. وبالفعل فإن مدونة قانون الشريعة الكاثوليكية لعام 1917 كانت تفرض الفصل بين النساء والرجال في الكنائس وارتداء الحجاب في بيوت الله[3].

ألا يحق لنا بعد كل هذا أن نتساءل عن أسباب هذه الكراهية الشديدة التي يثيرها الحجاب اليوم، في فرنسا أساسا، من جانب المدافعات عن حقوق المرأة على وجه الخصوص اللائي يعتبرن الحجاب علامة على خضوع النساء للرجال. ولعل الجواب على ذلك هو ما قاله بولس: «فَإِنَّ

---

(1) جريدة 11/ 12/ 2003 (La Croix).

(2) كورنثوس 11، 6 .

(3) Le voile des femmes. Un inventaire historique, social et psychologique, Rosine Lambin, P. Lang, 1999, p. 113.

الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ .لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ .وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ .لِهذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا، مِنْ أَجْلِ الْمَلاَئِكَةِ»[1].

وعليه فإنه من واجب المرأة، كما يقول بولس، تغطية رأسها خضوعا للرجل. ومن الواضح أنه لا شيء في الإسلام يفرض الحجاب على المرأة، خضوعا للرجل ولكن لله تعالى الذي أمر بذلك رسوله ﷺ في القرآن قائلا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ ﴾[2]. وتشرح الآية القرآنية هذا الأمر بالحاجة إلى الحماية من الجرائم التي قد تتعرض لها النساء خارج بيوتهن وضرورة التميُز عن الأخريات. وفي هذا الإطار يقول أودون فالي (Odon Vallet)، إن المسيحيات الأوائل كن يرتدين الحجاب للسبب نفسه: «كانت عذارى الكنيسة القديمة محجبات. لا شك أن هذا هو أصل حجاب الراهبات، باعتباره علامة مميزة عن النساء الأخريات»[3].

ثالثا: الأخلاق

تمثل الوصايا العشر أساس الديانتين اليهودية والمسيحية، على الرغم من عدم المبالغة في أهميتها عند المسيحيين ولاسيما الكاثوليك منهم نتيجة العقائد التي اخترعتها الكنيسة. وتنقسم الوصايا العشر إلى قسمين، الأول يتعلق بالعلاقة مع الله، والثاني بالعلاقة مع الناس. أول الوصايا: «لاَ يَكُنْ

(1) كورنثوس 11، 7-101.
(2) الأحزاب ، 59.
(3) جريدة 11/ 12/ 2003 (La Croix).

لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي»، فهي كما رأينا، في صميم العقيدة الإسلامية: «لا إله إلا الله»، ورسالة عيسى عليه السلام: «اِسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ». أما بقية الوصايا فهي كما يلي:

- أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ.
- لَا تَقْتُلْ.
- لا ترتكب الزنا.
- لا تَسْرِقْ.
- لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ
- لا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ

تتضمن الآيات القرآنية التالية هذه الوصايا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

الوصية الأخيرة التي تحذر من الاشتهاء موجودة أيضاً في القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2].

(1) الأنعام، 151-152.
(2) النساء، 32.

اذا فيما يتعلق بطبيعة الخالق وأنبيائه، وكيفية عبادته أو التصرف مع مخلوقاته، فقد حمل رسل الله نفس الرسالة.

3. القرآن لا يتعارض مع العلم

لا توجد في القرآن حتى الآن أي آية قرآنية تصف ظاهرة طبيعية تتعارض مع الاكتشافات العلمية الحديثة، على عكس بعض الفصول الواردة في الكتاب المقدس. وإليكم ما كتبه الدكتور موريس بوكاي في كتابه القران والتوراة والإنجيل والعلم: «عكفت من دون أي فكرة مسبقة وبموضوعية تامة، على دراسة القرآن من خلال البحث عن مدى توافق نصه مع المعطيات العلمية الحديثة. كنت أعرف، من خلال الترجمات، أن القرآن غالباً ما يتناول جميع أنواع الظواهر الطبيعية، لكنني لم أكن ألم به إلا إلماما محدودا. ولكن عندما درست متنه باللغة العربية دراسة متأنية، قمت بعمل جرد له، وفي النهاية توصلت الى أن القرآن لا يتضمن أي بيان يمكن أن يطاله النقد من الناحية العلمية في هذا العصر. لقد أجريت نفس الدراسة على العهد القديم والأناجيل بنفس الموضوعية. فبالنسبة للأول لم أحتج إلى تجاوز الكتاب الأول، «سفر التكوين»، لأقف على بيانات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر المعطيات العلمية صحة في عصرنا الحاضر. فما إن نفتح الأناجيل حتى يطالعنا نسب عيسى في الصفحة الأولى، وإذا بنا نغوص في مشكلة خطيرة للغاية تتمثل في كون نص متى، في هذه النقطة، يتناقض تناقضا صارخا مع نص لوقا في حين أن هذا الأخير لا يتماشى بشكل واضح مع العلوم الحديثة المتعلقة بأقدمية وجود الإنسان على الأرض»[1].

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 11.

يستشهد العلماء المسلمون بعشرات العبارات القرآنية التي تتفق مع المعطيات العلمية. وسنقتصر هنا على بعض الأمثلة التي آخرها مأخوذ من السنة.

أولاً: توسع الكون.

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُون (الذاريات، 17)

يرى بعض المفسرين أن هذه الآيات بمثابة إشارة إلى توسع الكون، وهي ظاهرة معروفة اليوم. ففي عام 1929، برهن هابل (Hubble) أن المجرات تتباعد بعضها عن بعض بسرعة تتناسب مع مسافتها. لقد مثل اكتشاف هابل تحولا هائلا في تاريخ علم الفلك. وأظهر قانون التناسب بين المسافة والسرعة أن انحسار المجرات لا ينم عن حركة تتعلق بفضاء ثابت، وإنما عن توسع الكون نفسه، أي إلى تمدد للفضاء مع مرور الوقت. وفي عام 2011، فاز كل من ساول بيرلماتر (Perlmutter Saul) وبريان شميدت (Brian Schmidt) وآدم ريس (Adam Riess) بجائزة نوبل في الفيزياء لاكتشافاتهم المتعلقة بالتوسع المتسارع للكون، لأن الكون لا يتوسع فحسب، بل إن هذا التوسع يتسارع.

صحيح أن الكتاب المقدس يحتوي على فقرة قريبة من القرآن: «الْبَاسِطُ السَّمَاوَاتِ وَحْدَهُ»[1]. لكن في نفس سفر أيوب، توجد مغالطة نأى القرآن عنها: «هَلْ صَفَّحْتَ مَعَهُ الْجَلَدَ الْمُمَكَّنَ كَالْمِرْآةِ الْمَسْبُوكَةِ؟[2] إن المعجزة القرآنية – وتلك حقيقة لا تكاد كثرة التكرار تفي بحقها – تستند على بيان الوقائع التي لا تتعارض أبدًا مع المعطيات العلمية الحديثة. وعليه نرى موريس بوكاي يتساءل: «كيف يمكن لرجل، أمي في حقيقة أمره، أصبح، فضلا عن

---

(1) أيوب 9، 8.
(2) أيوب 37، 18.

ذلك من حيث القيمة الأدبية، المؤلف الأول لكل الأدب العربي، أن يبين حقائق ذات طابع علمي لا قِبل لأي إنسان بالتوصل إليها في ذلك الوقت، ودون أن يتفوه بأدنى معلومة خاطئة في هذا الصدد؟ إن المسائل التي سيتم التطرق إليها في هذه الدراسة ستؤدي، من وجهة النظر العلمية وحدها، إلى اعتبار أنه من غير المتصور أن يعبر إنسان يعيش في القرن السابع من العصر المسيحي، بشأن مواضيع متنوعة للغاية، عن أفكار غير أفكار عصره وتتفق مع ما سيظهر بعد قرون. بالنسبة لي، ليس ثمة تفسير بشري للقرآن[1]».

ثانياً: استدارة الأرض ودورانها.

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (الزمر، 5).

فعل «كور» المستخدم لوصف الطريقة التي يغطي بها ظلام الليل ضوء النهار يعني في الأصل: «دار حول ذاته» كما تفعل الكورة أو «لفلف» كما تلفلف العمامة حول الرأس. فالصورة تبين الطريقة التي تضيء بها أشعة الشمس في مناطق مختلفة من الأرض، وتدور باستمرار على نفسها، في حركة متواصلة. ويصف لنا موريس بوكاي هذه الظاهرة قائلا: «الشمس تضيء (إلا في حالة الكسوف) نصف الكرة الأرضية الموضوعة مقابلها بينما يبقى نصفها الآخر في الظلام. وبينما تدور الأرض حول نفسها في الوقت الذي تظل الإضاءة ثابتة، تقوم منطقة مضاءة على شكل نصف كورة بالدوران حول الأرض خلال أربع وعشرين ساعة، في حين أن نصف الكرة الأرضية التي بقيت في الظلام تقوم خلال نفس الوقت بالرحلة

---

(1) المرجع نفسه، ص 126-127.

نفسها. هذه الجولة المتواصلة في النهار والليل موصوفة تمامًا في القرآن. ويمكن فهمها بسهولة في الوقت الحاضر نظرًا لأن لدينا فكرة عن الثبات (النسبي) للشمس ودوران الأرض. إن عملية اللف الدائم هذه والمتمثلة في التغلغل المستمر لقطاع ما من جانب آخر عبر عنها القرآن، كما لو كانت استدارة الأرض معروفة في ذلك الزمان وهو ما لم يكن بطبيعة الحال»[1].

تجد الإشارة إلى أنه في زمن نزول القرآن، كانت حضارات كثيرة ما تزال تعتقد أن الأرض مسطحة ولم يكن أحد يتصور أنها تدور حول نفسها. وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى القرن السادس عشر حين قام وقتها ماجلان (Magellan) برحلته التي كانت أول جولة عالمية والتي استمرت من سنة 1519 إلى 1522. ففي هذه الفترة أصبحت كروية الأرض، التي لم تكن إذ ذاك معروفة إلا عند ثلة قليلة من العلماء، حقيقة متعارف عليها. ويفترض العهد القديم[2]، مثل العهد الجديد[3]، أن الأرض مسطحة.

دفعت هذه الأخطاء العلمية التي وردت في الكتاب المقدس كثيرا من المسيحيين إلى الإلحاد كما حصل مع ديفيد بروسوتا (Presutta David)، مؤلف كتاب «الكون التوراتي مقابل علم الكونيات الحديث: لماذا الكتاب المقدس ليس كلمة الله»[4]. وعلى العكس من ذلك، فإن الحقائق العلمية الواردة في القرآن، والتي لا تعارض في أي شيء المعطيات العلمية الحديثة، دفعت الكثير من المسيحيين والملحدين إلى اعتناق الإسلام، وخاصة بعد قراءة كتاب موريس بوكاي.

---

(1) المرجع نفسه، ص 165.

(2) إرميا 16، 19.

(3) الوحي 7، 1.

(4) The Biblical Cosmos Versus Modern Cosmology: Why the Bible Is Not the Word of God.

يشير الجزء الثاني من الآية التي بين أيدينا (الزمر، 5) إلى أن الشمس والقمر يتحركان وفقًا لقوانين معينة. وتوضح آيات أخرى إلى أن كلا من هذه النجوم تتبع مدارا خاصا بها كما في هذه الآية: «وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا»[1]. إننا اليوم نعرف أن الشمس تتحرك بفعل الجاذبية حول مركز درب التبانة وأنها تدور حول نفسها لمدة تبلغ حوالي 27 يومًا من أيام الأرض. كتب موريس بوكاي معلقا على هذه الآيات ما يلي: «يشار إلى أن الشمس تتحرك في مدار دون أي تحديد لما سيؤول إليه هذا المدار بالنسبة للأرض. ومع ذلك، فقد كان الناس يعتقدون أيام نزول الوحي أن الشمس تتحرك مع الأرض باعتبارها نقطة ثابتة. وكان ذلك هو نظام مركزية الأرض الذي كان سائدا منذ عهد بطليموس (Ptolémée)، في القرن الثاني قبل الميلاد والذي ظل سائدا حتى جاء عصر كوبرنيكوس (Copernic)، في القرن السادس عشر. إن هذا المفهوم، الذي كان البعض يناصره في زمن محمد، لم يتناوله القرآن أبدا، لا هنا ولا في أي مكان آخر»[2].

ثالثًا: الماء هو أصل الحياة.

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (الأنبياء، 30)

اليكم ما كتبه الدكتور موريس بوكاي بشأن هذه الآية: «يمكن أن تعني الآية أن جميع الأشياء الحية صنعت بالماء كمادة أساسية لها، أو أن جميع الأشياء الحية مصدرها الماء. وكلا المعنيين المحتملين يتفق تمامًا مع المعطيات العلمية»[3].

---

(1) الانعام، 96.
(2) المرجع نفسه.
(3) المرجع نفسه، ص 188.

أما عالم الأحياء البريطاني، الملحد والمثير للجدل والمشهور بكتابه «ما لنا وللإله» ريتشارد دوكينز (Dawkins Richard) فإنه يعترف بأن الماء هو مصدر الحياة: «لا يمكن لنوع حياتنا أن يستقيم بدون ماء سائل ولذلك نرى علماء الأحياء الخارجية يبحثون عن دليل على وجود حياة خارج كوكب الأرض ويتطلعون إلى السماء أملا في العثور على علامات لوجود الماء»[1].

رابعا: التطور الجنيني.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ (الحج، 5).

يقول موريس بوكاي في مقدمة الفصل الذي كرسه لوصف التناسل عند الانسان في القرآن الكريم إن «التناسل موضوع ما تناولته الأقلام قديما وتوسعت فيه بشيء من التفصيل إلا وأتت بمفاهيم خاطئة. ففي العصور الوسطى – وحتى في فترة غير بعيدة – نرى هذا الموضوع محاطا بجميع أنواع الأساطير والخرافات. وكيف لا وفهم آلياته المعقدة يتطلب الإلمام بعلم التشريح واكتشاف المجهر وظهور العلوم المعروفة بالعلوم الأساسية التي ولدت علم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة والتوليد، إلخ. أما بالنسبة للقرآن فالأمر مختلف تمامًا. فهو يستعرض في العديد من الأماكن آليات دقيقة ويذكر مراحل من التناسل محددة تحديدا جيدًا، دون تقديم أدنى معلومة غير صحيحة. لقد عبر عن كل شيء بعبارات بسيطة ومستساغة وتتفق تماما ما تم اكتشافه بعد ذلك بزمن طويل»[2].

(1) The God Delusion, Richard Dawkins, Bantam press, London, 2006, p. 135.
(2) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 199.

ليس القرآن كتابًا للعلوم وإذا كان يصف بعض الظواهر الطبيعية، فإن هدفه إنما هو، كما في الآيات المذكورة في هذا الفصل، بيان قدرة الله الكاملة بأسلوب في متناول المعاصرين لفترة نزول الوحي. إن هدفنا من ذكر هذه الآيات هو فقط إثبات أن أيا منها لا يتناقض مع المعطيات العلمية الحديثة الشيئي الذي هو، في حد ذاته، دليل كاف على أصلها الإلهي. فالقرآن تحاشى «الأخطاء العلمية الواردة في الكتاب المقدس» وكذا الأساطير المتداولة في ذلك الوقت. وهذا هو حال الأساطير المتعلقة بالإنجاب البشري. وهكذا، وفي معرض تناوله للمقطع التالي من العهد القديم: «لقد صُورتُ لحما في رحم أمٍ حيث أمضيت عشرة أشهر في الدم حتى استويت على عودي»[1]، يؤكد الكتاب المقدس للقدس أن: «العلم الطبي القديم يتصور أن الجنين عبارة عن تخثر لدم الأم تحت تأثير العنصر المنوي»[2].

يعتقد أهل الطب القديم أن الجنين يتكون من دم الحيض تحت تأثير الحيوانات المنوية للرجل. لا يوجد شيء من هذا القبيل في القرآن الكريم الذي ينص على أن آدم خلق من تراب وأن البشر خلقوا «مِنْ نُطْفَةٍ» التي هي السائل المنوي.

يضاف إلى ذلك أنه، في حين أن القرآن يميز بوضوح بين مختلف مراحل تطور الجنين في بطن أمه، فإن الفكرة السائدة أيام نزوله هي أن رجالا في شكل مُصَغَّر يترعرعون في أرحام أمهاتهم. لقد زعم ترتليان (Tertullien) في القرون الأولى من العصر المسيحي أن الكائن كله موجود في الحيوانات المنوية للرجل. «توجد واحدة من أقدم صور الأجنة في الغرب المسيحي في مخطوطة تعود إلى القرن التاسع (محفوظة في المكتبة الملكية في بلجيكا)

(1) الحكمة 7، 1-2.

(2) La Bible de Jérusalem, Editions du Cerf, 1973, p. 664.

لميثاق موشيون (Moschion) في أمراض النساء: توجد في إحدى صفحات هذه المخطوطة صورا لمختلف وضعيات الجنين في الرحم. لا بد للرحم من قرنين حتى يكون محترما للعقيدة. الأجنة رجال مصنوعون بشكل مُصَغّر»[1]. وحتى في القرن الثامن عشر نرى بوفون (Buffon) يدعي أن الجنين يحتوي على جميع الأجزاء المكونة للإنسان والتي تتطور بشكل متتال ومختلف بعضها عن بعض. لقد نشأ علم الأجنة في عشرينيات القرن التاسع عشر ولكن أول لوحات إضافية في كتاب يعالج مراحل تطور الجنين البشري لم تظهر إلا في سنة 1880»[2].

خامسا: تكوين حليب البقر

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (النحل، 66).

إليكم ما كتبه موريس بوكاي بشأن هذه الآية في كتابه القران والتوراة والإنجيل والعلم: «من وجهة النظر العلمية، لا بد من الإلمام ببعض مفاهيم علم وظائف الأعضاء لإدراك معنى هذه الآية. فالمواد الأساسية التي تتولى تغذية الجسم بشكل عام تأتي من تحولات كيميائية تحدث في جميع أنحاء الجهاز الهضمي. وهذه المواد تأتي من عناصر موجودة في محتويات الأمعاء. ومتى وصلت إلى المرحلة المطلوبة من التحول الكيميائي في الأمعاء، فإنها تمر عبر جدار الأمعاء إلى الدورة الدموية العامة. يحدث

(1) Iconographie des embryons et des fœtus dans les traités d’accouchement et d’anatomie du XVIe au XVIIIe siècle, Marie-France Morel, in Histoire des sciences médicales, vol. XLIII, n°1, 2009.

(2) La représentation de l’embryon et du fœtus de l’Antiquité à nos jours, Encyclopédie de la naissance, Jean-Louis Fischer, Albin Michel, 2009.

هذا المرور بطريقتين: إما مباشرة من خلال ما يسمى بالأوعية اللمفاوية أو بشكل غير مباشر من خلال الدورة الدموية التي هي البوابة التي تقودها في البداية إلى الكبد حيث تخضع لتغيرات؛ وتخرج منه للالتحاق بالدورة الدموية العامة. وبهذه الطريقة، يمر كل شيء في نهاية المطاف من خلال مجرى الدم. وتفرز مكونات الحليب بواسطة الغدد الثديية التي تتغذى، إذا جاز التعبير، على منتجات هضم المواد الغذائية المقدمة لها عن طريق الدم الجاري. وبالتالي فإن الدم يعمل بمثابة جامع وناقل للمواد المستخرجة من الطعام لتوفير التغذية للغدد الثديية المنتجة للحليب، كما لأي عضو آخر. هنا، كل شيء يبدأ بوجود محتويات الأمعاء والدم على مستوى جدار الأمعاء. هذه الفكرة الدقيقة تأتي من استكشافات الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء في مجال الهضم. ولم تكن معروفةً البتة في زمن النبي محمد ﷺ لأنها لم تُعرف إلا في عصرنا الحاضر.

أما بالنسبة لاكتشاف الدورة الدموية، فمكتشفها هو هارفي (Harvey) وكان ذلك بعد حوالي عشرة قرون من نزول القرآن»[1].

سادسا: إلهام النحل

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ (النحل: 68-69).

الطرق التي ذللت للنحل هي تلك التي تمكنها من الذهاب للبحث عن طعامها ثم العودة إلى الخلية دون أن تضل طرقها. ومن المعروف أن وجهة

(1) La Bible, le Coran et la science. Les Ecritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes, Maurice Bucaille, Seghers, Paris, 1976, p. 198.

اتجاه النحل متطورة بشكل غير عادي. وقد حظي الموضوع بالعديد من الدراسات من بينها ما قام به فون فريتش (von Frisch) (1958) الذي كتب أن «المرء يكاد يجزم بأن ثمة قوة مغناطيسية، على بعد كيلومترات، توجه النحلة بثقة نحو خلية النحل التي تأتي منها».

يصف جورج ثينيس (Georges Thinè)، الأستاذ بجامعة لوفان، تجارب فون فريتش على النحو التالي: «عندما يعود النحل الباحث عن قوته إلى الخلية في نهاية دورتها الاستكشافية عن الغذاء، يقوم بحركات مميزة تسمى «الرقصات» بسبب الصور النمطية الحركية الخاصة بها. ثمة نوعان من الرقص: الرقصة المستديرة أو الدائرية (Rundtanz) والرقص على شكل الرقم ثمانية أو الرقص المختلج (Schwanzeltanz). أما الرقصة المستديرة فتقوم بها الباحثات عن قوتهن واللاتي توجهن المستقبلات بإشارات نحو الغذاء على مسافة 100 متر من الخلية. فتراهن يطلقن إشارة بسيطة للدلالة على وجود الغذاء دون الإشارة إلى الاتجاه. ويكون ذلك حسب حجم سكان خلية النحل. فإذا كان كبيرا (عدة آلاف من الأفراد)، فإن تشتت الحشرات داخل دائرة نصف قطرها بهذا الحجم يتيح احتمالاً كافياً للنجاح حتى في حالة عدم وجود مكون متجه. تقوم بالرقصة على شكل ثمانية الباحثات اللاتي يرجعن من مكان الأعلاف على بعد أكثر من 100 متر من الخلية. تنقل النحلة رسالة معقدة ومتعددة الأبعاد»[1].

أظهرت دراسات حديثة أجراها باحثون في جامعة إلينوي (Illinois) أن هذا الحس الذي يوجه النحل توجها فريدا سببه جين يدعى ايغر (Egr). يقول جين روبنسون (Gene Robinson)، أحد واضعي الدراسة التي نُشرت

(1) Encyclopædia Universalis.

عام 2013 فيمجلة البيولوجيا التجريبية (The Journal of experimental Biology): «يفسر هذا الاكتشاف كيف يستطيع النحل التحرك وتوجيه نفسه بطريقة رائعة وبدماغ صغير جدا»[1].

سابعًا: مفاصل جسم الإنسان.

في الإنسان ثلاث مئة وستون سلامى (مسلم، 1007)

هذه الكلمات، التي تحدث بها النبي ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، تخبرنا أن الهيكل العظمي البشري يتكون من ثلاثمائة وستين مفصلا.

واليكم ما كتبه في هذا الموضوع فينسان نوجير (Vincent Nougier)، الأستاذ في جامعة غرينوبل (Grenoble): «للقيام بحركة، يمكن لنظام الجسم أن يستخدم ـ بحرية لا حد لها تتيحها الخلايا العصبية (حوالي 100 مليار خلية عصبية) ـ العضلات (حوالي 600 عضلة) والمفاصل (360 مفصلا بعضها لا يكاد يتحرك)»[2].

قام كل من تيبولت روشيمونت (Thibault Rochemont) وفالنتين جنسبيتل (Valentin Gensbittel) بتفصيل هذا العدد على موقعهما المسمى (TPE Articulations) على هذا النحو: «يحتوى جسم الإنسان جميعه على 360 مفصلا موزعة كالآتي: 86 مفصلا في الجمجمة و6 في الحنجرة و 66 في

(1) Activity-dependent gene expression in honey bee mushroom bodies in response to orientation flight, The Journal of experimental Biology, Claudia Lutz, Gene Robinson, 2013.

(2) STAPS : anatomie, physiologie, neurosciences et biomécanique, Paul Delamarche, Franck Multon, Thierry Horrut et Vincent Nougier, Elsevier Masson, 2018, p. 200.

القفص الصدري و 76 في العمود الفقري والحوض و64 في الأطراف العليا و 62 في الأطراف السفلى. جميع هذه المفاصل تتيح للجسم البشري إمكانية تكاد تكون لا نهائية للقيام بمجموعة من الحركات تتسم بدقة لا تكاد تتصور. وإذا كان الانسان هو الكائن الحي الأقوى والمعروف حتى الآن، فذلك يرجع إلى حد كبير إلى هذا العدد الكبير من المفاصل الموجودة في جسمه».

يتدارك القرآن الكريم أحيانًا «الأخطاء العلمية» التي وردت في الكتاب المقدس كتلك التي جاءت في هذه الفقرة من العهد القديم والتي فيها أن السماء مدعومة بأعمدة: «أَعْمِدَةُ السَّمَاوَاتِ تَرْتَعِدُ»[1]. ويبدو أن هذه الآية القرآنية تجيب عليها: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا[2]».

4. القرآن لا يتعارض مع العقل

أي شخص يفتح القرآن ويقرأه من البداية وحتى النهاية لن يجد فيه ما يصدم عقله خلافا للكتاب المقدس.

1. يعقوب يخرج منتصرا في معركته مع الله.

«فَقَالَ: لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ[3]».

2. داود ينتهك الوصية العاشرة: «لا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ».

«وَكَانَ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ [...] فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إليه،

(1) أيوب 26، 11.
(2) لقمان، 10.
(3) التكوين 32، 28.

فَاضْطَجَعَ مَعَهَا»[1]. وحتى العقاب الذي نزل على داود عليه السلام من عند الله جراء الذنب الذي اقترفه لا يستسيغه عقل: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُقِيمُ عَلَيْكَ الشَّرَّ مِنْ بَيْتِكَ، وَآخُذُ نِسَاءَكَ أَمَامَ عَيْنَيْكَ وَأُعْطِيهِنَّ لِقَرِيبِكَ، فَيَضْطَجعُ مَعَ نِسَائِكَ».[2]

3. رأوبين ابن يعقوب الأكبر يضاجع زوجة أبيه[3].

4. يهوذا الابن الرابع ليعقوب يزني بزوجة ابنه ثامار وينجب منها فارص وزارح[4]. والحال أن ثامار هذه والابن الذي هو ثمرة هذا الزواج بين المحارم تظهر في سلسلة أنساب عيسى[5].

5. أمنون بن داود يغتصب أخته العذراء ثامار[6].

6. شمشون يقتل ألف رجل بفك حمار[7].

7. العبرانيون يقتلون مائة ألف رجل في يوم واحد.

«فضرب بنو إسرائيل من الاراميين مئة ألف راجل في يوم واحد وهرب الباقون إلى افيق إلى المدينة وسقط السور على السبعة والعشرين ألف رجل»[8].

---

(1) صموئيل الثاني 11، 2-4.
(2) صموئيل الثاني 12، 11.
(3) التكوين 35، 22.
(4) التكوين 38، 15-30.
(5) متى 1، 3.
(6) صموئيل الثاني 13، 1-14.
(7) القضاة 15، 16.
(8) ملوك الأول 20، 29-30.

الفصل الثالث
تأثير رسالة الإسلام

1. تأثير الإسلام على الأفكار

مثال التوحيدية

يُعرّف قاموس لاروس Larousse التوحيدية على أنها «عقيدة عند بعض المجموعات المنشقة عن الإصلاح (ميغيل سيرفيت (Michel Servet) وفاوستو (Fausto) وليليو سوسين (Lelio Socin) والتي لا تؤمن بعقيدة الثالوث لأنها ترى فيها تخل عن التوحيد». إنهم يأخذون على الثالوثيين، أي الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، أنهم ليسوا موحدين خلص. تعود أصول التوحيدين إلى الحركات التي سبقت مجلس خلقيدون (Chalcédoine)، والتي أشهرها هي الآريوسية (arianisme)، في القرن الرابع الميلادي. وبعد اختفاء الآريوسية، ولدت التوحيدية في أوروبا الوسطى في منتصف القرن السادس عشر. وطالعتنا أول كنيسة آريوسية انجليزية في عام 1774 وظهرت العقيدة في الولايات المتحدة عام 1784 مع جيمس فريمان (James Freeman). ويعتنق هذه العقيدة ما لا يقل عن خمسة من رؤساء الولايات المتحدة، من بينهم توماس جيفرسون (Thomas Jefferson)، أحد واضعي الدستور الأمريكي. إن التشابه بين هذه العقيدة والعقيدة الإسلامية كبير لدرجة أن المرء ليتساءل ـ وهو محق في ذلك – عما إذا كانت التوحيدية قد تأثرت بالإسلام.

قد يكون الطبيب الإسباني واللاهوتي ميغيل سيرفيت هو أوسع التوحديين شهرة ولعل ذلك راجع إلى نهايته المأساوية حيث تم حرقه

حيا في جنيف بسبب البدعة بعد ما فر من محاكم التفتيش الكاثوليكية. وحيث اعتقد أنه وجد ملجأ لدى البروتستانت، الذين اشتهروا بأنهم أكثر تسامحا، إذا به يسلم إلى المحرقة في عام 1553 بموافقة جان كالفين (Jean Calvin) نفسه.

لكن ماذا يؤخذ بالضبط على سيرفيت؟ يؤخذ عليه أساسا التفوه بالكلمات التالية: «الله وحده يعلم كم كان هذا المعتقد بالثالوث مدعاة للسخرية عند المسلمين ومبتذلا عند اليهود أيضا الذين يهزؤون من جنوننا بالثالوث وبسبب التجديف الذي يستلزمه الأمر، فإنهم لا يؤمنون أن عيسى «هذا» هو المسيح الذي وعد به الناموس. ليس هذا هو معتقد المسلمين والعبرانيين وحدهم وإنما أيضا وحوش الحقول أنفسها ستضحك علينا متى ما أدركت نظريتنا الرائعة، لأن جميع أعمال الرب تبارك الاله الواحد. استمع أيضا إلى ما يقوله محمد، فالحق ما شهدت به الأعداء»[1].

ما لبث سيرفيت الذي هو أحد أنصار النزعة الإنسانية وصاحب العقل المتفتح أن توصل إلى استنتاج مفاده أن الثالوث بدعة ابتدعتها المجالس في القرن الرابع، وهي عقيدة لم يقل بها عيسى عليه السلام ولا رسله أبدًا. لقد كان كتابه الأول، الذي نشره في سن العشرين يحمل عنوان أخطاء الثالوث. أما في كتابه عودة المسيحية فإنه يضع محمدا ﷺ فوق الكاثوليك والبروتستانت لأنه أقرب إلى تعاليم عيسى عليه السلام الذي دعا مثله إلى توحيد الله[2].

(1) De errores acerca de la Trinidad, in Obras Completas, Vol. II-I. Primeros escritos teológicos, Prensas Universitarias de Zaragoza, 2004, p. 227.
(2) Restitution du christianisme, Servet, Paris, 2011, vol. 1, p. 192.

وفي مؤتمر عُقد في 27 أكتوبر 2007 في معهد Instituto de estudios sijenenses Miguel Servet تحت عنوان «الإسلام في أعمال ميغيل سيرفيت»أكد الأكاديمي الإسباني جومي دي ماركوس أندريو (Jaume de Marcos Andreu) تأثير القرآن والإسلام على كتابات ميغيل سيرفيت وأسباب إدانته. وكتبت أن «الكثير من الاقتباسات القرآنية والكثير من التعليقات الممجدة لما جاء في الإسلام عن الله الواحد الأحد لا يمكن أن تمر دون أن يتنبه إليها أحد. وخلال محاكمته في جنيف بسبب البدعة، سارع الذين اتهموه بمواجهته بها.لم يفعلوا فعلتهم بحثا عن أسباب لإدانته وإنما فقط تخوفا وحذرا من انتشار أفكار الإسلام في أوروبا. فتلك كانت في الحقيقة هي أفكار العدو والتسامح لا يمكن أن يؤدي، من وجهة نظرهم، إلا إلى إضعاف المجتمعات المسيحية: ترويج الإسلام كان حصان طروادة الذي سبق الغزو التركي. ولم يجانب بينتون (Bainton) الصواب عندما أشار في السيرة الذاتية التي كتب عن ميغيل سيرفيت، أنه كان على المدعين العامين أن يضعوا في اعتبارهم أن الأراضي التي سادت فيها الآريوسية سقطت أخيرًا تحت الحكم الإسلامي».

وبعد قرن من الزمن، ما زال الخوف شديدا من أن تسبب الأفكار التوحيدية المزيد من اعتناق الإسلام في أوروبا. فقد كتب البروتستانتي السويسري يوهان هاينريش هوتينجر (Johann Heinrich Hottinger): إن «هذه التعاليم المستخلصة من بواطن العداوات القديمة المناهضة للثالوث قد تمهد الطريق للإسلام داخل حدود أوروبا»[1].

(1) Socinianism, Islam and the Radical Uses of Arabic Scholarship, Mulsow, p. 560-561.

وفي الواقع، فقد قام بعض الموحدين المعروفين باعتناق الإسلام كما هو حال آدم نيوسر (Adam Neuser) (1530–1576)، القس الألماني البروتستانتي الذي اتهم بإنكار ألوهية عيسى المسيح عليه السلام وسجن مع يوهان سيلفان (Johann Sylvan). وقد تعرض هذا الأخير للتعذيب وقطع الرأس بينما تمكن نيوسر من الفرار. وبعد اعتناقه الإسلام، حصل على اللجوء في اسطنبول حيث دخل في خدمة السلطان العثماني.

وفي محاولة منه لشرح قصد سيرفيت، قال جومي دي ماركوس: «لم يكن يقصد إصلاح المسيحية، إنما كان يسعى إلى ردها ردا جميلا إلى حالتها الأصلية قبل أن تشوهها التشويهات الباطلة. لم يكن يرغب في وضع عقيدة مسيحية جديدة أكثر جاذبية للمؤمنين في الأديان الأخرى، إنما كان يرغب في إحقاق الحق. ومتى ما تم له ذلك فإن الحق، بحد ذاته، قوي بما يكفي لكسر جميع الحواجز التي تمنع الوئام بين الناس. وإذا كانت اليهودية والإسلام قد حافظا على الحقيقة المتعلقة بالله وبالمسيح في عقائدهما فمن الضروري للمسيحية أن تصحح خطأها الذي بدأ في نيقية (Nicée) وظل كذلك مدة تزيد على ألف عام، وأن الوقت قد حان لإحقاق الحق».

لا ينبغي لنا أن ننسى أن سيرفيت هذا وُلد في إسبانيا التي خرجت لتوها من 800 عام من حكم ونفوذ المسلمين. كما أنه، بعد اختفاء الآريوسية، وُلدت التوحيدية في منتصف القرن السادس عشر في أوروبا الوسطى، في بولندا وليتوانيا وترانسيلفانيا، على حدود المسيحية مع الإمبراطورية العثمانية المسلمة.

ومع ذلك وإذا كان من الصعب إقامة الدليل على وجود تأثير للإسلام على التوحيديين، فلا مراء بأن ثمة تجانس بينهم وبين الدين الإسلامي. وهكذا كتب أحدهم، وهو ستيفن ناي (Stephen Nye) (1648-1719)، يصف محمدا ﷺ بأنه رجل يسعى إلى «استعادة الإيمان بوحدانية الله، ذلكم الايمان الذي استبدله في ذلك الوقت المسيحيون في المشرق بعقيدة الثالوث والتجسيد»، مضيفا أن «محمدا لم يزعم يوما أن دينه دين جديد وإنما استرجاع للديانة المسيحية الحقيقية»[1].

كتب لا كروز (La Croze) (1661-1739)، وهو راهب بنديكتيني سابق اعتنق البروتستانتية، في مقالاته التاريخية حول مواضيع مختلفة أن التوحيديين «يذكرون أن القرآن أحد كتبهم المرجعية»[2].

ومن بين الموحدين المشهورين هناك إسحاق نيوتن (Isaac Newton) الذي يذكر عنه ستيفن سنوبلن (Stephen Snobelen)، المؤرخ الكندي المتخصص في الكتابات اللاهوتية والتنبئية لنيوتن أن هذا الأخير كان يعارض عقيدة الثالوث. أما توماس فيزينماير (Thomas Pfizenmaier)، صاحب التصورات التي لم يقتنع بها إلا ثلة قليلة، فإنه يؤكد أن نيوتن كان أقرب إلى الفكر الإسلامي أو الشرقي الأرثوذكسي في مسألة الثالوث منه إلى الفكر الغربي الذي يشاطره الروم الكاثوليك والأنغليكانيون ومعظم البروتستانت.

(1) A Letter of Resolution Concerning the Doctrines of the Trinity and the Incarnation, London, 1691, p. 18.

(2) Dissertations historiques sur divers sujets, Rotterdam, R. Leers, 1707.

2. تأثير الإسلام على الأفراد

مثال نابليون

يتحدث عالم الاجتماع الفرنسي كريستيان شيرفيس (Christian Cherfils) (1858–1926) في كتابه بونابرت والإسلام عن «عمق التأثير الذي خلفته في نفس بونابرت ديانة النبي التي أحبها»[1]. وللدلالة على ذلك يأتي ببعض النصوص التي وردت في مذكرات نابليون مثل هذا النص: «الإسلام يهاجم بشكل خاص المشركين؛ لا إله الا الله محمد رسول الله. هذا هو أساس الدين الإسلامي، والذي هو في الأساس، تكريس للحقيقة العظمى التي أعلنها موسى وأكدها عيسى المسيح»[2].

يشير الإمبراطور الفرنسي أنه، «من الجدير بالملاحظة أنه، من نفس الزاوية من الأرض، ظهرت ثلاثة أنواع من العبادات اقتلعت جذور الشرك وغطت العالم بأسره بمعرفة الإله الواحد الأحد»[3]. كما أن بونابرت لاحظ التوسع السريع للإسلام: «محمد كان أميرًا؛ جمع قومه حوله. ففي بضع سنين عم الإسلام على نصف العالم ونجح في القضاء على المزيد من الآلهة المزيفة وأطاح بعدد كبير من الاصنام وقلب رأسا على عقب كثيرا من معابد الوثنية في غضون خمسة عشر عامًا وهو ما عجز عنه أتباع موسى وعيسى المسيح خلال خمسة عشر قرنا. لقد كان محمد إنسانا عظيما»[4].

(1) Bonaparte et l'Islam, Christian Cherfils, Alcazar publishing, 2016, p. 187.

(2) المرجع نفسه ص 197.
(3) المرجع نفسه ص 195.
(4) المرجع نفسه ص 94.

وردت عن نابليون العشرات من التصريحات الموالية للإسلام، والتي أدت بكريستيان شيرفيس وغيره، إلى الجزم بأن الإمبراطور الفرنسي قد اعتنق الإسلام حيث أكد أن تمسك نابليون بالإسلام حقيقة تاريخية تناولتها الصحافة في ذلك الوقت. يضاف إلى ذلك أن الرسائل التي بعث بها نابليون إلى بعض الزعماء المسلمين تدل على ذلك دلالة لا لبس فيها. وهكذا بدأ مرة خطابًا موجها إلى شريف مكة قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]. الحقيقة أن أي شخص ينطق بهذه الكلمات صادقا يكون مسلما حقيقيا. وفي 15 أغسطس 1799 بعث برسالة أخرى إلى سلطان المغرب، مستهلا إياها على النحو التالي: «لا إله إلا الله محمد هو نبيه بسم الله الرحمن الرحيم إلى سلطان المغرب، خادم القصبة الشريفة، القوي بين الملوك المتبع الوفي لشريعة النبي الحقيقي»[2]. أمام المحافظين والعلماء في القاهرة، ألقى هذا الخطاب قائلاً: «أيها العلماء والشيوخ أتعجب مما حز في نفوسكم بسبب انتصاري. يبدو أنكم لم تفهموني بعد حق الفهم، لقد قلت لكم مرارًا وتكرارًا أنني مسلم، وأنني أؤمن بوحدانية الله وأنني أجل النبي محمدا وأحب المسلمين»[3].

ومع ذلك، يلاحظ البعض أن هذه الرسائل وهذه الشهادة جاءت خلال الحملة على مصر. وعليه فليس لها سوى هدف سياسي حقير يتمثل في كسب ود السلطات الدينية والسكان ضد العدو اللدود: إنجلترا. فهكذا فسر هذه الكلمات التي لا لبس فيها أولئك الذين لا يريدون أن يروا فيها دليلاً

(1) المرجع نفسه ص 28.
(2) المرجع نفسه ص 30.
(3) المرجع نفسه ص 72.

على اعتناق نابليون للإسلام. إلا أن هذا التفسير لا يصمد أمام الأحكام التي جاءت على لسان الإمبراطور بعد سقوطه ونفيه إلى سانت هيلان (Saint Hélène) حين قالها ولم تكن له وقتئذ مصلحة في مدح الإسلام. فهذه هي الفترة بالذات التي نطق فيها نابليون بالكلام الأكثر ايجابية في حق الإسلام والرسول ﷺ، حيث قال على سبيل المثال: «ثم في النهاية، في لحظة معينة من التاريخ، ظهر رجل يدعى محمد. وقد قال هذا الرجل نفس ما قاله موسى وعيسى وجميع الأنبياء الآخرين: لا إله إلا الله. تلكم هي رسالة الإسلام. الإسلام هو الدين الحقيقي. فكلما تعلم الناس وأصبحوا أذكياء، زادت معرفتهم بالمنطق والاستدلال. وسيتخلون عن الأصنام أو الطقوس التي تدعم الشرك، وسوف يدركون أن لا إله إلا الله. وبالتالي، آمل أن يحين الوقت الذي يسود فيه الإسلام العالم»[1].

وقد قال أيضا وهو في جزيرة سانت هيلين: «دين محمد هو الأحسن»[2] وأيضا: «إني أفضل دين محمد فهو أقل سخافة من ديننا»[3].

إذا لم يكن هناك ما يسمح بالجزم بأن نابليون اعتنق الإسلام، فإنه من المؤكد أن أحد جنرالاته خلال الحملة على مصر، وهو جاك مينو (Jacques Menou)، بارون بوساي (Boussay) حزم أمره واعتنق الإسلام.

---

(1) Correspondance de Napoléon 1er- Journal inédit de Sainte Hélène, de 1815 à 1818 (Gourgaud), Napoléon Bonaparte, Comon et cie, 1847, vol. 5, p. 518.

(2) Journal de Sainte-Hélène 1815-1818 (Gourgaud), Napoléon Bonaparte, Flammarion, 1944, vol. 1, p. 312.

(3) Journal de Sainte-Hélène 1815-1818 (Gourgaud), Napoléon Bonaparte, Flammarion, 1944, vol. 2, p. 226.

ينحدر مينو هذا من عائلة عريقة جدًا، وقد انخرط في الماسونية والتحق بالجيش مبكراً جدًا. وفي عام 1798 تولى قيادة إحدى فرق الجيش الشرقي الخمس خلال الحملة على مصر. فهذا هو المكان الذي اعتنق فيه الإسلام، وتسمى باسم عبد الله. وبعد عودة بونابرت السريعة إلى فرنسا في عام 1799 واغتيال الجنرال كليبر (Kléber) في العام التالي، خلفه مينو كقائد عام للجيش المصري.

قضية إغناك غولدزيهر (Ignác Goldziher)

تأثر جولدزيهر، المستشرق اليهودي الهنغاري الشهير، بالإسلام تأثرا شديدا حتى أنه، في فترة من حياته، أصبح يعتبر نفسه مسلماً حقيقيا. لقد بدأ اعجابه بالدين الإسلامي عندما سافر إلى الشرق حوالي عام 1873، عندما كان عمره لا يتجاوز 23 سنة. فقام بزيارة اسطنبول وبيروت ودمشق والقدس والقاهرة حيث أصبح أول أوروبي يلتحق بجامعة الأزهر. وفي دمشق، انضم جولدزيهر إلى مجموعة من الإصلاحيين الشباب، وفي القاهرة ارتبط بجمال الدين الأفغاني وأصبح صديقا له.

يسترجع جولدزيهر ذكرياته قائلا «خلال تلك الأسابيع، دخلت حقًا في روح الإسلام، لدرجة أنني أصبحت مقتنعا تماما بأنني مسلم وأنني أدركت بحكمة أنه الدين الوحيد القادر، حتى في تنظيمه وتجلياته العقائدية والرسمية، على إرضاء روح فلسفية. كان مبتغاي أن أسمو باليهودية إلى نفس الدرجة من العقلانية. لقد علمتني التجربة أن الإسلام هو الديانة الوحيدة التي ترفض الخرافات وترهات الوثنية لا بالعقلانية بل بالعقيدة المستقيمة نفسها»[1].

(1) Tagebuch, Ignác Goldziher, Brill, Leyde, 1978, p. 59.

هكذا يعترف جولدزيهر بأنه أصبح مسلماً، لكن دون التخلي عن يهوديته. ويصف مشاعره أثناء دراسته في الأزهر قائلا: «لقد تحولت طريقة تفكيري بالكامل إلى الإسلام كما أن تعاطفي الذاتي دفعني في هذا الاتجاه. كنت أسمي توحيدي إسلاما ولم أكن أكذب عندما أقول إنني مؤمن بما جاء به محمد. والمصحف الذي بحوزتي يشهد على ميلي الداخلي نحو الإسلام. وكان أساتذتي يتطلعون بحسن نية إلى لحظة إعلان اعتناقي للإسلام»[1].

تأثير القرآن في النفوس

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُود ُالَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ (الزمر: 23).

لا يمكن لمن لا يعرف اللغة العربية، اللغة التي نزل بها القرآن، أن يفهم تأثير النص القرآني ووقعه في النفوس. وقد أدرك ذلك بعض علماء الإسلام مثل المستشرق جوزيف تشارل مادروس (Joseph-Charles Mardrus) (1868-1949) الذي كتب في مقدمة ترجمته للقرآن: «أما بالنسبة لأسلوب القرآن، فهو الأسلوب الشخصي لله. وبما أن الأسلوب هو جوهر الكائن فإنه لا يمكن أن يكون هنا إلا إلهيًا. وبالفعل، فحتى أكثر الكتاب تشككا لم يسلم من الافتتان به. يضاف إلى ذلك أن أسره لقلوب ثلاثمئة مليون مسلم في العالم بلغ درجة جعلت المبشرين الأجانب يجمعون على أنهم فشلوا فشلا ذريعا في تحقيق حالة واحدة مثبتة من الردة عن الإسلام [...] ذلك أن هذه اللغة، التي يسمعها البدو العرب لأول مرة كانت نثرًا جديدًا تماما،

(1) المرجع نفسه ص 71.

رائعا للغاية، منتظم الإيقاع والسجع وذات وقع عميق دائم على أي سامع يفهم اللغة العربية»[1].

كتب الشاعر الألماني غوته (Goethe)، الذي درس اللغة العربية، عن أسلوب القرآن قائلا: «كما أننا كلما قرأناه (القرآن) يصدمنا منذ البداية. ولكن فجأة نشعر بالإغراء وتتملكنا الدهشة وينتهي بنا الأمر ونحن في غاية الإعجاب به. له أسلوب يتماشى مع محتواه وغرضه، يتسم بالصرامة والفخامة والفظاعة والسمو الأبدي. سيظل لهذا الكتاب وقع عميق في قابل الأيام»[2].

لذا كان المعاصرون للنبي ﷺ مفتونين بأسلوب القرآن: «في المرة الأولى التي سمع فيها عتبة ابن ربيعة هذه اللغة النابضة بالحيوية المنمقة والمليئة بالإيقاع، على الرغم من أنها غير منظومة عاد إلى قومه مندهشًا أشد ما يكون الاندهاش فسألوه قائلين: «ما ذا جرى يا ترى؟» فأجاب: «ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعت مثله قَطٌّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، إنه كلام ينفذ إلى الصميم»[3].

لقد كان محمد ﷺ نفسه شديد التأثر بالقرآن. فقد ورد عن الصحابي ابن مسعود أن النبي ﷺ قال له ذات يوم: «اقرأ علي القرآن». فوجئ الصحابي وقال: «يا رسول الله! أأقرا عليك القرآن وعليك نزل؟» قال: «إني أحب أن

---

(1) Le Koran qui est la guidance et le différenciateur. Traduction littérale et complète des sourates essentielles,Joseph-Charles Mardrus, Eugène Fasquelle,Paris, 1926, p. 19-20.

(2) Divan Occidental-oriental, Goethe, 1930.

(3) Mahomet et les origines de l'islamisme, Ernest Renan, in Revue des Deux Mondes, 1851.

أسمعه من غيري». بعد ذلك أخذ الصحابي يقرأ سورة النساء حتى وصل إلى قوله تعالى: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا»، فقال النبي: «حسبك» فنظر فإذا عيناه تذرفان[1].

سنقرأ في الجزء الرابع من هذا الكتاب المزيد عن التأثير الذي يمارسه القرآن والإسلام على بعض الناس حتى يدفعهم ذلك إلى اعتناق هذا الدين الذي يتعرض لكثير من الانتقاد.

(1) البخاري، 4781.

الفصل الرابع
الرد على بعض الانتقادات الموجهة للإسلام

الانتقادان الرئيسيان الموجهان للإسلام هما عنفه المفترض وموقفه من المرأة. وبالتالي فإن الإسلام – على حد هذا الزعم – دين إرهاب وانحياز ضد المرأة. ولنا عودة، لإثبات بطلان هذه الادعاءات، إلى نصوص الإسلام التي سنقارنها مع نصوص الكتاب المقدس.

1. الإسلام دين عنيف

هناك مثالان تاريخيان معروفان يكفيان لإظهار زيف هذا الادعاء. أولاً، استيلاء عمر، الخليفة الثاني للإسلام على القدس، مقارنة بغزو الصليبيين للمدينة المقدسة. يصف غوستاف لو بون (Gustave Le Bon) دخول عمر إلى القدس قائلا: «يوضح سلوك الخليفة عمر في القدس الطريقة اللطيفة التي يعامل بها الغزاة العرب المهزومين والتي هي على النقيض تماما مع أساليب الصليبيين، في نفس المدينة، بعد مرور قرون على تلك الواقعة. اختار عمر ألا يدخل المدينة المقدسة إلا مع عدد قليل من رفاقه. وطلب من البطريرك صفرونيوس (Sophronius) مرافقته في الزيارة التي أراد القيام بها إلى جميع الأماكن الإسلامية المقدسة، ثم أعلن للسكان أنهم آمنون، وأن أي سوء لن يلحق لا بممتلكاتهم ولا بكنائسهم، وأن المسلمين لن يؤدوا صلواتهم في الكنائس المسيحية. كما أن سلوك عمر في مصر لم يكن أقل احتراما. فقد اقترح على السكان حرية دينية كاملة، وعدالة نزيهة ينعم بها الجميع، وحرمة لممتلكاتهم، واستبدال الضرائب التعسفية المفرطة التي فرضها الأباطرة اليونانيون بجزية سنوية تبلغ 15 فرنكا لكل فرد. كان سكان الأقاليم راضين عن هذه المقترحات لدرجة أنهم سارعوا إلى الانضمام إلى

المعاهدة ودفع الجزية مقدماً. كان العرب يحترمون حق الاحترام الاتفاقيات المقبولة، وصاروا موطئي الاكناف إلى حد كبير تجاه السكان الذين تعرضوا في السابق لمضايقات العملاء المسيحيين التابعين لإمبراطور قسطنطينية، حتى أن مصر كلها تبنت دينهم ولغتهم بشغف وحماس. تلكم، وأكرر ذلك، إحدى هذه النتائج التي لا تنال أبدا بالقوة. لم يستطع أي من الذين سيطروا على مصر قبل العرب أن يحصلوا عليها»[1].

المثال الثاني يتعلق بالأندلس، التي ظلت تحت الحكم الإسلامي لمدة ثمانية قرون قبل فترة الاسترداد. يقول عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لو بون (Gustave Le Bon): «شهد القرن التاسع الهجري السقوط الكامل لقوة وحضارة العرب في إسبانيا، بعد أن حكموها مدة تقارب ثمانمائة سنة. وفي عام 1492 استولى فرديناند (Ferdinand) على غرناطة، عاصمتها الأخيرة، وشرع في عمليات الطرد الجماعي والمذابح التي استمرت مع خلفائه. وسرعان ما قُتل ثلاثة ملايين من العرب أو طُردوا وتلاشت إلى الأبد الحضارة الرائعة التي شيدوها وأشرقت على أوروبا طوال ثمانية قرون»[2].

والآن اليكم بعض النصوص التوراتية، من بين أخرى كثيرة، تحرض بوضوح على العنف والترهيب:

1. «وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، بَلْ تُحَرِّمُهَا تَحْرِيمًا: الْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، كَمَا أَمَرَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ»[3].

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

(2) المرجع نفسه.
(3) التثنية 20، 16-17.

2. «وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ»[1].

3. «فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا .لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ»[2].

4. «فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا»[3].

5. «اعْبُرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَرَاءَهُ وَاضْرِبُوا. لاَ تُشْفُقْ أَعْيُنُكُمْ وَلاَ تَعْفُوا .اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ»[4].

6. «وَتُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ أَمَامَ عُيُونِهِمْ، وَتُنْهَبُ بُيُوتُهُمْ وَتُفْضَحُ نِسَاؤُهُمْ؟»[5]

7. «حَتَّى إِنَّ كُلَّ مَنْ لاَ يَطْلُبُ الرَّبَّ إِلهَ إِسْرَائِيلَ يُقْتَلُ مِنَ الصَّغِيرِ إلى الْكَبِيرِ، مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ»[6].

8. «تُجَازَى السَّامِرَةُ لأَنَّهَا قَدْ تَمَرَّدَتْ عَلَى إِلهِهَا. بِالسَّيْفِ يَسْقُطُونَ. تُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَالْحَوَامِلُ تُشَقُّ»[7].

---

(1) يشوع 6، 21.
(2) العدد 31، 17-18.
(3) صموئيل الأول 15، 3.
(4) حزقيال 9، 5-6.
(5) أشعياء 13، 16.
(6) أخبار الأيام الثاني 15، 13.
(7) هوشع 13، 16.

9. «وَأَخْرَجَ الشَّعْبَ الَّذِينَ بِهَا وَنَشَرَهُمْ بِمَنَاشِيرِ وَنَوَارِجِ حَدِيدٍ وَفُؤُوسٍ. وَهكَذَا صَنَعَ دَاوُدُ لِكُلِّ مُدُنِ بَنِي عَمُّونَ. ثُمَّ رَجَعَ دَاوُدُ وَكُلُّ الشَّعْبِ إِلى أُورُشَلِيمَ»[1].

في هذه النصوص من العنف ما قد لا يتخيله المسيحيون. هيا بنا نقارنها بهذه التوصيات التي أعطى النبي ﷺ لأصحابه الذين كانوا في غزوة: «لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[2].

كتب روجر دو باسكييه (Roger du Pasquier) حول هذا الموضوع قائلا: «على غرار النبي ﷺ الذي فرض على المقاتلين المسلمين احترام العدو المهزوم وغير المسلح، فقد سعى هؤلاء، عندما اضطروا للذهاب إلى الحرب، إلى جعلها إنسانيّة قدر الإمكان. وبالفعل فقد ساهم موقفهم المعتدل والمتسامح كثيراً في كسب تعاطف السكان في الأمصار التي غزتها جيوشهم بل وفي العديد من المناطق، كما في بعض مدن الإمبراطورية البيزنطية حيث تم الترحيب بهم كمحررين. وفي جميع البلدان التي تم فتحها، وافق الإسلام دائمًا على وجود مجموعات عديدة ومهمة تعتنق ديانات أخرى. لكن في الاتجاه المعاكس، عندما احتل المسيحيون إسبانيا على سبيل المثال، تعرض جميع المسلمين للذبح أو تم ردهم عن الإسلام بالقوة أو طردهم»[3].

جاء في وثيقة من أمانة الفاتيكان لغير المسيحيين وتحمل عنوان «توجيهات من أجل حوار بين المسيحيين والمسلمين (1970)» أن «الجهاد ليس بأي حال من الأحوال هو خريم التوراة (kherem biblique) ولا هو بالذي يسعى إلى الإبادة إنما يسعى إلى بسط حقوق الرب والعباد

(1) أخبار الأيام الأول 20، 3.
(2) مسلم، 1731.
(3) Découverte de l’islam, Du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 65.

حتى تشمل أراض جديدة». كما أنه أيضًا وسيلة يستخدمها المؤمنون للدفاع عن أنفسهم: «وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ»[1] وتعني عبارة «وَلاَ تَعْتَدُواْ»، حسب ما يقول المفسرون المسلمون، تفادي تشويه المقاتلين الأعداء وقتل النساء والأطفال والمسنين والرهبان والنُسَّاك أو قتال غير المحاربين أو قتل الحيوانات أو حرق الأشجار.

أضاف إلى ذلك أن المسلمين مطالبون بقبول أي عرض للسلام يتقدم به العدو. قال تعالى: «فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا»[2]. ويخاطب جل وعلا رسوله ﷺ هكذا: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»[3]. فالله يدعو المسلمين إلى معاملة خصومهم الذين يمتنعون عن قتالهم معاملة حسنة فيقول جل من قائل: «لا يَنهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذينَ لَم يُقاتِلوكُم فِي الدّينِ وَلَم يُخرِجوكُم مِن دِيارِكُم أَن تَبَرّوهُم وَتُقسِطوا إليهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطينَ»[4].

وردت كلمة «السلام» ومشتقاتها على الأقل 140 مرة في القرآن، في حين أن كلمة «الحرب» ومشتقاتها لم ترد إلا 6 مرات. وهذا يكفي لتبديد بعض الأفكار المسبقة عن الإسلام. وربما تساءل البعض عن سبب كثرة ما يرتكب اليوم من عنف باسم الإسلام. ويمكن تقديم شرحين لذلك، أحدهما

(1) البقرة، 190.
(2) النساء، 90.
(3) الأنفال، 61.
(4) الممتحنة، 8.

يكمل الآخر. أما الأول فهو جهل بعض المسلمين، وخاصة الشباب منهم بالإسلام وبتعاليمه بينما الثاني هو توظيف هذا الجهل لأغراض سياسية. وبطبيعة الحال فإن داعش هي المثال الأوضح لذلك. ولا يمكن لأحد اليوم أن ينكر حقيقة أن الدولة الإسلامية التي أعلنت نفسها إنما هي من صناعة أمريكا لمحاربة النظام السوري وحلفاءه. ودعماً لمزاعمنا، سنذكر شهادات من شخصيات يصعب اتهامها بالدفاع عن الاسلام.

ولنبدأ بالجنرال فينسنان ديبورت (Vincent Desportes)، الأستاذ المشارك في معهد الدراسات السياسية في باريس والذي أعلن يوم 17 ديسمبر 2014 أمام لجنة الشؤون الخارجية للدفاع والقوات المسلحة بمجلس الشيوخ في معرض حديثة عن داعش: «من هو الطبيب فرانكنشتاين (Frankenstein) الذي صنع هذا الوحش؟ لنقل ذلك بصراحة لما يترتب عليه من عواقب: إنها الولايات المتحدة. بدافع المصلحة السياسية على المدى القصير، ساهم فاعلون آخرون – منهم من يتظاهر بالصداقة للغرب – ومنهم فاعلون آخرون، بدافع المجاملة أو قصدا وعمدا، في هذا الصناعة وتعزيزها. لكن المسؤولين الرئيسيين هم الولايات المتحدة». كما أن الجنرال ويسلي كلارك (Wesley Clark)، القائد السابق للقوات المسلحة التابعة لحلف الناتو أدلى بتصريح آخر لا لبس فيه حيث قال لقناة سي إن إن (CNN) التلفزيونية الأمريكية في 11 فبراير 2015 أن الدولة الإسلامية كانت صناعة أمريكية إسرائيلية لإلحاق الهزيمة بحزب الله.

والأهم من هذا كله هو أن النبي ﷺ أعلن، حتى قبل مجيئ هؤلاء، أن رجالا وصفهم بأنهم «شباب بلا عقول»، «أسرع إلى قتل المسلمين منهم إلى قتل الوثنيين»، وهو كلام كان بالإمكان إضافته لما جاء في الفصل

السابق كدليل على صحة رسالة النبي ﷺ بسبب صدق تنبؤاته. وللتذكير فإن أكثر من 90٪ من ضحايا الإرهاب الإسلامي هم من المسلمين. وهكذا ووفقًا لما أوردت مؤسسة الابتكار السياسي، وهي مؤسسة فكرية فرنسية درست الهجمات الإسلامية حول العالم بين عامي 1979 و2019، فإن 91.2٪ من ضحايا الإرهاب الإسلامي هم من المسلمين.

2. الإسلام دين منحاز ضد المرأة

كانت إحدى التوصيات الأخيرة التي أعطى النبي ﷺ لأصحابه في حجة الوداع هي: «استوصوا بالنساء خيرا»[1]. وخلال حياته، ظل يحث المسلمين على حسن معاشرة نسائهم، قائلاً: «خيركم خيركم لأهله»[2].

دعونا نجري مقارنة بين كلام النبي ﷺ عن المرأة وكلام بولس عنها وهو ما سيفاجئ الكثيرين:

1. «وَلكِنْ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَأْسَ كُلِّ رَجُل هُوَ الْمَسِيحُ، وَأَمَّا رَأْسُ الْمَرْأَةِ فَهُوَ الرَّجُلُ، وَرَأْسُ الْمَسِيحِ هُوَ اللهُ»[3].
2. «لِتَصْمُتْ نِسَاؤُكُمْ فِي الْكَنَائِسِ، لأَنَّهُ لَيْسَ مَأْذُونًا لَهُنَّ أَنْ يَتَكَلَّمْنَ، بَلْ يَخْضَعْنَ كَمَا يَقُولُ النَّامُوسُ أَيْضًا»[4].
3. «وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ»[5].

(1) مسلم، 3602.
(2) الترمذي، 1162.
(3) كورنثوس الأول 11، 3.
(4) كورنثوس الأول 14، 34.
(5) كورنثوس الأول 11، 7-9.

يرى العهد القديم أيضًا أن المرأة أقل شأناً من الرجل: «إِذَا حَبِلَت امْرَأَةٌ وَوَلَدَتْ ذَكَرًا، تَكُونُ نَجِسَةً سَبْعَةَ أَيَّامٍ [...] وَ إِنْ وَلَدَتْ أُنْثَى، تَكُونُ نَجِسَةً أُسْبُوعَيْنِ»[1].

أما بالنسبة للشريعة الإسلامية فإنها لا تفرق بين الذكر والانثى إذ بعد النفاس تتوقف المرأة عن الصلاة لمدة أقصاها أربعون يومًا، بصرف النظر عن جنس مولودها. ومن الأدلة القاطعة على أن الإسلام ليس منحازا ضد النساء وجود نسبة كبيرة منهن من بين المعتنقين للإسلام حيث يمثل عددهن حوالي ثلاثة أرباع هؤلاء حتى إنه يوجد من بينهن مناضلات مناصرات لحقوق المرأة مثل دومينيك ثيسن (Dominique Thewissen)، مؤلفة كتاب معتنقة للإسلام ومناضلة مناصرة لحقوق المرأة (Psy, convertie à l'islam et féministe) أو سوزان جانيت كارلاند (Susan Janet Carland)، أستاذة جامعية أسترالية ومنعشة برامج تلفزيونية.

ولكن هل هذا مدهش حقا؟ ألم يعط الإسلام للمرأة، بعد مجيئه، من الحقوق ما لم يعطها أي دين أو حضارة؟ لنأخذ على سبيل المثال الحالة الرمزية للميراث والتي غالباً ما يُتهم الإسلام بشأنها بالتمييز. فالشريعة العبرية تستثني النساء من الميراث، كما يظهر في هذا الفصل من التوراة: «وَتَقُول لِبَنِي إِسْرَائِيل: أَيُّمَا رَجُل مَاتَ وَلَيْسَ لهُ ابْنٌ تَنْقُلُونَ مُلكَهُ إِلى ابْنَته .وَإِنْ لمْ تَكُنْ لَهُ ابْنَةٌ تُعْطُوا مُلكَهُ لإِخْوَته .وَإِنْ لمْ يَكُنْ لهُ إِخْوَةٌ تُعْطُوا مُلكَهُ لأَعْمَامه. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لأَبِيه إِخْوَةٌ تُعْطُوا مُلكَهُ لنَسِيبِه الأَقْرَب إِليْه مِنْ عَشِيرَته فَيَرِثُهُ. فَصَارَتْ لِبَنِي إِسْرَائِيل فَرِيضَةَ قَضَاءٍ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى»[2].

(1) اللاويين 12، 2-5.
(2) العدد 27، 8-11.

إذن فالبنت لا ترث إلا إذا كان الميت لم يترك ولدا ذكرا. والأخت لا حق لها في الميراث، حتى في غياب الإخوة. أما في القرآن فالبنت لها حصة من الميراث، حتى في حال وجود الأولاد، وهو ما يجعل الشريعة الإسلامية من أكثر الشرائع التزاما بالمساواة في ذلك الوقت. ولكن منتقدي الإسلام يقولون إن الفتاة لا تحصل إلا على نصف ما يحصل عليه الذكر: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ»[1]. إنهم ينسون إكمال قراءة الآية حيث يأتي فيها «وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ»[2]. الحقيقة أن المرأة، في معظم الحالات، ترث نفس الحصة التي يرثها الرجل. بل إنها، في عشر حالات، تنال أكثر مما يناله الرجل. فعلى سبيل المثال فإن المرأة التي تتوفى وتترك زوجا بعدها ـ فإنه يتلقى ربعًا - وبنتا - فإنها تحصل على نصف الميراث. بينما الرجل لا يحصل على أكثر من المرأة إلا في أربع حالات. بل إن هناك حالات ترث فيها المرأة على حساب الرجل الذي يجد نفسه محروما تماما من الميراث.

كانت هناك، أيام نزول القرآن، قوانين سارية لدى الفرنجة وتعرف بالقوانين السالكية (lois saliques)، تم وضعها، وفقًا لما نقله المؤرخون، في الفترة من بداية القرن الرابع وحتى القرن السادس. تتناول المادة 62 انتقال الأراضي التي تملكها مجموعة عائلية حيث ينص القانون على أن أي جزء من الميراث لا ينبغي أن يؤول إلى المرأة، وإنما يصبح كله من نصيب الذكور. وبعد عدة قرون، خلال القرن الرابع عشر، تم توظيف هذا النص من قبل فقهاء من أسرة كابيتيان (Capétiens) الملكية من أجل تبرير منع النساء من اعتلاء عرش فرنسا. وبشكل عام، فقد كان لهذا القانون تأثير كبير على التشريعات الأوروبية في العصور الوسطى.

(1) النساء،11.

(2) النساء،11.

وفي كتابه المسمى حضارة العرب قام غوستاف لو بون (Gustave Le Bon) بتصحيح العديد من الأحكام المسبقة حول الإسلام والمرأة. وهكذا كتب: «لم يقتصر الإسلام على مجرد قبول تعدد الزوجات الذي كان موجودًا قبله بل مارس تأثيرا كبيرا على وضعية المرأة في الشرق. وبعيداً من انتقاص قيمتها، كما يقال ويكرر دائما، فقد قام، على عكس ذلك، بالارتقاء بوضعيتها الاجتماعية وبالدور المنوط بها. وكما أوضحْتُ عند دراسة قانون الميراث لدى العرب فإن القرآن يعاملها معاملة أفضل من تلك التي تعاملها بها قوانيننا الأوروبية. إنه بلا شك يجعل من الممكن الانفصال عنها كما هو حال القوانين الأوروبية التي تعترف بالطلاق؛ لكنه ينص صراحة على «حق المطلقة في الحصول على تمتع بالمعروف». ولعل أفضل طريقة لإدراك مدى تأثير الإسلام على وضعية المرأة في الشرق هي معرفة ما كان عليه حالها قبل القرآن وما آل إليه بعده»[1].

وفي محل آخر من كتابه يقول: «إن العرب، كما رأينا، هم الذين اسْتَلهم منهم سكان أوروبا قوانين الفروسية والمروءة والشهامة مع المرأة التي تفرضها هذه القوانين. وبالتالي فليست المسيحية، كما يعتقد بشكل عام، بل الإسلام هو الذي نهض بالمرأة وانتشلها من الوضعية المنحطة التي كان محكوم عليها بالبقاء فيها حتى الآن. فأسياد الفترة الأولى من العصور الوسطى، رغم تمسكم بالمسيحية، لم يولوها أي اعتبار. ومن يقرأ سجلاتنا القديمة يدرك ذلك بما لا يدع مجالا للشك. وقبل أن يعلم العربُ المسيحيين كيف يعاملوا النساء بشهامة ومروءة كان محاربونا الأفظاظ أيام الإقطاعية يعاملونهن بخشونة وفظاعة»[2].

---

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

(2) المرجع نفسه.

وقد كرر في الختام فكرته قائلاً: «يمكننا إذن أن نستنتج، كما قلنا سابقا، أن الإسلام لم يحط من شأن المرأة أبدا بل رفع من قدرها بعيدا. ثم إننا لسنا أول من أيد هذا الرأي فقد قال به أيضا كوسين دي بيرسيفال (Caussin de Perceval)، وبعده السيد بارثيلي سانت هيلير (Barthélemy Saint-Hilaire). لقد رفع الإسلام مكانة المرأة، ويمكننا أن نقول إنه أول ديانة تفعل ذلك وهو ما يمكن إثباته بسهولة من خلال إظهار ما تعرضت له المرأة من سوء معاملة في جميع الأديان ولدى جميع الشعوب التي سبقت العرب. لقد ذكرنا ذلك في كتابنا الأخير ويكفينا أن نكرر ما قلنا هناك لإقناع القارئ. كان الإغريق ينظرون عمومًا إلى النساء على أنهن مخلوقات منحطة لا تصلح إلا لرعاية الأسرة والانجاب. ومتى ما أنجبت إحداهن كائنًا مشوها يتم التخلص منها. وفي هذا الصدد يقول السيد تربلونج (Troplong) في «مدينة سبارتا (Sparte) كانوا يقتلون هذه المخلوقة المسكينة التي لا تعطي للدولة املا في الحصول على جندي نشط وسليم البنية». ويتابع المؤلف نفسه قائلا «وعندما تكون المرأة مِخْصابا يكون من الممكن إعارتها من زوجها لتلد للوطن أطفالا من سلالة أخرى». ثم إنه حتى في أكثر فترات الحضارة إشراقًا، لم يكن الإغريق يقدرون تماما إلا الهتاريات (hétaïres). فهن الوحيدات اللائي حصلن على مستوى من التعليم. لقد تحدث جميع المشرعين القدامى عن القسوة التي تلاقيها النساء. كما أن مجموعة القوانين الهندوسية تعاملهن معاملة سيئة للغاية إذ تنص على أن «المصير النهائي والرياح والموت والمناطق الجهنمية والسم والثعابين السامة والنار التي لا تبقي ولا تذر كل أولئك ليسوا بأسوأ من النساء». وليس الكتاب المقدس بأكثر شفقة ورحمة على المرأة. إنه يعتبرها «أَمَرّ مِنَ الْمَوْتِ»، و«الصَّالِحُ قُدَّامَ اللّهِ يَنْجُو مِنْهَا»، «من يرضي الله سيهرب منها»، «رَجُلاً وَاحِداً بَيْنَ

أَلْفٍ وَجَدْتُ. أَمّا امْرَأَةً فَبَيْنَ كُلِّ أُولَئِكَ لَمْ أَجِدْ!» وليست أمثال الشعوب المختلفة بأكثر محاباة للمرأة: يقول الصينيون إن «عليك أن تستمع إلى زوجتك وألا تصدقها». ويرى الروسي «أنه في عشر نساء، لا توجد الروح إلا في واحدة فقط». وينصح الإيطالي باستخدام المهماز للحصان الجيد كما للحصان السيئ والعصا للمرأة الطيبة كما للمرأة السيئة. ويوصي الاسباني بالابتعاد عن المرأة السيئة وبعدم الثقة في المرأة الطيبة. ثم إن جميع القوانين من هندوسية ويونانية ورومانية ومعاصرة تعامل النساء كأمة أو كطفل. يقول قانون مانو (Manou): «تخضع المرأة خلال طفولتها لوالدها وأثناء شبابها لزوجها، وإذا مات زوجها، لأبنائها، وإذا لم يكن لديها أبناء، لأقارب زوجها لأنه لا ينبغي للمرأة أن تستقل بنفسها كما تشاء». وتنادي القوانين اليونانية والرومانية إلى حد كبير بنفس الشيء. ففي روما، كانت سلطة الرجل على زوجته مطلقة؛ لقد كانت أَمَة لا شأن لها في المجتمع ولا يحكم عليها غير زوجها الذي له عليها الحق في الحياة والموت. أما القانون اليوناني فلا يعامل النساء معاملة أفضل فهو لا يعترف لها بأي حق ولا حتى بالحق في الميراث»[1].

يؤكد الكاتب الأيرلندي برنارد شو (Bernard Shaw) (1856–1950)، الحاصل على جائزة نوبل للآداب في عام 1925 أن الشريعة الإسلامية أرقى من التشريعات الأوروبية في عصره: «تعاليم النبي محمد حول مكانة المرأة والاعتبار الممنوح للفتيات وكذا أيضا الرفق بالحيوانات كل ذلك متقدم جدا مقارنة بالرؤية المسيحية الغربية بل وحتى بالمقارنة مع الرؤية العصرية»[2].

(1) المرجع نفسه.

(2) Developing Human Rights Jurisprudence, Commonwealth Secretariat, 5/159.

الجزء الرابع
انجازات نبي



مقدمة

يلخص الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين (Alphonse de Lamartine) (1790–1869) بكلمات قليلة أوصاف محمد ﷺ: «فيلسوف وخطيب ورسول ومشرع ومحارب وحامل أفكار ومُحيٍ للعقائد المنطقية لعبادة خالية من الصور ومؤسس لعشرين إمبراطورية أرضية وإمبراطورية روحية. ذلكم هو محمد! على جميع المقاييس التي تقاس بها عظمة الإنسان، أي رجل كان أعظم منه؟»[1]

يجيب الكاتب الأمريكي مايكل هارت (Michael Hart)، في كتابه «المائة: ترتيب الأشخاص الأكثر نفوذاً في التاريخ» (The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History)، على سؤال لامارتين (Lamartine) جوابا صريحا يضع من خلاله محمدا ﷺ على رأس قائمة الرجال والنساء الأكثر نفوذا في تاريخ البشرية، قبل إسحاق نيوتن وعيسى عليه السلام وبوذا وكونفوشيوس (Confucius) أو بول طرسوس. وقد كتب يقول: «قد يتفاجأ بعض القراء وهم يرونني أضع محمدا على قمة الشخصيات الأكثر نفوذاً في العالم، وربما احتج آخرون على اختياري. ومع ذلك، فإن محمدا هو الرجل الوحيد في العالم الذي نجح بامتياز على جبهتين: الدينية والدنيوية»[2].

(1) Histoire de la Turquie, Paris, 1854, vol. I, livre 1, p. 280.

(2) A Ranking of the Most Influential Persons in History, Michael Hart, 1978.

كما أن الشاعر الألماني غوته (Goethe)، الذي يعتبر أن محمدا ﷺ نبي بامتياز[1]، يقر بعظمة رسالته: «إنها رسالة عظيمة تلك التي جاء بها محمد. ثم إنه من خلال مفهوم توحيد الواحد، أخضع الكون بأكمله»[2].

بعدما تناولنا في الجزء السابق تأثير رسالة الإسلام على الأفكار والأفراد، سنقف في هذا الجزء عند تأثير الإسلام على التاريخ، لا سيما من خلال الفتوحات التي حققها المسلمون في معظم أنحاء العالم القديم، ومن خلال ما جلبته الحضارة الإسلامية إلى الغرب.

(1) Mahomet l>européen, John Tolan, Albin Michel, Paris, 2018, p. 9.

(2) Divan occidental-oriental, Goethe, 1930.

الفصل الاول
توسع الإسلام في أيامه الأولى

1. الفتوحات اللامعة

في كتابه المرجعي «حضارة العرب»، يصف غوستاف لو بون (Gustave Le Bon)، سرعة الفتوحات الإسلامية التي بدأت بعد وفاة النبي محمد ﷺ: «حصلت الفتوحات الأولى للخلفاء في بابل القديمة التي كانت آنذاك تحت سلطة فارس، وفي سوريا التي كان يحكمها وقتئذ إمبراطور القسطنطينية، هرقل (Héraclius). بدأت الفتوحات في عهد الخليفة الأول، الذي لم يعمر طويلا وواصلها عمر الذي دخل بنفسه القدس. أما سوريا، التي احتلها الرومان لمدة سبعة قرون، فقد استعيدت منهم خلال سبع سنوات. وسرعان ما خضعت بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس لجيوش عمر: لقد كان شهران كافيان للإطاحة بعرش آخر الساسانيين والاستيلاء على إمبراطورية التي تعود لعدة قرون. وفي الغرب، حققت القوات التي أرسلها عمر، تحت قيادة عمرو، الشاعر والمحارب، نجاحا سريعا، وسرعان ما تم فتح مصر والنوبة (Nubie)، وعند وفاة عمر سنة 644، كانت الإمبراطورية العربية، التي لم يمض عليها إذ ذاك إلا عشرون سنة، قد أصبحت مترامية الأطراف جدًا».

وهكذا يلخص عالم الاجتماع الفرنسي أول الفتوحات الإسلامية:» في نهاية القرن الأول للهجري، أصبحت راية النبي ترفرف على العالم من الهند إلى المحيط الأطلسي ومن القوقاز إلى الخليج الفارسي كما أن واحدة من أكبر المملكات المسيحية في أوروبا وإسبانيا كانت خاضعة لقانون محمد»[1].

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

تتحدث المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاجليري (Laura Veccia Vaglieri) عن توسع لم يسبق له مثيل أبهر المعلقين وأخرسهم: «هذه ظاهرة لا مثيل لها في التاريخ. ومن الصعوبة بمكان تقدير السرعة التي حقق بها الإسلام كل هذه الفتوحات وكيف تحول دين بعض الرجال المتحمسين إلى دين الملايين من الأفراد. المسألة ما تزال لغزًا يحير العقل البشري الذي غدا قاصرا عن إدراك كُنْه القوى السرية التي مكّنت هؤلاء البدو من الانتصار على شعوب متفوقة عليهم من حيث الحضارة والثروة والتجربة والقدرة على شن الحروب»[1].

فحتى رجال الدين لم يجدوا بدا من الاعتراف بما حققه الإسلام من انتصار أولي. فهذا ميشيل ديربيني (Michel d’Herbigny) (1880–1957)، الأسقف الكاثوليكي والمستشرق، لم يتمالك إخفاء دهشته حين كتب: «الحق أن نجاحات محمد مذهلة فهي تفوق بكثير، من حيث شأوها وسرعتها ومدتها، نجاحات نابليون. عبقرية في الفتح الزمني والروحي حولت في غضون سنوات قليلة الجانب السياسي للكون المعروف وجغرافيته الدينية واستعداد النفوس التي تزداد باطراد حسب وتيرة بدأت قبل ثلاثة عشر قرنًا ليصبح عددها يحسب بالملايين بل وعشرات الملايين. الامبراطوريتان العظيمتان، المتنافستان والعلمانيتان اللتان سيطرتا على العالم واللتان وصلتا بعد ذلك إلى أقصى حد من امتدادهما وقدرتهما – قوة الفرس وقوة روما البيزنطية – اهتز عرشاهما عند الصدمة الأولى وتعرضتا لضربة قاتلة انهارا بعدها فورا الواحدة تلو الأخرى بعد نوبة ألم

(1) An Interpretation of Islam, Laura Veccia Vaglieri, Goodword Books, New Delhi, 2004, p. 18.

طويلة. في الوقت نفسه، تلاشت الوثنية الشركية وحل محلها التوحيد في بقاع شاسعة ظلت تحت سيطرتها آلاف السنين. ولكن، وفي الوقت نفسه، خسرت المسيحية أمصارا في غرب آسيا حيث ولدت، وخسرت مصر وشمال إفريقيا وإسبانيا والبلقان بعد ذلك بفترة وجيزة»[1].

الحقيقة أن المراكز التاريخية للمسيحية تساقطت الواحد تلو الآخر. وهكذا سقطت أنطاكية (Antioche) سنة 636، تلاها القدس سنة 638 وبعد ذلك دارت الدائرة على الإسكندرية سنة 642 ثم جاء دور القسطنطينية. ولم ينج، من البطريركيات الخمس، من هذا المد الإسلامي إلا روما أساسا بسبب موقعها الجغرافي.

2. أسباب التوسع

هل انتشر الإسلام بالسيف؟

كثيرون هم المتخصصون من أمثال غوستاف لو بون (Gustave Le Bon) الذين يرفضون المقولة المنتشرة على نطاق واسع في الغرب والتي تدعي أن انتشار الإسلام إنما كان بالسيف. فقد كتب غوستاف لو بون داحضا ذلك الادعاء: «عندما ندرس فتوحات العرب، ونحاول معرفة سر فوزهم سندرك أن القوة ليست هي التي انتشر بها القرآن لأن العرب يتركون دائماً للمهزومين حرية البقاء على دينهم. وإذا كانت بعض الشعوب المسيحية قد اعتنقت دين المنتصر عليها وانتهى بها الأمر إلى تبني لغته فما ذلك إلا لأن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا أكثر إنصافًا معها من أسيادها السابقين ولأن

(1) L'islam naissant, notes psychologiques, Michel d'Herbigny, Pont. Institutum Orientalium Studiorum, 1929, p. 24.

دينهم كان أبسط بكثير من الدين الذي كان عندها. وإذا كانت ثمة حقيقة ثابتة ومؤكدة تاريخيا فهي أن الدين لا يفرض أبدًا بالقوة. فعندما هزم المسيحيون العرب في إسبانيا، فضل هؤلاء جميعهم الموت والطرد على تغيير دينهم»[1].

ويضيف غوستاف لو بون: «أن القرآن لم يُفرض أبدا بالقوة وإنما انتشر بالحجة والإقناع. وعلاوة على ذلك، فمن المعروف أن الإقناع وحده هو الذي دفع شعوبا هزمت العرب في فترات لاحقة، مثل الأتراك والمغول، إلى اعتناق الإسلام. وفي الهند، التي مر بها العرب مرور الكرام انتشر فيها القرآن انتشارا واسعا حتى بلغ المنتسبين للإسلام الآن فيها أكثر من خمسين مليون ويزداد عددهم كل يوم. وعلى الرغم من أن الإنجليز اليوم هم أسياد البلاد وعلى الرغم من أن لديهم هناك جيش عَرَمْرَم من المبشرين الساعين إلى تحويل المسلمين إلى المسيحية، فلا يعرف مثال واحد أكيد يدل على نجاح مساعيهم. وليس انتشار القرآن في الصين بأقل أهمية. وسنرى في فصل آخر مدى سرعة تفاعل الناس مع دعوة الإسلام هناك. وعلى الرغم من أن العرب لم يحتلوا أبداً شبرا واحدا من الإمبراطورية السماوية (الصين)، فالمسلمون اليوم يشكلون أكثر من 20 مليون نسمة من سكانها»[2].

ويرى غوستاف لوبون أيضًا في تشبث البلدان التي تم فتحها بالإسلام، رغم تراجع الإمبراطورية الإسلامية وسقوطها، دليلا على ما ذهب إليه من أن «الحضارة التي أنشأها اتباع محمد كان لها نفس مصير جميع الذين

---

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

(2) المرجع نفسه.

عاشوا قبلها على وجه الكرة الأرضية: ولادة فنمو فانحطاط فموت. لقد التحقت بما سبقها ولكن يد الزمان لم تنل من العقيدة التي جاء بها النبي واليوم نرى تأثيره مستمر بل وأقوى مما كان عليه الحال فيما مضى وفي المقابل نرى أديان أقدم منه تتراجع سيطرتها على النفوس كل يوم، بينما شريعة محمد تحتفظ بكل قوتها»[1].

أما هنري دي كاستري (Henry de Castries) فإنه يرفض الرأي القائل بأن الإسلام قد انتشر بالسيف: «إذا كان دين محمد لم ينتشر إلا بعنف المنتصرين العرب، فإن انتشاره يكون قد توقف مع توقف الفتوحات، في حين أن القرآن لم يتوقف عن الانتشار في جميع أرجاء الكون»[2].

وفي السنوات الأخيرة، كتب ويلفريد هوفمان (Wilfried Hofmann)، السفير الألماني السابق، قائلاً: «يواصل الغرب نشر الأسطورة التي اخترعها والقائلة بأن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف والنار». ويضيف: «من الغريب أن هذه الأسطورة ما تزال قائمة حتى في يومنا هذا، في حين أن الإسلام فقد القوة التي كانت عنده في الأزمنة الغابرة وأن المسلمين، على الرغم من ذلك، متشبثون أكثر من أي وقت مضى بدينهم في دول مثل كشمير والبوسنة والهرسك أو الشيشان. يضاف إلى ذلك، أن الآلاف من الأميركيين والأوروبيين يعتنقون الإسلام كل سنة، ناهيك عن البلدان التي تحولت بالكامل إلى الإسلام دون أن تطأ قدم مقاتل مسلم واحد أرضها! وهكذا فإننا نجد في إندونيسيا وماليزيا وتايلاند والفلبين عددا أكبر من المسلمين مما

---

(1) المرجع نفسه.

(2) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 182.

يوجد في البلدان العربية. وينطبق الشيء نفسه على إفريقيا المسلمة، إذا ما استثنينا شمال إفريقيا»[1].

وتقول لورا فيشيا فاجليري إن «انتشار الإسلام لم يتحقق بالقوة أو بالجهود المستمرة للدعاة، بل بالكتاب الذي حمله المسلمون إلى الشعوب الذين هزموهم والذين تركوا لهم الخيار في قبوله أو رفضه، كتاب الله وكلمة الحق وأعظم معجزة جاء بها محمد إلى المترددين في هذا العالم. وفي حين أن جميع الأديان الأخرى تثقل كاهل أتباعها بعبء ثقيل من المعتقدات التي لا يستطيعون تحملها أحرى فهمها، فإن الإسلام سهل للغاية وبسيط تماما فهو واضح وضوح النهار»[2].

سهولة العقيدة

يبدو أن بساطة العقيدة الإسلامية كان لها الدور الأهم في توسع انتشار الإسلام، كما يؤكد ذلك غوستاف لو بون: «يمكن للإسلام أن يدعي شرف كونه أول ديانة في العالم دعت إلى التوحيد الخالص النقي. وهذا التوحيد الخالص هو الذي استمد منه الإسلام البساطة العظيمة وفي هذه البساطة يكمن سر قوته. دين ميسر للفهم يجنب أتباعه كل أنواع الألغاز والتناقضات التي تزخر بها الأديان الأخرى، والتي غالبًا ما تصدم الذوق السليم. لا يعبد فيه إلا إله واحد وحدانية مطلقة؛ الناس كلهم سواسية أمامه. لديه تعاليم قليلة تجب مراعاتها، من تقيد بها فمكافأته الجنة ومن خالفها فعقابه النار. لا شيء أوضح من هذا ولا أقل غموضًا. أي مسلم، مهما كانت الطائفة

---

(1) Islam 2000, Hofmann, Amana Publications, USA, 1997.

(2) Apologia dell' Islamismo, A. F. Formiggini, Rome, 1925

التي ينتمي إليها، يعرف بالضبط ما يجب عليه أن يؤمن به بل ويمكنه أن يفسر عقيدته في كلمات معدودة. أما المسيحي فليس قادرًا على المجازفة بالتحدث عن الثالوث، أو الاستحالة[1] أو أي لغز آخر مشابه. فعليه أن يكون ملما بعلم اللاهوت وعلى دراية جيدة بجميع حيثياته الجدلية. إن هذا الوضوح الشديد للإسلام، إلى جانب الإحساس بالعدالة والإحسان الذي يطبعه وتشرب منه، ساهم بالتأكيد بشكل كبير في نشره في جميع أنحاء العالم. كما أن هذه الخصال هي التي تفسر سبب تبني جماعات كانت، لفترة طويلة، مسيحية، مثل المصريين في زمن هيمنة أباطرة القسطنطينية، عقيدة النبي بمجرد معرفتها بينما لم نسمع أن أي شعب من أتباع محمد سواء كان غالبا أو مغلوبا، بدل دينه واعتنق المسيحية»[2].

المعاملة الحسنة من جانب الغزاة

يقدم عالم الاجتماع الفرنسي تفسيرا آخر لانتشار الإسلام وبقائه في المناطق التي تم فتحها في بداية التوسع الإسلامي: إنه تسامح الغزاة وعدالتهم. فتراه يكتب: «يعتبر هذا التسامح وحسن المعاملة، المتجاهَلين تماما من قبل المؤرخين، أحد أسباب سرعة انتشار فتوحات العرب والسهولة الواضحة التي ميزت قبول الناس لدينهم ومؤسساتهم ولغتهم في كل مكان. نحن نعرف أن هذه كلها استقرت واستحكمت بين الشعوب التي رحبت بها وقاومت جميع الغزوات بعد ذلك حتى بعد اختفاء العرب من ساحة

(1) تعني، بالنسبة لطائفة من المسيحيين (ولا سيما الكاثوليك والأرثوذكس)، تحويل الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح في زمن الإفخارستيا بواسطة الروح القدس (المترجم)

(2) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

العالم. ولعل ما حصل في مصر هو الأكثر لفتا للنظر. فالفرس واليونانيون والرومان الذين بسطوا عليها سيطرتهم لم ينجحوا أبداً في القضاء على الحضارة الفرعونية القديمة والاستعاضة عنها بحضارتهم»[1].

لقد استقبل السكان المحتلون الدين الإسلامي استقبالا حارا لدرجة أن هؤلاء الأقاليم التي تم فتحها تحول أهلها بدورهم إلى فاتحين دعاة إلى الإسلام يشدون عضد من سبقهم في هذا الجهد. وهكذا اندفع الإيرانيون نحو آسيا الوسطى وانطلق السوريون والمصريون صوب إفريقيا الشمالية بينما شد بربر شمال إفريقيا الرحال نحو إسبانيا وصقلية.

النموذج المثالي المقدم للسكان

يرى لو بون أن السبب الأهم للتوسع اللافت للإسلام روحي وديني: «لقد كان النموذج المثالي الذي قدمه محمد دينيًا محضا كما أن الإمبراطورية التي أقامها العرب تتسم بهذه الظاهرة الخاصة وهي كونها الإمبراطورية العظيمة الوحيدة التي تأسست بشكل فريد باسم الدين واستمدت منه جميع مؤسساتها السياسية والاجتماعية. فهل يكفي هذا العامل القوي، المثالي حتى إذا أضفنا له تلك التي ذكرناها، لشرح عظمة العرب؟ كلا. ومع ذلك، فقد وصلنا إلى أبعد من ذلك قبل لحظة. انهار العالم القديم وهناك شعب لا تعوزه خصال الفروسية ومتحد على قلب رجل واحد حول معتقدات مشتركة وعلى أهبة الاستعداد للقيام بغزوه. ما يزال يتعين عليه قهره وقبل كل شيء الحفاظ عليه»[2].

---

(1) المرجع نفسه.
(2) المرجع نفسه.

أهي حكمة إلهية؟

بعيداً عن أي تفسير مادي، ذهب البعض دون تردد إلى وصف توسع الإسلام في أيامه الأولى بأنه معجزة. ومن بين هؤلاء يوجد روجر دو باسكييه (Roger du Pasquier) الذي كتب: «معجزة أخرى للإسلام هي توسعه الرهيب في القرنين الأولين بعد رسالة النبي. إن سرعة الفتوحات العربية وسعة مداها وضعف الوسائل المستخدمة مقارنة بالنتائج التي تحققت كل ذلك أصاب العالم بالذهول وحير المؤرخين الذين لاحظوا في كثير من الأحيان جانبا «غامضا لا يمكن اختراقه». هناك بالتأكيد أمثلة أخرى على الفتوحات الكبيرة والمفاجئة، ولكن بشكل عام، تفككت كل الإمبراطوريات التي تكونت بسرعة والتي لم تعش بعد مؤسسها»[1].

وبدوره وصف ألفونس دي لامارتين أيضًا انتصار الإسلام على أنه معجزة: «لم يسبق أن رام أي إنسان طوعا أو كرها هدفًا أسمى، لأن هذا الهدف كان فوق البشر: تقويض الخرافات المتداخلة بين المخلوق والخالق، إعادة الإله إلى المخلوق والمخلوق إلى الإله، استرجاع فكرة الديانة العقلانية والمقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة بعبادة الأصنام. لم يسبق أن حقق بشر لا يملك إلا وسائل بهذه الدرجة من التواضع عملا يفوق طاقة البشر، ولم يكن يملك، من أجل تصميم وتنفيذ هدف بهذه العظمة، إلا نفسه وحفنة من البداة يساعدونه في زاوية منزوية من الصحراء [...] إذا كانت عظمة الهدف وضآلة الوسائل وضخامة النتيجة هي المقاييس الثلاثة التي تحدد عبقرية الانسان فمن ذا الذي يجرؤ، من الناحية البشرية، على مقارنة رجل عظيم في التاريخ الحديث بمحمد؟ فالشخصيات الأشهر لم تحرك إلا أسلحة

(1) Découverte de l’islam, Du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 64.

وقوانين وإمبراطوريات ولم تؤسس (إن كانت فعلا أسست شيئًا) إلا قوى مادية غالبًا ما انهارت قبلهم. أما محمد فقد حرك جيوشا وحرك تشريعات وإمبراطوريات وشعوبا وسلالات حاكمة وملايين البشر على ثلث المعمورة؛ ولكنه أيضا حرك مذابح كنسية وآلهة وأديانا وأفكارا ومعتقدات ونفوسا. كما أنه أسس على كتاب، أصبح كل حرف منه قانونًا، جنسية روحية تضم شعوبًا من جميع اللغات وجميع الأجناس، وطبع هذه الجنسية الإسلامية بطابع لا يمحي بكراهية الآلهة الزائفة، والتعلق بالإله الواحد الصمد. إن هذه الوطنية، التي تنتقم لما يحصل من تدنيس للسماء، هي الفضيلة التي تحلى بها أتباع محمد: كسْب ثلث الأرض لاعتناق عقيدته كان هو معجزته، أو بالأحرى لم تكن معجزة إنسان بل كانت معجزة عقل»[1].

من جانبها، ترى لورا فيتشيا فاجليري في التوسع الأول للإسلام حكمة إلهية. فقد كتبت تقول: «يتساءل البعض، وهم في حيرة من هذه التغييرات السياسية والدينية العميقة، عما عسى أن يكون السبب وراءها. وإذ لا يرى كثير منهم أو لا يرغب في أن يرى الواقع كما هو، إذا بهم يسعون يائسين، غارقين في التخمينات، عاجزين عن أن يدركوا أن القوة الإلهية هي وحدها القادرة على أن تعطي قوة دفع لحركة بهذا الحجم، رافضين الاعتراف بأن الحكمة الإلهية هي وحدها التي يمكن لها أن تفسر رسالة محمد، آخر المشرعين الأنبياء العظماء وخاتمهم إلى الأبد، تلك الرسالة العالمية الموجهة للبشرية جمعاء دون تمييز على أساس الجنسية أو البلد أو العرق. وسواء كانوا عميا أو متعامين فما برحوا ينشرون مغالطات وأكاذيب حول الإسلام،

(1) Histoire de la Turquie, Librairie du constitutionnel, Paris, 1854, vol. 1, p. 276-278.

متهمين إياه تارة بالعنف وبفرض نفسه بالسيف وطورا بعدم التسامح. وحتى محمد نفسه لم يسلم منهم بل اتهموه بالدجل والقساوة والانغماس في الشهوات. لقد حاولوا جهدهم الازدراء بالإصلاحات الاجتماعية والدينية المذهلة التي جاء بها كما سعوا إلى إظهار أصحابه، أصحاب الثقة وصادقي العهد، وكأنهم لا هم لهم إلا الحصول على مصالح مادية ودنيوية»[1].

وفي القرن الثامن عشر، وصف بولينفيليه (Boulainvilliers) النبي ﷺ بالرسول الملهم الذي أرسله الله لإرباك المسيحيين وتعليم الناس وحدانية الله من الهند إلى إسبانيا: «لأنه إذا كانت القوة الخفية التي يتمتع بها هذا الرجل قد حصل عليها دون وسائل طبيعية، فإن الفضل في نجاحه لا يمكن أن ينسب لغير الله الذي يتهمه الفساق بتضليل نصف العالم، وبتدمير الوحي الذي جاء من عنده تدميرا عنيفا»[2].

لا يملك المؤمن إلا أن يتساءل عن أسباب النجاحات الأولية للإسلام وما حققه من انتشار اليوم.

فهل يمكن أن يتصور أن إله العدالة سمح وما زال يسمح بمثل هذا التوسع للإسلام إلا إذا كان حقا هو الدين الذي أراده للإنسانية؟ خاصة وأنه، كما رأينا سابقًا، يبدو أن ظهور الإمبراطورية الإسلامية إنما هو وفاء بالوعد الذي قطعه على نفسه مع إبراهيم عليه السلام، من خلال ابنه إسماعيل عليه السلام، جد العرب، وتحقيق لنبوءة دانيال، الذي بشر بمجيئ إمبراطورية تسببت في سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

---

(1) An Interpretation of Islam, Laura Veccia Vaglieri, Goodword Books, New Delhi, 2004, p. 22.

(2) La Vie de Mahomed, Boulainvilliers, Amsterdam, P. Humbert, 1730, p. 179.

وها هو فولتير (Voltaire) من جانبه يذكرنا بأنه لا يحدث على الأرض أي شيء دون إرادة خالق الكون: «إن أكبر تغيير أحدثه الفكر على كوكبنا هو قيام دين محمد. لقد فتح المسلمون، في أقل من قرن، إمبراطورية أكبر من الإمبراطورية الرومانية. فهذه الثورة، العظيمة جدا بالنسبة لنا، ما هي في الحقيقة، إلا كذرة غيرت مكانها في ضخامة الأشياء، وفي عدد لا يحصى من العوالم التي تملأ الفضاء؛ ولكنه على الأقل حدث لا بد للمرء من النظر إليه باعتباره أحد عجلات ماكينة الكون، وكأثر ضروري للقوانين الأبدية الثابتة: لأنه لا سبيل لحدوث شيء لم يقدره سيد كل شيء. لا يكون إلا ما يجب أن يكون»[1].

3. مساهمات الحضارة الإسلامية

يجمع المؤرخون اليوم على أهمية الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في مجال نقل العلوم والفلسفة اليونانية إلى أوروبا. وكانت إسبانيا المسلمة آنذاك هي المركز الرئيسي لنشر هذه الحضارة. ويعتبر مثال العلوم الرياضية دليلا قاطعا على ذلك. ولم تكن العلوم اليونانية وحدها هي التي تم نقلها إلى الغرب من خلال الحضارة الإسلامية ولكن أيضًا العلوم الهندية. أليست الأرقام المستخدمة في أوروبا معروفة فقط باسم «الارقام العربية»؟ ومن يعرف أن مصطلح الجبر (algèbre) هو مصطلح عربي؟ ويكفي، للاقتناع بما للحضارة الإسلامية من تأثير على العلوم الأوروبية، أن نسرد الكلمات العربية المستخدمة في مختلف التخصصات العلمية: ففي الرياضيات عندنا، بالإضافة إلى l'algèbre (الجبر) هناكl'algorithme (الخوارزمية)

(1) Remarque pour servir de supplément à l'Essais sur les Mœurs, in Œuvres complètes de Voltaire, Moland, 1875, vol. 24, p. 588.

وle chiffre (الرقم) أو le zéro (الصفر)، وفي الكيمياء: alambic (انبيق) وalcool (الكحول) أوamalgame (الملغم)، وفي الطب: laque (لَّكُّ) وsirop (شراب) أو soude (صودا) و في علم الفلك: azimut (السمت) وzénith (ذروة) أوnadir (نادر).

وفي القرن الثامن عشر، تجرأ فولتير وقال بصراحته المعهودة: «خلال قرون البربرية والجهل التي عشناها بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وتمزقها حصلنا جميعنا تقريبًا من العرب على علم الفلك والكيمياء والطب»[1]. أما معاصره جيبون (Gibbon) فقد ذهب أبعد من ذلك إذ عزا إلى الحضارة العربية الإسلامية وحدها نقل المعارف القديمة إلى الغرب[2].

وها هو غوستاف لو بون الذي عاش حتى بداية القرن العشرين يقول في كتابه حضارة العرب إنه «يرجع الفضل للحروب الصليبية في التأثير الحضاري الكبير جدا للشرق على الغرب وإن كان الجانب الفني والصناعي والتجاري لهذا التأثير أكبر بكثير من التأثير العلمي والأدبي. وعندما نلقي نظرة إلى التطور الهائل للعلاقات التجارية ولأهمية التقدم الفني والصناعي الناشئ عن اتصال الصليبيين بالشرقيين، يمكن لنا أن نؤكد أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من البربرية وهيأوا لهذه الحركة في العقول التي سرعان ما طورها التأثير العلمي والأدبي للعرب الذي روجته جامعات أوروبا وانطلقت منه شرارة النهضة في يوم من الأيام»[3].

---

(1) Préface de l'Essai sur l'Histoire universelle (1754), in Œuvres complètes de Voltaire, Voltaire, Moland, 1875, tome 24, p. 49.

(2) La civilisation byzantine, Bernard Flusin, PUF, 2006

(3) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

ويؤكد رجل الدولة الفرنسي بارثيلمي سان هيلير (Barthélemy Saint-Hilaire) (1805-1895) أهمية الحضارة العربية الإسلامية بالنسبة للنهضة الأوروبية قائلا: «كانت أوروبا المسيحية، بعد عدة قرون من ذلك، تدين بنصف أنوارها للعلوم والمدارس الإسلامية. وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر، قامت إسبانيا، التي تولى المغاربة زمام أمرها، بتعليم بقية العالم بعد أن تعلمت هي نفسها من المعالم الاثرية في اليونان. وإذا لم يكن للتعليم اللاهوتي والفلسفي مصادر عربية، فمن المؤكد أنها ما كانت لتحقق تقدما بهذه السرعة المذهلة ولكان عصر النهضة لدى ألبير لغران (Albert le Grand) والقديس توماس (Thomas) قد تأخر فترة أطول! فهذه إذن خاصية ميزت الفتوحات العربية عن غيرها وسيكون من الحيف الخلط بينها وبين أولئك البرابرة، أسلافنا، أو بينها وبين جنكيز خان (Gengis-Khan) أو تيمور (Timour). ولم تكن تلك إلا سلسلة من الاضطرابات المروعة وكانت المذابح والغنائم هي الهدف الوحيد للغزاة، ولم يتركوا خلفهم سوى الخراب والحداد. وعلى العكس من ذلك، فقد زرع العرب بذور السعادة في كل مكان فأينعت واثمرت في أيد غير أيديهم»[1].

أما المؤرخ والمستشرق الفرنسي إيفاريست ليفي بروفنسال (Evariste Lévi-Provençal) (1894-1956) فيصر على ما تدين به أوروبا لهذه الحضارة: «لا يكاد يوجد شيء يضاهي، من حيث الأهمية، ما تدين به أوروبا لإسبانيا المسلمة. لقد كان مركز الأندلس ذو الثقافة العالية كنزًا لا يقدر بثمن لأوروبا في العصور الوسطى فقد أتاح لها أدوات ثقافية وعلمية مثل نظام تموضع الأرقام (الأرقام العربية) ودوالّ الرياضيات المثلثية

(1) La vie de Mahomet, Saint-Hilaire, Durand, 1864.

والعلوم الطبية المتقدمة بالفعل [...] ثم جاء عصر النهضة والاكتشافات البحرية العظيمة التي كانت هي البداية الحقيقية للعصر الحديث الذي جاء بعصر التنوير وكل ما تلا ذلك: ما كان كل ذلك ممكناً لولا مساهمات إسبانيا المسلمة»[1].

وفي ختام كتابه الذي تناول من خلاله حضارة العرب، لخص غوستاف لو بون الإسهام الذي قدم العرب للبشرية قائلا: «من وجهة نظر الحضارة فقليلة جدا هي الشعوب التي تجاوزت العرب وليس هناك من أنجز تقدما بهذه الحجم مثل هذا الذي أنجزت في وقت وجيز. من وجهة نظر دينية، فقد جاءت تلك الشعوب بواحدة من أقوى الديانات التي حكمت العالم، واحدة لها تأثير ما يزال مستمرا. ومن الناحية السياسية، أنشأت واحدة من أعظم الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ. أما من وجهة النظر الثقافية والأخلاقية، فقد جلبت الحضارة لأوروبا»[2].

ويشرح غوستاف لو بون سبب تقليل بعض المؤرخين من أهمية الإسهام الذي قدمته الحضارة الإسلامية إلى أوروبا قائلا: «سيبدو دومًا مهينًا لبعض العقول أن تعتقد أن الفضل يعود لبعض الكفار[3] في إخراج أوروبا المسيحية من البربرية، وبالطبع فإن شيئا مهينا للغاية في الظاهر لا يمكن أن يقبل بسهولة»[4].

---

(1) L'Espagne musulmane au Xe siècle, Lévi-Provençal, Maisonneuve et Larose, 2002.

(2) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

(3) يعني المسلمين (المترجم).

(4) المرجع نفسه.

أما الكاتب الفرنسي إليزيه ريكلو (Elisée Reclus) (1830–1905) فيرى في ذلك علامة على سوء نية هؤلاء المؤرخين: «لقد كان عرب نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) أساتذة ومعلمي أوروبا في مجال علم الفلك والرياضيات والميكانيكا والطب والفلسفة وما إلى ذلك ولا يمكن أن يشكك في هذا الفضل إلا لئيم وإلا صاحب نية سيئة»[1].

(1) Nouvelle géographie universelle, Elisée Reclus, Hachette, 1876, vol. 1, p. 906.

الفصل الثاني
انتشار الإسلام اليوم

1. الدين الأسرع انتشارا

في نهاية القرن التاسع عشر وصف غوستاف لوبون (Gustave Le Bon) توسع الإسلام وانتشاره الذي لا يقاوم قائلا بأن: «السهولة المذهلة التي ينتشر بها القرآن في جميع أنحاء العالم خاصية من خواصيه المميزة له. فأينما مر مسلم، فمن المؤكد أن دينه سيبقى بعده. بل إنك لتجد دولا لم يزرها العرب قط كغزاة وإنما عبرها تجارهم فقط، مثل بعض أطراف الصين وإفريقيا الوسطى وروسيا، وفيها اليوم ملايين من أتباع النبي محمد ﷺ. كل هذا التحول حصل بحرية ودون عنف؛ ولم نسمع أبداً أن الأمر تطلب إرسال جيوش لمد يد العون لهؤلاء التجار العرب البسطاء القائمين بالدعوة إلى دينهم. فأينما حلوا أقاموا دينهم فلا يلبث أن يتوسع. فقد حل بروسيا منذ قرون ولم يقتلع منها يوما وهناك حاليا 50 مليون مسلم في الهند حيث فشلت كل الجهود التي بذلها المبشرون البروتستانت ومعهم الإدارة، في صد المسلمين عن دينهم. ولا نعرف كم عددهم في إفريقيا ولكن المستكشفين العصريين الذين توغلوا داخلها عثروا على قبائل تدين بالإسلام. إن المسلمين يحملون حاليًا الحضارة إلى قبائل بدائية في إفريقيا كلما أمكنهم ذلك، ويفعلون الخير في كل مكان. وقد أحسن دوفال (J. Duval) حين كتب أنه «بفضل الإسلام اختفت الأصنام والأوثان من الأرض، وتم إلغاء التضحية بالبشر وبأكل لحومهم كما تم تكريس حقوق المرأة،

وإن بشكل أقل بكثير من القانون المطلق وتم تنظيم تعدد الزوجات والحد منه وتأكيد العلاقات الأسرية وتوطيدها وترقية العبد حتى أصبح فردا من أفراد الأسرة تتاح أمامه طرق سهلة وكثيرة للحرية. ثم إن الصلاة والزكاة والضيافة تنقي الأعراف العامة وترفع من شأنها؛ ويتسرب الشعور بالإنصاف والإحسان إلى الوعي والضمير ويتعلم أسياد الشعوب أن عليهم واجبات كما على الرعية. يقوم المجتمع على أسس منتظمة. وإذا بقيت، في كثير من الأحيان، مجموعة من التجاوزات دون علاج كما هو الحال في أي مكان آخر، فإن العدالة الإلهية تبقى بالمرصاد وتعاقب بشدة من طغى. فالأمل في حياة مستقبلية أفضل تنعم فيها الضحية بسعادة تعوضها عما فاتها وما نالها من ضيم. تلكم بعض الفوائد التي تشير إلى انتشار الإسلام في المجتمعات غير المتحضرة في كل مكان»[1].

إن انتشار الإسلام الذي وصفه عالم الاجتماع الفرنسي هنا لم يتراجع أبداً منذ ذلك الحين، لدرجة أنه حتى اليوم، فإن الدين الإسلامي هو الأسرع انتشارا وتوسعا في العالم سواء كان ذلك بسبب كثرة الذين ولدوا فيه أم الذين اعتنقوه.

كتب الأستاذ بجامعة السوربون جيريار فرانسوا دوبون (Gérard-François Dumont) رئيس مجلة السكان والمستقبل (Population et Avenir) ما يلي: «يعود سبب الظاهرة الأولى إلى تنامي انتشار الإسلام، بالقيمة المطلقة والقيمة النسبية. ففي ثلاثينيات القرن العشرين، كانت نسبة المسيحيين، الذين يمثلون إذ ذاك حوالي ثلث سكان العالم، أكثر من

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

ثلاثة أضعاف نسبة المسلمين الذين يشكلون عُشر سكان العالم. ويعتبر الكاثوليك الذين يمثلون وحدهم نصف المسيحيين أكثر بمقدار الثلث من المسلمين. وفي بداية القرن الحادي والعشرين ومع انتشار التحول الديموغرافي، تضاءلت الفروق كثيرا حتى أصبح الإسلام يمثل خُمسَ سكان العالم بينما تمثل المسيحية أقل من الثلث. أما الكاثوليك، الذين ما يزالون يشكلون النصف الأكبر من المسيحيين، فهم أقل عددًا من المسلمين حيث أضحت مقارنتهم واردة مع المجموعة الأكبر من المسلمين، أي السنة، الذين يماثلونهم في العدد»[1].

في مارس 2008 اعترف الفاتيكان رسميًا بأن الإسلام الذي يمثل 19٪ مقابل 17.5٪ من الكاثوليك، أصبح أول ديانة في العالم. وكتب الأسقف فيتوريو فورمينتي (Mgr Vittorio Formenti)، مؤلف كتاب الإحصاء السنوي لعام 2008 للدولة البابوية: «لأول مرة في التاريخ، لم نعد نحن الأكثر فقد تجاوزَنا المسلمون».

ويرى جيرارد فرانسوا دومون أن مستقبلًا أكثر إشراقًا ينتظر الدين الإسلامي على نطاق عالمي وأنه «من المتوقع أن تستمر وتيرة هذا الانخفاض في الوزن النسبي للمسيحيين في العالم والزيادة في نسبة المسلمين خلال النصف الأول من القرن الحادي والعشرين ويمكن أن يصبح الإسلام أول ديانة من حيث عدد الممارسين للشعائر، أو حتى في عدد الأشخاص الذين يعتبرونه مرجعا»[2].

---

(1) Analyse stratégique et enjeux géodémographiques du XXIe siècle, in Agir, revue générale de stratégie, 2010, p. 97-110.

(2) المرجع نفسه.

2. التوقعات

في العالم وفقًا لدراسة أعدها مركز بيو الأمريكي للأبحاث (Pew Research Center) ونشرت عام 2017، فإنه من المتوقع أن يصل عدد سكان العالم بحلول عام 2050 إلى 9.3 مليار، بزيادة قدرها 35٪. وخلال الفترة نفسها، يتوقع أن يزداد عدد المسلمين بنسبة 73 ٪، أي بضعف المعدل العالمي. كما يتوقع أيضًا أن يرتفع عدد المسيحيين، ولكن بمعدل أبطأ، وبنفس النسبة تقريبًا (35٪) من إجمالي السكان. ونتيجة لذلك، ووفقًا لتوقعات مركز بيو للأبحاث، سيكون ثمة تكافؤ تقريبًا بحلول عام 2050 بين عدد المسلمين، أي 2.8 مليار، أي 30 ٪ من سكان العالم، والمسيحيين، 2.9 مليار، أي 31 ٪.

ويقول كونراد هاكيت (Conrad Hackett) التابع لمركز بيو للأبحاث، إن الإسلام هو الدين الذي متوسط أعمار أتباعه هو الأصغر وبالتالي لديه آفاق تطور هي الأقوى على مدى السنوات ال 45 المقبلة.

وحسب ما جاء في تقرير مركز بيو الأمريكي للأبحاث فإنه إذا ما استمرت معدلات النمو هذه، فمعنى ذلك أنه، بحلول عام 2070، سيزيد عدد المسلمين على عدد المسيحيين: الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس.

في اوروبا

ووفقًا لتقديرات متوسطة، فإن دول الاتحاد الأوروبي الثمانية والعشرين - بالإضافة إلى سويسرا والنرويج، اللتين كانتا تضمان 4.9٪ من المسلمين سنة 2016 ـ ستصبح نسبتها 11.2٪ في عام 2050. ويكون عدد المسلمين حينئذ ما يقارب 60 مليون نسمة، أي ما يعادل عدد سكان فرنسا حاليا.

وكما رأينا، فإن الإسلام، منذ نشأته، وهو في توسع لا يقاوم، ولم يتوقف إلى أن يصبح، خلال القرن الحادي والعشرين، الديانة الأولى في العالم.

3. عالمية الإسلام

إن الإسلام، كما أكدنا ذلك، ليس دين شعب بعينه، مثل اليهودية، ولا دين منطقة من العالم، مثل الهندوسية إنما هو حالة ذهنية يستسلم فيها الرجال والنساء لإرادة ربهم، وهو ما يجعله دينا عالميا.

وقد أصاب غوته (Goethe) حين كتب: «إنه لمن الحماقة أن يدافع كل واحد ـ بالنسبة لقضيته – عن رأيه الشخصي! إذا كان الإسلام يعني: الخضوع لله، فإننا جميعًا نحيى ونموت على الإسلام»[1].

ويقول الشاعر الإنجليزي توماس كارليل (Thomas Carlyle) في كتابه حول أبطال التاريخ إن رسالة الإسلام عالمية: فمن واجب الإنسان أن يخضع لله وذلك هو جوهر الإسلام، كما أنه هو أيضا جوهر المسيحية الحقيقية[2]. وبعبارة أخرى، وخلافا للإسلام الذي ظل وفيا لجوهره، الذي هو الخضوع لله، فقد انحرفت المسيحية عنه.

الإسلام هو الدين الوحيد، إلى جانب المسيحية، الذي يوجد في جميع القارات وفي جميع الأعراق، وهو ما يشكل دليلا آخر على أصالته إذ ليس من المستساغ أن يخصص الله دينه، الذي جعله خلاصا للناس، لجنس واحد أو لمنطقة واحدة من العالم. فالدين الحقيقي لا يمكن إلا أن يكون عالميًا.

---

(1) Divan Occidental-oriental, Goethe, 1930.

(2) On Heroes and Hero Worship and the Heroic in History, Thomas Carlyle.

في بداية القرن العشرين كتب هنري دي كاستري (Henry de Castries) واصفا عالمية الإسلام قائلا إن «الإسلام بالتأكيد ديانة «عالمية» و«دولية»، لأنها اليوم ديانة أعراق مختلفة للغاية: سامية، وآرية وتتار وملايو وزنوج»[1].

وها هو جيرار فرانسوا دومون (Gérard–François Dumont) يؤكد بدوره العالمية الجغرافية للإسلام قائلا: «تواكب هذه التغييرات في نسبة أديان العالم جغرافية دينية جديدة هي، بشكل أدق، جغرافية جديدة للإسلام. فلطالما حصرت خرائط التوزيع الديني في العالم هذا الدين ضمن مجموعة جغرافية تكاد تكون مستمرة وتنطلق، من جهة من المغرب إلى باكستان، مضيفة بنغلاديش، وجانبا من الهند وإندونيسيا وماليزيا جزئيا، ومن جهة أخرى، من النصف الشمالي لأفريقيا وحتى بعض سكان البلقان وإلى غاية شينجيانغ (Xinjiang) الصينية. وفي القرن الحادي والعشرين، تم تجاوز هذا التمثيل للخرائط. لقد صاحب الإسلام دفعات المهاجرين الذين جاءوا من دول ذات أغلبية مسلمة فإذا به ينمو ويتطور في أوروبا وأمريكا الشمالية وحتى في اليابان. وإن هذا المثال الأخير لدولة ظلت بمعزل عن الهجرة الدولية منذ زمن بعيد ليشير الى أن ثمة ظاهرة تاريخية غير مسبوقة لم تعد خافية على أحد ألا وهي عملية عولمة الإسلام»[2].

(1) L'Islam : impressions et études, A. Colin, Paris, 1907, p. 190.

(2) Analyse stratégique et enjeux géodémographique du XXIe siècle, Agir, revue générale de stratégie, 2010, p. 97-110.

الفصل الثالث
تضاعف حالات اعتناق الإسلام

1. الأرقام

في العالم: يرى جيرار فرانسوا دومون (Gérard–François Dumont) أن «الجديد الحقيقي الذي جاء به تقرير مركز بيو للأبحاث (Pew Research Center) هو اقتراح مقياس لما يمكن أن يحصل من تغيير للدين. فالتقرير يحصي التوقعات في مجال الاعتناق: تغير الدين، التخلي عن دين ما والبقاء بلا دين، أو الأشخاص الذين هم بلا دين ويعتنقون دينا. ويخلص النموذج المستخدم في التقرير إلى نتيجة مفادها أن أكبر موجات تغيير الدين، بحلول عام 2050، من شأنه أن يمس المسيحية والأشخاص الذين لا دين لهم. ومن المتوقع أن تشهد المسيحية، نتيجة تغيير المعتقد وحده، تراجعا بمقدار 66 مليون شخص، يقابلون مجموعة الـ106 ملايين شخص الذين يتركون الدين المسيحي و الـ40 مليون الذين يعتنقونه بينما 61.5 مليون شخص سيختارون اللادينية. ومن بين الديانات الأخرى التي تفقد بعض الاتباع أو تفوز بالمزيد منهم جراء تغيير المعتقد فإن الأرقام أقل بكثير وستتأثر البوذية حيث ستصيبها خسارة صافية قدرها 2.85 مليون وفي المقابل سيكسب الإسلام 3.2 مليون، عبارة عن الفارق بين الأشخاص من أصل غير مسلم والذين سيصبحون مسلمين، أي 12.6 مليون، والمسلمين الذين سيرتدون عن الإسلام أي 9.4 مليون»[1].

(1) جريدة (6/ 4/ 2015) Atlantico.

وبالتالي فإن الإسلام سيكون الديانة الوحيدة في العالم التي سيكثر معتنقوها من الآن ولغاية سنة 2050.

في فرنسا: يذكر معهدا Ined وInsee أنه يوجد في فرنسا عدد يتراوح ما بين 000 70 و000 110 معتنق للإسلام، وهو رقم ضخم بالنظر إلى المناخ المعادي للإسلام وللحملة الإعلامية التي تشنها عليه وسائل الإعلام. وحسب ما ورد عن مكتب الشؤون الدينية التابع لوزارة الداخلية، فإن هناك 000 4 شخص يعتنقون الإسلام كل سنة في فرنسا، أي أكثر من عشر حالات يوميا.

في الولايات المتحدة الأمريكية: حسب ما ذكر مركز بيو للأبحاث، مثل عدد المعتنقين للإسلام، سنة 2017، 21 ٪ من 3.3 مليون مسلم أمريكي، أي حوالي 600000 شخص. من بينهم 64 ٪ من الأمريكيين من أصل أفريقي و22 ٪ من البيض و12 ٪ من أصل اسباني.

في المملكة المتحدة: جاء في دراسة أجرتها، عام 2011، Faith Matters وهي منظمة بريطانية تعمل في مجال الحوار بين الأديان، أن عدد البريطانيين الذين اعتنقوا الإسلام يقدر بنحو 000 100 شخص، وهو رقم قريب جدًا من الرقم الموجود في فرنسا لعدد مماثل من السكان.

في المانيا: ووفقا لصحيفة دير شبيغل (Der Spiegel) الألمانية فإن ما يناهز4000 مواطن قد اعتنقوا الإسلام في ألمانيا، بين يوليو 2004 ويونيو 2005 وهو رقم قريب جدا من الرقم الموجود في فرنسا.

لقد هزت حالات اعتناق الإسلام كلا من إسبانيا والبرازيل والمكسيك واليابان وكوريا الجنوبية وأستراليا.

2. تنوع حالات اعتناق الإسلام

كما هو واضح فإن حالات اعتناق الاسلام شملت جميع القارات وجميع الأعراق والفئات الاجتماعية من مثقفين وعلميين وفنانين ورياضيين.

اليهود

على الرغم من العلاقات المتوترة في كثير من الأحيان بين الإسلام واليهودية، فقد تجرأ العديد من اليهود على مر التاريخ على اعتناق الإسلام. وفيما يلي بعض الأمثلة.

- سبتاي تسيفي (Sabbataï Tsevi)

كما مر بنا فعندما جاء المسيح المنتظر أي عيسى عليه السلام، لم يؤمن به إلا القليل من اليهود. وكان الشعب اليهودي ينتظر منذ آلاف السنين مجيء المسيح سليل داود عليه السلام الذي يفترض أن يقود شعب إسرائيل إلى النصر. لقد ظهر عدد من اليهود الذين كانوا يؤمنون حقا بأنهم هم المسيح أو يتصرفون وكأنهم هو، على مر التاريخ، وخاصة في أزمنة القمع والمذابح. وكان أكثرهم نفوذاً وأوسعهم شهرة هو بلا شك سبتاي تسيفي (Sabbataï Tsevi) الذي ولد عام 1626 في سميرنا (Smyrne) في تركيا الحالية وتوفي عام 1676 في دولسينيو (Dulcigno) وهي بلدة تقع حاليا في الجبل الأسود (Monténégro). وفي عام 1648 أعلن سبتاي تسيفي نفسه المسيح وعمره يومئذ لا يتجاوز ال 22، مما تسبب في انشقاق عميق داخل اليهودية، بين فئة كثيرة اعترفت به كمسيح وأخرى اعتبرته دجالا. وفي تلك السنة نفسها (1648) تعرض عشرات الآلاف من اليهود في روسيا وبولندا للإبادة على يد أتامان بوجدان شميلنيكي (Ataman Bogdan Chmielnicki) أثناء

تمرد القوزاق (Cosaques) على السلطات البولندية. وعلاوة على ذلك، فقد شكل طرد اليهود من إسبانيا عام 1492 صدمة عنيفة بالنسبة لهم. وانضافت الى هذه القضايا الخارجية قضايا داخلية، مثل التنامي المتزايد للباطنية اليهودية في ذلك الوقت.

بعدما منعته السلطات اليهودية من دخول سميرن (Smyrne)، سافر المسيح المزعوم إلى القسطنطينية ثم إلى سالونيكا (Salonique)، ثم إلى القاهرة وبعد ذلك إلى القدس. وفي عام 1665، وصل تمجيد الدين إلى ذروته بين اليهود. وتم استقبال سبتاي تسيفي كمسيح من قبل يهود حلب، ثم سميرنا، مسقط رأسه. وقد اعترف به كمسيح لليهود العديد من المجتمعات في أوروبا الشرقية وأوروبا الغربية والشرق الأوسط اعتقدوا بأنه هو الذي سيعيدهم إلى الأراضي المقدسة ويحيي مملكة إسرائيل. واستعدت مجتمعات بأكملها للمغادرة بعد ما باعت كل ما تملك. وفي عام 1666، عاد سبتاي تسيفي إلى القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية العثمانية. وهنا وشى به قادة الجالية اليهودية المحلية للسلطات باعتباره مثيراً للقلاقل وتم استدعاؤه إلى القصر حيث وُضع في السجن. وبما أن حماس المؤمنين لم ينتقص قامت السلطات العثمانية باستدعاء سبتاي تسيفي وخيرته إن أراد النجاة من الموت، أن يأتي بمعجزة تثبت أنه هو المسيح أو أن يعتنق الإسلام فاختار الإسلام. وكانت صدمة الإعلان عن تحول تسيفي إلى الإسلام هائلة وخيبة للأمل لا يضاهيها إلا الأمل الجلل الذي كان معلقا عليه.

وتعليقًا على الصدمة التي خلفتها هذه الحركة المسيحية التي لم يسبق لها مثيل كتب برنارد دوبوي (Bernard Dupuy) الذي هو قس دومينيكي فرنسي ما يلي: «إن الحركة المسيحية التي ظهرت في القرن السابع عشر حول اسم

سبتاي تسيفي هي أهم حركة عرفتها اليهودية منذ تدمير معبد القدس وثورة بار كوكبة (Bar Kokhba). إنها الحركة الوحيدة فعلا التي كان لها صدى عالمي إذ أن حدثا بمثل هذه الخطورة لا بد من أن يخلف تأثيرا عميقا على الفكرة التي تتبناها اليهودية بشأن مجيء المسيح. اتسع الزلزال الذي أحدث ذلك وامتد إلى جميع المجتمعات وهز جميع الطبقات الاجتماعية للسكان اليهود»[1]. يضاف إلى ذلك أن هذه الأحداث أدت إلى تحول هائل إلى الإسلام بين اليهود.

- محمد أسد

محمد أسد، الذي كان اسمه قبل إسلامه ليوبولد فايس (Léopold Weiss)، يهودي نمساوي من أصل أرثوذكسي - له جد من الأب حاخام - بعد اعتناق الإسلام أصبح ذا تأثير كبير في العالم الإسلامي بسبب التزامه السياسي وكتاباته. حصل على تعليم ديني، وتعلم اللغة العبرية، ودرس التوراة والتلمود. وأثناء ذلك بدأ إيمانه باليهودية يتزعزع. وقد كتب شارحا لذلك: «بدا لي أن إله الكتاب المقدس كان منشغلا دوما بالطقوس التي يجب على المؤمنين به مراعاتها كما كان منشغلا بمصير أمة واحدة هي الأمة العبرية». لقد كان محمد أسد يتقن عدة لغات هي البولندية واليديشية والألمانية والعربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية. بدأ حياته المهنية كصحفي، وعمل في صحيفة «فرانكفورتر تسايتونج» (Frankfurter Zeitung) أكبر جريدة يومئذ باللغة الألمانية.

وفي عام 1922 حدثت نقطة تحول كبيرة في حياته.في تلك السنة دعاه عمه المقيم في القدس إلى زيارة فلسطين فالتحق به هناك وأمضى معه بضعة أشهر.وفي السنة ذاتها بدأ ليوبولد فايس (Léopold Weiss) رحلة طويلة

(1) Encyclopædia Universalis, « Sabbatai Tsevi », Bernard Dupuy.

زار خلالها عددا من البلدان الإسلامية هي مصر وسوريا وتركيا وبلاد فارس والجزيرة العربية. وكان محل ترحيب أينما حل في العالم العربي الذي أعجبته وحدته من حيث «تآلف الأرواح»، وقد بدا له أمة مثالية. فغدا مفتونا به لدرجة أنه كتب: «بدا لي أنني وجدت نفسي وللمرة الأولى بين ظهراني مجتمعٍ الروابط فيه بين الناس لا تقوم على أسس عرقية أو اقتصادية مشتركة ولَكن على شيء أكثر استقرارًا إنها تنبثق من نفس المبادئ التي أزالت جميع حواجز العزلة بين الناس»[1]. شعر محمد بالانجذاب إلى الصفاء الروحي للإسلام وقدرته على خلق إحساس قوي بالمجتمع، بعيدًا عن المادية والفردانية الأوروبية، واعتنق الإسلام وهو في السادسة والعشرين من عمره أثناء إقامته في برلين.

كثيرا ما كان يقارن بلورانس العرب (Lawrence d'Arabie) كما أنه كان مستشارًا مقربا من مؤسس المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز. وفي عام 1947، شارك مع الفيلسوف محمد إقبال في إنشاء دولة باكستان والتي أصبح أول سفير لها في الأمم المتحدة سنة 1952. وبعد مغادرته العالم الدبلوماسي، عمد إلى كتابة سيرته الذاتية «الطريق إلى مكة» (The Road to Mecca) سنة 1954. وبعد ذلك مكث 20 سنة في طنجة حيث عمل على ترجمة القرآن، قبل أن يستقر به المقام في غرناطة بإسبانيا حتى وافته المنية سنة 1992.

لقد كان بوسعنا أن نتحدث أيضًا عن مريم جميلة التي كانت تسمى قبل اسلامها بمارغريت ماركوس (Marcus Margaret) وهي يهودية أمريكية، ألفت أكثر من ثلاثين كتابًا عن الثقافة والتاريخ الإسلاميين واعتنقت الإسلام

(1) Un Proche-Orient sans romantisme : Journal de voyage, Léopold Weiss, CNRS, 2005.

عام 1961 قبل أن تهاجر إلى الباكستان. وعندنا كذلك مثال وولف ميخائيل (Wolfe Michaël)، شاعر وكاتب أمريكي أبوه يهودي، اعتنق الإسلام في سن الأربعين وغيرهما كثير من اليهود المجهولين الذين تجاسروا، على مر الزمن، على اتخاذ قرار التحول عن اليهودية واعتناق الإسلام.

المستشرقون

لا أحد يعرف حقيقة الدين الإسلامي أفضل من المتخصصين فيه. لذلك، نرى بعضهم وقد وقف على حقيقة الإسلام يعتنقون هذا الدين بعد ما أشبعوه دراسة.

- إيفا دي فيتراي ميروفيتش (Eva de Vitray-Meyerovitch)

إيفا دي فيتراي ميروفيتش حاصلة على دكتوراه في دراسة الإسلام وباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) ومترجمة وكاتبة. ولدت سنة 1909في منطقة برجوازية في باريس والتحقت بالمؤسسات الكاثوليكية وكانت طالبة متفوقة ودرست القانون وهو ما كان نادرا في ذلك الوقت بالنسبة لامرأة.

وإذ كانت الأولى في فصلها، فقد انتقلت إلى الفلسفة. وفي سن ال 22، تزوجت من لازار ميروفيتش (Lazare Meyerovitch) رجل من أصل يهودي من لاتفيا (Lettonie). أصبحت مديرة في مختبر فريديريك جوليو كوري (Frédéric Joliot-Curie) وفرت من باريس عام 1940 أثناء الاحتلال الألماني. وعند التحرير، التحقت بالمركز الوطني للبحث العلمي وسرعان ما أصبحت مديرة قسم «العلوم الإنسانية».

لقد اكتشفت الإسلام من خلال كتاب المفكر والشاعر الباكستاني محمد إقبال: إعادة بناء الفكر الديني للإسلام (Reconstruire la pensée religieuse de l'islam). وقبل دخولها الإسلام وحرصا منها على الأمانة الفكرية، أخذت دورات في التفسير المسيحي في جامعة السوربون لمدة ثلاث سنوات، لا سيما على يد أوسكار كولمان (Oscar Culmann)، العالم اللاهوتي اللوثري الشهير. وهكذا أشهرت إسلامها ونطقت بالشهادة عام 1960. وتشرح رحلتها على النحو التالي: «الإسلام هو القاسم المشترك بين جميع الأديان. فالمرء لا يتحول إلى الإسلام وإنما يعتنق دينا يحتوي على كل الأديان الأخرى»[1].

من عام 1969 إلى عام 1973، تمت إعارتها إلى القاهرة كمدرسة في جامعة الأزهر. وفي سنة 1971، حجت إلى بيت الله الحرام وقامت بزيارة المدينة المنورة. وقد ألفت حوالي أربعين كتابا. ومما قالته: «لقد حاولت الإعلان عما أعتقد أنه الوجه الحقيقي للإسلام. فمبادئ الإسلام تقوم على المحبة والحنان والعالمية. أن تكون مسلماً أو تكوني مسلمة يعني الاستسلام في سلام للصمد المطلق، مع رفض استقلال ما هو نسبي بالنسبة إلى هذا المطلق»[2].

يمكن أيضا أن نذكر ميشيل تشودكوفيتش (Michel Chodkiewicz) الذي كان مديرا عاما ثم رئيسًا مديرا عامًا لدار نشر ساي (éditions du Seuil) من 1977 إلى 1989 ومدير الدراسات في كلية الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية. ها هو يفسر بنفسه اعتناقه للإسلام في سن السابعة

(1) D'une foi à l'autre : les conversions à l'islam en Occident, Rocher Cherqaoui, Seuil, 1986, p. 20.

(2) Les nouveaux convertis, Pierre Assouline, Folio, 1992.

عشرة كـ «تتويج لبحث شخصي بدأ في مرحلة المراهقة». وهذا إريك جيوفروي (Eric Geoffroy)، أستاذ متخصص في الإسلام بجامعة ستراسبورج وفنسان مونتين (Monteil Vincent)، المستشرق الفرنسي، أو رومان كايي (Romain Caillet)، المتخصص في الإسلام ومتخصص معترف به في الحركة الجهادية العالمية، اعتنق الإسلام عام 1997 وهو في سن العشرين.

الفلاسفة

- رينيه غينون (René Guénon)

ولد رينيه غينون، الذي أصبح يسمى بعد إسلامه بعبد الواحد يحيى، سنة 1886 في مدينة بلوا (Blois) وهو من عائلة كاثوليكية. يقابل المؤلف في كتبه بين الحضارات التي ما تزال متشبثة ب «الروح التقليدية»، التي يقول إنه «ليس لها من ممثل أصيل إلا في الشرق»، وبين مجموع الحضارة الحديثة التي تعتبر منحرفة. لقد كان، في العشرينيات من القرن الماضي، شخصية بارزة في الأوساط الفكرية الباريسية. وقد تأثر بفكره كامل التأثر مؤلفون من مختلف المشارب مثل ميرسيا إليايد (Mircea Eliade) وأنتونين أرتو (Antonin Artaud) وريمون كوينو (Raymond Queneau) وسيمون فييل (Simone Weil) وحتى أندريه بريتون (André Breton).

واجه غينون انتقادات شديدة بسبب كتابه أزمة العالم الحديث (La crise du monde moderne)، الذي هو عبارة عن مرافعة ضد العالم الحديث نشرها عام1927، وقد أدرك أنه لن يستطع تحقيق انتعاشا روحيا في الغرب مما جعله يغادر عام 1930 متوجها إلى مصر. وهناك استوطن الحي التقليدي

القديم في القاهرة وعاش عيشة تتسم بفقر نسبي وكتب يقول: «أجد نفسي هنا بين أهلي أكثر مما أجدها وأنا في أوروبا». لقد اندمج كليا في العالم الإسلامي. وأصبح يرتدي الزي التقليدي وتعلم بسرعة التحدث بالدارجة وحصل على الجنسية المصرية عام 1949.

كانت وفاته في عام 1951 في القاهرة فاجعة وصدمة إعلامية تناولتها معظم الصحف الفرنسية.

وقد ترجمت أعماله الرئيسية إلى جميع اللغات الأوروبية، ومنذ وفاته تأثير تفكيره يزداد بشكل مطرد.

وفي التقديم الذي دبج به انتوان كومبانيون (Antoine Compagnon) كتاب خافيير اكار (Xavier Accart) Guénon ou le renversement des clartés (غينون أو انعكاس الضوء) وصفه بأنه «مفكر التقليد وهو بلا شك أحد أكثر المثقفين نفوذاً في القرن العشرين».

اعتنق الإسلام كثير من المثقفين والفلاسفة الأوروبيين المتأثرين بغينون، مثل المفكرين السويسريين فريثوف شون (Frithjof Schuon) وتيتوس بوركهارت (Titus Burckhardt) والصحفي الفرنسي ميشيل فالسان (MichelVâlsan) أو الكاتب الإنجليزي مارتن لينجز (Martin Lings).

الكُتاب

- إيزابيل إبرهاردت (Isabelle Eberhardt)

ولدت الكاتبة السويسرية من أصل روسي، إيزابيل إبرهاردت، عام 1877 في جنيف وأصبحت فرنسية بالزواج. وهي تتقن عدة لغات هي الروسية

والإيطالية والألمانية والفرنسية والعربية والتركية. وفي عام 1897 استقرت مع والدتها في الجزائر في بون (Bône) (عنابة) حيث بدأت تنجذب إلى الديانة الإسلامية قبل اعتناقها إياها. ثم قررت أن تعيش كمسلمة وأن ترتدي اللباس بالطريقة الجزائرية.

وفي عام 1903، تعرفت، في بني عونف (Beni Ounif) على الجنرال لياوتي (Lyautey) الذي أعرب عن تقديره لفهمها لإفريقيا ولحسها في مجال الحرية، قائلا عنها: «لقد كانت تجسد أكثر ما جذبني في العالم: التمرد. العثور على شخص يعبر حقا عن ذاته بذاته، متحرر من الأحكام المسبقة ومن التحزب ومن كل الصور النمطية ويمر عبر الحياة، خالياً من كل شيء مثل الطيور في الفضاء، يا لها من بهجة!».

وفي 21 أكتوبر 1904، في عين صفراء (Aïn Sefra)، تحول الوادي إلى سيل غاضب وغمرت المياه جزئياً المدينة السفلى، حيث تقيم إيزابيل فهلكت في المنزل المنهار. وتم نشر قصصها بعد وفاتها وهي القصص التي تحكي الواقع اليومي للمجتمع الجزائري أيام الاستعمار الفرنسي.

يمكن أن نذكر أيضًا محمد مارمادوك بيكثال (Muhammad Marmaduke Pickthall) (1875–1936) الكاتب البريطاني المعروف بترجمته الإنجليزية للقرآن أو محمد ألكسندر راسل ويب (Muhammad Alexander RussellWebb) (1846–1916) الكاتب الأمريكي، الذي يعتبر أول من اعتنق الإسلام في بلده.

الصحفيون

- روجر دو باسكييه (**Roger du Pasquier**)

وُلد روجر دو باسكييه عام 1917، وهو حاصل على شهادة في التاريخ والجغرافيا، وصحفي ومترجم سويسري نشأ في أسرة بروتستانتية. وبعد أن قدم في الأربعينيات تقارير عن الشرق، اقترب من المستشرق جان هيربر (Jean Herbert) (1897–1980) الذي يُلمَس في أعماله اهتمامًا عميقًا بالتقاليد والروحانيات الشرقية. وقد تأثر بتحول رينيه غينون (René Guénon) إلى الإسلام، فما لبث هو نفسه أن اعتنق هذا الدين.

قام روجر دو باسكييه بترجمة العديد من الكتب بما فيها الطريق إلى مكة للنمساوي الذي اعتنق الإسلام محمد أسد (Léopold Weiss) ونشر العديد من الأعمال المكرسة للإسلام مثل الإسلام بين التقليد والثورة أو اكتشاف الإسلام (1984)، الذي كتب فيه على وجه الخصوص: «يبدو أن لا شيء على وجه الأرض يفلت من الأزمة التي تهز العالم الحديث. لم يعد يكفي الحديث عن أزمة الحضارة فالظاهرة أخذت أبعادا كونية. تتراءى جوانبها المخيفة مع زيادة الأدلة وانتشار القلق. لقد أعطي الإسلام للناس أساسا لمساعدتهم على اجتياز هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع. وبما أنه هو آخر الوحي في السلسلة النبوية، فإنه يتيح وسيلة لمقاومة الفوضى الحالية واستعادة النظام وصفاء النفس وكذلك الوئام في العلاقات الإنسانية وتحقيق المصير الأعلى الذي دعانا إليه الخالق».

يمكننا أيضًا أن نذكر جان ميشيل دوران سوفلان (Jean-Michel Durant-Soufflant)، الصحافي السابق في جريدة لوموند (le Monde) ولورين بوث (Lauren Booth)، الصحفية الإنجليزية، التي اشتهرت بكونها شقيقة زوجة

رئيس الوزراء الإنجليزي السابق توني بلير (Tony Blair)، وكذا أيضًا إيفون ريدلي (Yvonne Ridley)، الصحفية البريطانية التي قامت طالبان بحبسها قبل أن يطلقوا سراحها سنة 2001، واعتنقت الإسلام سنة 2003.

وهناك أيضًا كريستيان باكر (Kristianne Backer)، الصحفية الألمانية وسارة جوزيف (Sarah Joseph)، الصحفية الإنجليزية التي اعتنقت الإسلام في سن السادسة عشرة بعد أن نشأت وترعرعت في الكاثوليكية، أو ميريام فرانسوا سيرا (Myriam François-Cerrah)، الأكاديميّة والصحفية الفرنسية - الإنجليزية التي اعتنقت الإسلام في سن الحادية والعشرين بعد تخرجها مباشرة من جامعة كامبريدج.

الأوساط العلمية

من بين العلميين الذين اعتنقوا الإسلام، هناك برونو جويدردوني (Bruno Guiderdoni)، عالم الفيزياء الفلكية، المتخصص في تكوين وتطور المجرات ومدير مرصد ليون (Lyon) وجيفري لانج (Jeffrey Lang)، عالم الرياضيات الأمريكي المولود سنة 1954 في عائلة كاثوليكية جدا وقد اعتنق الإسلام في أوائل الثمانينيات وألف كتبا عن الإسلام، من بينها كتابه الأكثر مبيعًا حتى الملائكة تسأل: رحلة إلى الإسلام في أمريكا (Even Angels ask : a journey to Islam in America).

السياسيون

أصبح الطبيب فيليب جرينيه (Philippe Grenier) الذي اعتنق الإسلام عام 1894، أول نائب مسلم في التاريخ الفرنسي حيث صار عضوا في الجمعية الوطنية كنائب من 1896 إلى 1898.

وفي 30 ديسمبر 1896، وبحضور عدد كبير من الصحفيين الذين جاءوا يسألونه بعد فوزه، تحدث عن سبب اعتناقه للإسلام قائلا: «هل تريدون أن تعرفوا سبب إسلامي؟ إنه الذوق والميول والإيمان وليس بأي حال من الأحوال نزوة كما لمح البعض إلى ذلك. فمنذ الصغر والإسلام وعقيدته يمارسان علي جاذبية لا قبل لي بمقاومتها [...] ولكن فقط بعد قراءة متأنية للقرآن تلتها دراسات معمقة وتأملات طويلة قررت أن أعتنق هذا الدين. لقد تبنيت هذا الإيمان وهذه العقيدة لما لمست فيهما من عقلانية ولكونهما على أي حال أكثر توافقًا مع العلم الحديث من الإيمان والعقيدة الكاثوليكية. وأضيف أن أوامر الشريعة الإسلامية ممتازة لأن المجتمع العربي يعتمد بالكامل، من وجهة نظر اجتماعية، على تنظيم الأسرة وأن مبادئ الإنصاف والعدالة والإحسان إلى الفقراء يتنزلون في صميم اهتمامات هذا الدين ومن حيث النظافة - التي لها أهمية خاصة بالنسبة للطبيب - يحظر استخدام المشروبات الكحولية ويؤمر بالوضوء مع كل صلاة وبتنظيف الملابس».

لقد كان بوسعنا أيضا أن نتحدث عن هنري إدوارد جون ستانلي (Henry Edward John Stanley) (1827-1903)، البارون ستانلي الثالث من قرية ألدرلي (Alderley)، وهو شخصية رائدة في الإسلام البريطاني وأول عضو مسلم في مجلس اللوردات.

في الفصل الموالي سوف نأتي على ذكر حالات تثير الدهشة لبعض السياسيين اليمينيين المتطرفين، ومعظمهم عنده خوف بلغ درجة الهوس من الاسلام ومع ذلك أصبحوا مسلمين.

الدبلوماسيون

كثيرون هم الدبلوماسيون الذين اعتنقوا الإسلام من أمثال البريطاني عبد الله كويليام (Abdullah Quilliam) (1856–1932) الذي يعتبر أول إنجليزي يعتنق الإسلام والبريطاني سانت جون فيلبي (St. John Philby) (1885–1960) والألماني مراد ويلفريد هوفمان (Murad Wilfred Hofmann) السفير لدى الجزائر من 1987 إلى 1990 ولدى المغرب من 1990 إلى 1994 وكنوت بيرنستروم (Knut Bernstroem) السفير السويدي السابق في المغرب ومؤلف الترجمة السويدية للقرآن وسيمون كوليس (Simon Collis) سفير المملكة المتحدة لدى المملكة العربية السعودية أو توركواتو كارديلي (Torquato Cardilli) سفير إيطاليا الموغلة في الكاثوليكية لدى الرياض.

الفنانون

أعلن كثير من الفنانين، معظمهم من المغنيين، وبعضهم في أوج مجده، عن اعتناقهم للإسلام، مثل كات استيفنس (Stevens Cat) (1977) أو في الآونة الأخيرة سيناد أوكنور (Sinead O'Connor). وهناك أيضًا الرسام الفرنسي إتيان ديني (Etienne Dinet) (1861–1929).

الرياضيون

اعتنق عدد كبير من الرياضيين الإسلام، من أمثال بيير فوغل (Pierre Vogel)، الملاكم الألماني السابق الذي تحول إلى واعظ مسلم لا غنى لبلاده عنه، أو طارق عبد الواحد (أوليفييه سان جان) (Olivier Saint-Jean)، أول لاعب كرة سلة فرنسي ينضم إلى الدوري الاميركي للمحترفين في عام 1997.

ولا يفوتنا أن الكثير من المعتنقين للإسلام هم من المثقفين الذين يكونون، في بعض الأحيان ولأسباب مهنية، قد درسوا العالم الإسلامي والإسلام كما هو حال المتخصصين في الإسلام أو الفلاسفة بينما آخرون اكتشفوا الإسلام وأعجبوا به من خلال التواصل مع السكان المسلمين كما حصل للصحفيين أو الدبلوماسيين. وبصفة عامة فمن خلال أحد هذين المسارين أو كليهما، دراسة الإسلام والاختلاط بالمسلمين، تحدث عادة حالات اعتناق للإسلام.

3. حالات اعتناق للإسلام غير متوقعة

متوجسون خوفا من الإسلام أصبحوا مسلمين

فاجأ سياسيون أعضاء أحزاب معادية صراحة للإسلام العالم بإعلان اعتناقهم لهذا الدين. ومن بين هؤلاء دانيال ستريتش (Daniel Streich)، العضو السابق في الحزب الشعبي السويسري الذي شن حملة عام 2009 من أجل حظر بناء مآذن جديدة. ورغم أنه اعتنق الإسلام سنة 2005 إلا أنه لم يعلن ذلك إلا عام 2009، بعد استقالته من حزبه السياسي، معللا اختياره بأن الإسلام قدم له «إجابات منطقية عن قضايا الحياة المهمة».

وهناك سياسي آخر تصدر اعتناقه للإسلام عناوين الصحف إذ لم يكن ذلك يخطر على بال أحد ويتعلق الأمر ب يورام فان كلافيرين (Joram van Klaveren) العضو السابق في الحزب الهولندي (PVV) المناهض للإسلام، بقيادة جيرت فيلدرز (Geert Wilders). اعتنق يورام فان كلافيرين الإسلام في عام 2018 بعد أن درس هذا الدين بقصد تأليف كتاب ينتقده بشدة. ويدعي أنه وجد بعض الرؤى أثناء العمل على هذا الكتاب الذي لم يكن في الأصل يهدف إلا إلى كشف كل العقوبات التي

يهدد الإسلام بإنزالها على المجتمعات الأوروبية. وقد أصبح عنوان كتابه المرتد: من المسيحية إلى الإسلام في عصر الخوف العلماني[1] وتم تغييره، كما يوضح هو ذلك إلى «دحض اعتراضات غير المسلمين على الإسلام».

وقبل ذلك وفي عام 2013، فاجأ أرنود فان دورن (Arnoud van Doorn) الجميع بإعلانه اعتناق الإسلام. ويعتبر فان دورن منتخبا آخر في PVV ومنتجا للفيلم المناهض للإسلام «الفتنة». وقال شارحا موقفه في ذلك الوقت: «كان هناك الكثير من القيل والقال حول الإسلام لدرجة أنني شعرت بالحاجة إلى القيام شخصيا بتقص للحقائق حتى يتبين لي الذين صدقوا وأعلم الكاذبين».

ومن الأمثلة الأخرى للمناهضين للإسلام الذين اعتنقوه فيما بعد، الألمانيان آرثر فاجنر (Arthur Wagner)، عضو في حزب AfD، وهو حزب معروف بمواقفه المعادية للإسلام وفيرنر كلاون (Werner Klawun)، نائب ألماني من الحزب الوطني الديمقراطي اليميني المتطرف (NPD) الذي بلغ الخامسة والسبعين من العمر، أعلن أنه اعتنق الإسلام. ويوضح فيرنر كلاون (Werner Klawun) أنه كان يرغب في معرفة المزيد عن هذا الدين بعد قراءة الديوان الشرقي (Divan oriental) والقصائد التي مدح فيها الشاعر الألماني العظيم غوته (Goethe) نبي الإسلام ﷺ قرر اعتناق الإسلام بعد قراءة القرآن باللغة الألمانية.

ينبغي لنا أن نذكر أيضًا حالة الفرنسي ماكسينس بوتي (Maxence Buttey)، مستشار البلدية السابق في الجبهة الوطنية، وهو حزب من أقصى اليمين، والذي تم استبعاده منه في عام 2015 بسبب الدعوة.

(1) Apostat : du christianisme à l’islam à l’heure de la terreur séculaire.

رئيس لدى وكالة المخابرات المركزية يعتنق الإسلام

في 3 أكتوبر 2012، نشرت جريدة (Courrier international) مقالًا بعنوان روجر، 60 عامًا، رئيس لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ... اعتنق الإسلام. وها نحن نثبت هنا بعض المقتطفات:

«رئيس مركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية (Counterterrorism Center، CTC) منذ ست سنوات، كان الرجل، لا أكثر ولا أقل هو حفار قبور القاعدة. وهو يعمل تحت الاسم المستعار روجر وهو أهم مسؤولي الأمن وأقلهم ظهورا في واشنطن. كما أنه يعتبر المهندس الرئيسي للهجوم بدون طيار الذي شنته وكالة المخابرات المركزية فهو الذي تولى زمام مبادرة البحث عن أسامة بن لادن. ويرجع إليه الفضل من نواح كثيرة في جعل الاغتيالات المستهدفة حجر الزاوية عند إدارة أوباما ضمن سياستها لمكافحة الإرهاب [...] و يقود حملة ضربات جوية أسفرت عن قتل الآلاف من الإسلاميين وغضب ملايين المسلمين، لكنه هو نفسه اعتنق الإسلام [...] منذ أن أصبح رئيسًا لمكافحة الإرهاب، عمل روجر مع اثنين من الرؤساء وأربعة من مديري وكالة المخابرات المركزية وأربعة من مديري المخابرات القومية .وعلى أعلى مستويات الأمن القومي، ظل روبرت مويلر(Robert Mueller) الذي عين مديرًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي قبل فترة قصيرة من هجمات 11 سبتمبر 2001 وما يزال في منصبه، هو الوحيد الذي بقي في منصبه لفترة أطول».

مدافعات عن حقوق المرأة ومسلمات

- ليدا رافانيلي (Leda Rafanelli)

ليدا رافانيلي (1880-1971) أديبة إيطالية، مناضلة ومناصرة للناركية (anarchisme) وناشطة مدافعة عن حقوق المرأة ومعتنقة للإسلام. لقد نشأت وترعرعت في أسرة توسكانية (من Toscane) فقيرة ذهبت معها إلى مصر سنة 1903 حيث أمضت ثلاثة أشهر. وهناك، التقت بجم غفير من اللاجئين السياسيين الأناركيين (الفوضويين) الإيطاليين في الإسكندرية والقاهرة وتبنت القضية التحررية والدفاع عن حقوق المرأة كما اعتنقت أيضا دينا هو الإسلام.

وبعد عودتها إلى ميلانو في إيطاليا، مع جوسيبي موناني (Giuseppe Monnani)، سنة 1910، أنشأت مكتبة النشر الاجتماعي Libreria Editrice (Sociale) وهي المكتبة التي عمرت طويلا وكانت أكبر مطبعة أناركية إيطالية. وموازاة مع ذلك بدأت تزاول الكاتبة والرواية والشعر. ولم تخف معارضتها للحرب العالمية الأولى بل ظلت وفية لمواقفها المناهضة للتسلح. وبعد الحرب العالمية الثانية، كرست وقتها لأعمالها الأدبية وللخط العربي.

اما اعتناقها للإسلام فسببه افتتانها بالعالم العربي الإسلامي وإن كانت في سنواتها الأولى لم تبال كثيرا بممارسة الشعائر إلا أنها لم تلبث أن تغيرت وأصبحت أكثر صرامة بل ونجحت في التوفيق بين الناركية التي مارستها في حياتها العامة وبين الإسلام الذي مارسته في حياتها الخاصة والداخلية. ولقد تبنت رؤية للإسلام كانت بديلا عن العالم الغربي الذي تهيمن عليه التكنولوجيا والتجرد من الإنسانية وتحكم المال.

لقد سبق أن ذكرنا مدافعتين عن حقوق المرأة هما دومينيك ثويسن (Dominique Thewissen) أستاذة الدين الإسلامي وسوزان جانيت كارلاند (Susan Janet Carland) أكاديمية أسترالية وقد اعتنقتا كلاهما الإسلام.

رجال الكنيسة

كثيرون هم رجال الكنيسة الذين تخلوا عن دينهم من أجل الإسلام، كما هو حال الأمريكي جورج بيكر (George Baker) (1849–1918)، القس السابق البروتستانتي وجان ماري دوشمين (Jean–Marie Duchemin) (1908–1988)، الكاهن الكاثوليك الفرنسي الذي اعتنق الإسلام بعد أن اكتشف «التحريف الذي أجراه الرجال خلال الأجيال المتعاقبة على الكتاب المقدس» و«تأثير الأباطرة الرومان ثم البيزنطيين على تطور المعتقدات المسيحية».

لطالما اهتم الباحثون بحالات اعتناق الغربيين للإسلام الذي لا شيء في الظاهر يربطهم به، محاولين تفسير ظاهرة لا تكاد تخطر على البال في مجتمعات ما فتئت تذم هذا الدين وتحط من قدره. كثرت التفسيرات التي قُدمت لذلك وكان معظمها اجتماعية ونادر منها ما كان يركز على الدور الأساسي للممارسات والحماس الديني لدى المسلمين والذي غالباً ما يكون حاسما. فمن هؤلاء النادرين الذين تنبهوا لذلك وأثر فيهم المصلح البروتستانتي الكبير لوثر (Luther) الذي فسر الانجذاب الذي يمارسه الإسلام من خلال الممارسات الدينية وحماس المسلمين: «إن دين الأتراك أي الإسلام أكثر روعة بكثير من حيث مراسمه من ديننا حتى لو أخذنا في الحساب المتدينين وجميع رجال الدين. فالتواضع والبساطة في طعامهم وملبسهم ومسكنهم وفي كل شيء آخر عندهم

وكذلك الصوم والصلاة والاجتماعات المتكررة للمؤمنين، كل ذلك لا نظير له عندنا في أي مكان [...] الممارسات عندنا لا تعدوا أن تكون ظلالا مقارنة مع ما عندهم وما يقوم به شعبنا أقرب للتدنيس منه إلى شيء آخر إذا ما قورن هو الآخر بما يقوم به المسلمون. وحتى المسيحيين الحقيقيين بل وحتى المسيح نفسه والرسل والأنبياء أنفسهم لم يتفانوا في كل هذا الأبهة. لهذا السبب ترى الكثيرين يتخلون بسهولة عن إيمانهم بالمسيح من أجل الإيمان بمحمد ويتشبثون به تشبثا قويا. أؤمن إيمانا راسخا بأن أي بابوي أو راهب أو رجل دين أو أي إنسان إيمانه يضاهي إيمانهم لن يكون قادرًا على البقاء على دينه إذا اضطر إلى قضاء ثلاثة أيام مع الأتراك»[1].

4. الرد على منتقدي الإسلام

إن كثرة حالات اعتناق الإسلام وأنواعها وتنوعها لخير جواب على الهجوم الذي يتعرض له اليوم الدين الإسلامي. وللقارئ أن يحكم من خلال ما سنورد أدناه.

1. هل الإسلام دين مفترى؟

إن عدد حالات اعتناق الإسلام يكذب هذا الافتراء ويدحَضه دحضا سيما وأنه يتعرض للكثير من الذم والشجب وبالتالي فإن اعتناقه اليوم يتطلب جرعة كبيرة من الإيمان بصدقه وصحته. وإنه لمن المفارقات العجيبة أنه كلما تعرض للهجوم، ازداد عدد المقبلين عليه.

(1) Vorwort zum dem Libellus de ritu et Moribus, in Werke, vol. 30/2, p. 206.

2. أصحيح أن الإسلام لا يحترم حقوق المرأة؟

إذا كان الأمر كذلك فما ذا عسانا أن نقول في الدراسات التي تُظهر، كما رأينا، أن 75٪ من المعتنقين للإسلام هم من النساء ومن بين هؤلاء مناضلات عُرفن بدفاعهن عن حقوق المرأة.

3. الإسلام، دين الإرهابيين؟

إذا كان الأمر كذلك فما ذا عسانا أن نقول في كون رئيس مركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) اعتنق الإسلام وفي كون أكبر متخصص في الجماعات الجهادية، رومان كايي (Romain Caillet)، هو أيضًا من المعتنقين لهذا الدين.

4. هل الإسلام دين الكراهية؟

هذه أيضا أحكام مسبقة ينسفها كون عدد كبير من القساوسة المسيحيين، المعروفين بتفانيهم في مجال الأعمال الخيرية قد اعتنقوا الإسلام كما هو حال جورج بيكر (George Baker) أو جان ماري دوشمين (Jean-Marie Duchemin).

5. هل انتشر الإسلام تحت ظل السيف؟

ظاهرة حالات اعتناق الإسلام في أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص كافية لوحدها للدلالة على أن الإسلام لا يحتاج إلى القوة لكي ينتشر.

6. هل الإسلام دين العرب؟

تنوع أعراق وأجناس معتنقي الإسلام يثبت عكس ذلك.

7. هل الإسلام معاد للسامية؟

لقد أعطينا نبذة عن بعض اليهود الذين اعتنقوا الإسلام. واليوم تشعر السلطات الإسرائيلية بالقلق من تصاعد حالات اعتناق الإسلام في إسرائيل.

8. هل الإسلام دين يخنق الحريات؟

جئنا في الفصول الماضية على ذكر بعض الذين اعتنقوا الإسلام والذين هم من محبي الحرية، مثل الأناركية ليدا رافانيلي (Leda Rafanelli). الإسلام يحرر الانسان من أي خضوع إلا الخضوع لرب العالمين وبالتالي فهو في الحقيقة دين تحرّري.

9. هل الإسلام دين رجعي وظلامي؟

مر بنا أن العديد من المثقفين والفنانين قد تبنوا الإسلام. وفي الحقيقة أن جما غفيرا من الغربيين لم يدينوا التقدم بل المادية المستحكمة في مجتمعهم مما قادهم إلى اعتناق الإسلام لما وجدوا فيه من روحانية لم يجدوها في الديانات الأخرى.

10. هل الإسلام، مثل الديانات الأخرى، يعارض العلوم العصرية؟

ذكرنا أن كثيرا من العلميين اعتنقوا الإسلام وبينا أن طائفة من الملحدين أو المسيحيين قد اعتنقوا الإسلام بعد قراءة كتاب موريس بوكاي القران والتوراة والإنجيل والعلم وكذا أيضا، وبشكل عام، بعد إعجابهم بالحقائق العلمية للقرآن كما حصل للفرنسي ماكسيم بوتي (Maxence Buttey)، المنتخب السابق للجبهة الوطنية. وعلى عكس الكنيسة التي عارضت

تطور العلوم التي كان ينظر إليها على أنها خطيرة على إيمان المسيحيين بل إن الكنيسة، في بعض الأحيان، اضطهدت العلماء كما فعلت مع جاليليو (Galilée) الذي أدين بسبب اكتشافاته حول دوران الأرض، فإن السلطات الدينية المسلمة لم تعارض العلوم أبدًا.

الجزء الخامس

خصال نبي



المقدمة

إذا كان محمد ﷺ قد اعتبر لفترة طويلة دجالًا في نظر الكتاب الغربيين، فإن وجهة النظر السائدة اليوم بين الباحثين هي أنه كان صادقا في وعظه، حتى ولو لم يجعله ذلك (في نظرهم) نبيًا حقيقيًا.

يلخص مارمادوك بيكثال (Marmaduke Pickthall)، في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن، الرأي السائد اليوم بين دارسي الإسلام حول محمد ﷺ قائلا: «أنا لا أنكر جمال فلسفته وأخلاقه العملية السامية بل إني مستعد للتسليم بذلك: لقد كان محمد رجلاً مخلصًا جدًا قدم، في سبيل رفاهية البشرية، مبادئ في غاية الروعة. ولكن الذي لا يمكنني أن أسلم به هو أنكم أيها المسلمون تدعون أن رسالته جاءت من عند سلطة خارقة للطبيعة»[1].

وهو موقف لا يمكن، في الواقع، الدفاع عنه لأن كل من يدعي، كما سنرى، أنه نبي فهو إما صادق فيما يدعي، وإما شرير ومحتال خسيس من الطراز الأول. ولا توجد منزلة بين المنزلتين.

ثمة طائفة أخرى نادرة اعترفت به كنبي صادق وهو ما قاد البعض منهم إلى اعتناق الإسلام. ولم يكن ذلك ما حصل مع آني بيزانت (Annie Besant) التي وإن لم تعتنق الإسلام تعتبر محمدا ﷺ نبيًا حقيقيًا. وهكذا كتبت هذه الإنجليزية المناضلة عن حقوق المرأة والتي كافحت في بداية القرن العشرين من أجل استقلال الهند ما يلي: «كل من درس حياة هذا النبي

(1) The Meaning of the Glorious Koran: An Explanatory Translation, Pickthall, 1930.

العظيم وشخصيته في شبه الجزيرة العربية وعرف تعاليمه وسيرته سيغمره شعور بالتقديس لهذا النبي البارز الذي هو أحد رسل الله العظام»[1]. هدفنا في هذا الجزء الأخير هو البرهان على أن محمدا ﷺ لم يكن صادقا في إيمانه فحسب، بل كان أيضًا مبعوثًا حقيقيًا ضمن سلسلة الأنبياء الساميين. والحقيقة أنه ليست فيه أية صفة من الصفات التي قد تدفع الانسان الى ادعاء النبوة كذبا وزورا بل، على العكس من ذلك، فإنه يمتلك كل العلامات والصفات التي تثبت أنه مبعوث حقيقي من عند الله.

(1) The life and the teachings of Muhammad, Madras, 1930, p. 4.

الفصل الاول
قطعًا ليس بمدّع للنبوة

1. يصف الكتاب المقدس مدعي النبوة

غالبًا ما يقول منتقدو محمدا ﷺ إنه دجال. ومع ذلك، فإن القرآن، الكتاب الذي ينسبه إليه خصوم الإسلام، يصف مدعي النبوة بأنهم أخس الناس: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[1] ويقول بعض العلماء المسلمين إنكل من يدعي أنه نبي فهو إما صادق وإما أخس إنسان على وجه الأرض. ولا يجرؤ أن يدعي كذباً أنه آت من عند الله وأنه يتحدث نيابة عنه إلا إنسان خبيث كما لا يجرأ أن يكذب على الله إلا كائن شيطاني.

وعليه وحتى المستشرقين الأكثر جَفاءً مع النبي ﷺ لا يرون هذا الوصف منطبقا على محمد ﷺ الذي يعترفون له اليوم بصفات أخلاقية سامية.

في كثير من فصول الكتاب المقدس نجد وصفا لمدعي النبوة على هذا النحو: «وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ»[2].

المعيار الأول لمعرفة الفرق بين المتنبئ والنبي هو أن تنبؤات الأول لا تتحقق. ولقد رأينا، في الجزء الثاني من هذا الكتاب، أن النبي ﷺ ما أخبر بشيء حتى الآن إلا جاء مثل فلق الصبح.

---

(1) الانعام، 93.
(2) التثنية 18، 21-22.

ومع ذلك، نقرأ في فصل آخر أن مدعيا للنبوة قد يتنبأ بأشياء وتتحقق ولا يعدو ذلك أن يكون اختبارا من الله تعالى لخلقه. فكيف إذن التمييز بين النبي الصادق والدجال. فقط عن طريق مضمون رسالته: فإذا كان يدعو إلى التوحيد الخالص، فهو من عند الله، وإذا كان يدعو لعبادة غير الله فهو متنبئ. ومع ذلك، فقد بينا كيف أن وحدانية الله تعالى تتنزل في صميم الرسالة القرآنية، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون (Edward Gibbon): «رمز محمد لا يرقى إليه في هذا الأمر أي شك ولا يخالطه أي غموض. لقد رفض نبي مكة عبادة الأصنام والبشر والنجوم والكواكب، اعتمادا على هذا المبدأ المعقول أن كل ما يرى النهار ميت لامحالة وأن كل شيء فاسد سيتلاشى ويذوب. فعاطفته التي يقودها العقل تعبد في خالق الكون كائنا أبديا لا أول له ولا آخر»[1].

إليكم الفصل المعني من الكتاب المقدس: «إِذَا قَامَ فِي وَسَطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلْمًا، وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً، وَلَوْ حَدَثَتِ الآيَةُ أَوِ الأُعْجُوبَةُ الَّتِي كَلَّمَكَ عَنْهَا قَائِلًا: لِنَذْهَبْ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا وَنَعْبُدْهَا، فَلاَ تَسْمَعْ لِكَلاَمِ ذلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الْحَالِمِ ذلِكَ الْحُلْمَ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكُمْ يَمْتَحِنُكُمْ لِكَيْ يَعْلَمَ هَلْ تُحِبُّونَ الرَّبَّ إِلهَكُمْ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ وَرَاءَ الرَّبِّ إِلهِكُمْ تَسِيرُونَ، وَإِيَّاهُ تَتَّقُونَ، وَوَصَايَاهُ تَحْفَظُونَ، وَصَوْتَهُ تَسْمَعُونَ، وَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، وَبِهِ تَلْتَصِقُونَ. وَذلِكَ النَّبِيُّ أَوِ الْحَالِمُ ذلِكَ الْحُلْمَ يُقْتَلُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ مِنْ وَرَاءِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ»[2].

(1) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire (1776-1788), Edward Gibbon, London, Strahan & Cadell.

(2) التثنية 13، 1-5.

جاء في نهاية هذا الفصل توضيح مهم: سيعاقب الله أي نبي كاذب بالموت. والحال أن رسالة محمد ﷺ امتدت على ثلاث وعشرين سنة وتكللت بانتصار توحيد الإله. وفي هذا الإطار نذكر بالكلمات التي قالها نابليون في هذا الشأن: «لقد كان محمد أميرا. جمع قومه من حوله. وفي بضع سنين غزوا نصف العالم وانتزعوا المزيد من النفوس من الآلهة الكاذبة، وقلبوا رأسا على عقب عددًا من الأوثان أكثر مما فعل أتباع موسى وعيسى المسيح في خمسة عشر قرنا وحطموا معابد وثنية في خمسة عشر عامًا أكثر مما حطم هؤلاء في نفس الفترة. لقد كان محمد رجلا عظيما حقا»[1].

بعض الأمثلة من المتنبئين

1. حَنَنِيَّا (Hanania)

يروي العهد القديم مصير حَنَنِيَّا، النبي اليهودي الكاذب: «فَقَالَ إِرْمِيَا النَّبِيُّ لِحَنَنِيَّا النَّبِيِّ: اسْمَعْ يَا حَنَنِيَّا. إِنَّ الرَّبَّ لَمْ يُرْسِلْكَ، وَأَنْتَ قَدْ جَعَلْتَ هذَا الشَّعْبَ يَتَّكِلُ عَلَى الْكَذِبِ. لذلِكَ هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هأَنَذَا طَارِدُكَ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ. هذِهِ السَّنَةَ تَمُوتُ، لأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ بِعِصْيَانٍ عَلَى الرَّبِّ فَمَاتَ حَنَنِيَّا النَّبِيُّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ فِي الشَّهْرِ السَّابِعِ»[2].

2. ماني (Mani)

ولد ماني عام 216 م في بابل. وكان يدعي أنه نبي جديد وخليفة لبوذا (Bouddha) وزرادشت (Zoroastre) وعيسى عليه السلام. استحدث ماني واحدة من أهم الديانات في العالم القديم.

---

(1) Bonaparte et l'Islam, Christian Cherfils, Alcazar publishing, 2016, p. 94.

(2) إرميا 28، 15-17.

وفقًا للاهوت المانوي، يتصادم عالم النور وعالم الظلام بعضهما البعض. وفي عام 277 أصدر الملك فهرام (Vahram) أوامر بتقييد ماني الذي توفي بعد أن أمضى عدة أيام في السكرات وما لبث دينه بعد ذلك أن تلاشى تدريجياً وطواه النسيان.

3. مسيلمة

قبل وفاة محمد ﷺ أعلن مسيلمة، رئيس قبيلة عربية في شرق شبه الجزيرة العربية، أنه نبي وادعى أن جبريل هو الذي حمل إليه الرسالة. وأكد أن سورا من القرآن نزلت عليه كما نزلت على محمد ﷺ. ولكن بعد مرور فترة لا تكاد تبلغ عامين على وفاة النبي ﷺ، في عهد الخليفة الأول، أبي بكر، في عام 634، قاتله المسلمون وقتلوه.

4. جوزيف سميث (Joseph Smith) (1805–1844)

هذا الأمريكي هو مؤسس المورمونية. وقد نشر سنة 1830 كتاب المورمون (Livre de Mormon) الذي ادعى أنه ترجمة لقصة قديمة محفورة على لوحات ذهبية يزعم أن ملَكا عهد بها إليه. وفي نفس السنة، أسس كنيسة عيسى المسيح لقديسي الأيام الأخيرة. وقد اعتبرته طائفة كبيرة من الذين آمنوا به وصدقوه نبيا من أنبياء الله. وفي الأخير هاجمه حشد من المشاغبين المعارضين للمورمون وأردوه قتيلا وكان يومها في سن الثامنة والثلاثين.

كان متنبئو العهد القديم عديمي الأخلاق فكانوا مدمنين على الخمر (أشعياء 28، 7) وكانت تنبؤاتهم منحصرة في المال وكسب رضا الناس (ميكا 3، 11). وبالتالي، كانوا بعدين كل البعد عن نبي الإسلام ﷺ الذي، كما سنرى، كان يتمتع بخصال حميدة لا مثيل لها حتى في رأي غير المسلمين الأقل محاباة له بل والأشد مناهضة له أحيانًا.

أما الكاتب الاسكتلندي توماس كارليل (Thomas Carlyle) (1795–1881) الذي ألف كتابا كرسه لأبطال التاريخ، فيرفض المقولة القائلة بأن النبي ﷺ كان دجالًا لا يهمه إلا جمع المال: «أتراه مخادعا ومشعوذا؟ كلا وألف لا! إن هذا القلب الكبير المتوقد والمحترق والمزمجر وكأني به فرن كبير يغلي بالأفكار لا يمكن أن يكون صاحبه مشعوذا [...] أتراه محاكيا بائسا، دجالا جائعا لا عين له ولا قلب يمارس، مقابل طبق من الحساء، احتيالا بهذا القدر من التجديف وتزوير المستندات السماوية، خيانة عظمى مستمرة في حق خالقه وفي حق نفسه، هذا ما لا ينبغي له وما لا يستطيع»[1].

ويتبنى ألفونس دي لامارتين رأيا قريبا من هذا الرأي عندما كتب: «هل كان هذا الرجل دجالًا؟ لا نعتقد ذلك، بعد أن درسنا سيرته بعناية. الدجل هو نفاق المعتقد. النفاق لا يملك قوة المعتقد كما أن الكذب لا يملك مطلقًا قوة الحقيقة»[2].

ويؤكد أوغست لو بون وجهة نظر هذين الكاتبين: «القول بأن محمدا كان دجالًا، يبدو لي بشكل واضح أنه قول لا يمكن أن يستقيم ولو للحظة»[3].

---

(1) On Heroes and Hero Worship and the Heroic in History, Thomas Carlyle, Hachette, 1925.

(2) Histoire de la Turquie, Lamartine, Librairie du constitutionnel, Paris, 1854, tome 1, p. 279.

(3) La Civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.

2. الأسباب التي يمكن أن تدفع إنسانا الى ادعاء النبوة

أولاً: البحث عن القوة والمجد

أول الأسباب التي يمكن أن تدفع الانسان إلى الزعم بأنه نبي هو البحث عن القوة والمجد لأن الأنبياء يمارسون سلطة روحية على أتباعهم الذين يعتبرونهم رسلا من عند الله ويوقرونهم على ذلك الأساس.

وها هو القس الإنجليزي ريجينالد بوسورث سميث (Reginald Bosworth Smith) (1839–1908) الذي لا يمكن لأحد أن يتهمه بمحاباة الإسلام ورسوله ﷺ، يكتب: «لم يكن محمد مباليا بمظاهر السلطة. كانت بساطة حياته الخاصة في وئام تام مع حياته العامة»[1].

عرض عليه قومه أن يضعوا التاج على رأسه بشرط أن يترك دعوته. ولما جاءه عمه المشرك ونصحه أن يترك هذا الأمر لمصلحته الخاصة أجابه قائلا: «يا عماه، والله لوْ وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركتُه»[2].

لم يسع أبدًا للحصول على المجد بل ظل يكرر: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَام فَإِنَّمَا أَنَا عَبْد، فَقُولوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»[3]. لو كان يسعى للمجد لمجَّدَ نفسه من خلال القرآن. ومع ذلك، وخلافًا لما يعتقد غير المسلمين، فإن القرآن ليس كتابًا جاء لتمجيد النبي ﷺ. بل، على العكس، فقد تعرض أكثر من مرة للوم فيه، بل جاء

---

(1) Mohammed and Mohammedanism, Bosworth Smith, London, 1874, p. 236.

(2) السيرة، ابن هشام

(3) البخاري، 3372.

لتمجيد رب العالمين الذي دعا النبي ﷺ الى أن يقول لقومه: «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد»[1].

لم يرد اسم محمد ﷺ في القرآن إلا أربع مرات فقط بينما ورد اسم عيسى عليه السلام خمسا وعشرين مرة. أما مريم فهي الاسم النسائي الوحيد الذي ورد في القرآن حيث لم تذكر أم الرسول ﷺ ولا زوجاته ولا بناته. وقد ذكر القرآن أنبياء العهد القديم أكثر منه. وهكذا تكرر اسم موسى عليه السلام أكثر من 130 مرة في القرآن واسم إبراهيم عليه السلام حوالي 70 مرة.

ثانيا: الرغبة في الثروة

السبب الثاني الذي يمكن أن يشجع إنسانا عاقلًا على الادعاء بأنه نبي هو الرغبة في الثراء. وفي هذا الإطار نسمع الله جل جلاله يدعو نبيه أكثر من مرة في القرآن إلى تذكير قومه بأنه لا يريد منهم مكافأة في مقابل الدعوة: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

يضاف إلى ذلك أن محمدا ﷺ لم يكن فقيرا قبل الرسالة إذ كانت زوجته خديجة تاجرة ثرية في مكة.

ثم إنه لم يحصل على منافع مادية من الرسالة التي جاء بها. بل على العكس من ذلك، عانت عشيرته لمدة ثلاث سنوات من حصار رهيب من العشائر الأخرى في مكة التي قطعت جميع العلاقات الاجتماعية والتجارية معهم.

---

(1) الكهف، 110.
(2) الانعام، 90.

وعلى الرغم من المجاعة التي أصابت النبي ﷺ وعشيرته، المتهمة بدعمه، فلم يصده ذلك بل تمادى في دعوته. «فلا التجاهل ولا الانتقاص من القيمة ولا الظلم الذي لحق بمصالحه المادية ولا المكائد أو التهديدات ولا حتى العروض التي قدمها له المشركون في أكثر من مناسبة كل ذلك لم يفلح في صده عن تبليغ رسالته»[1]. وسنرى أيضًا في الفصل الموالي كيف أن النبي ﷺ عاش حياة تقشف وزهد وأنه ما ورث مالا.

ثالثا: الجنون

هذا التفسير تبناه بعض من مناوئي الإسلام المعاصرين للنبي ﷺ وحتى يومنا هذا. كان محمد صادقًا عندما ادعى أنه يتلقى الوحي لكنه في الواقع كان يسمع «أصواتًا»، لعلها أصوات شياطين يملون عليه القرآن. أي شخص يقرأ القرآن، ذلك الكتاب الذي لا تنقضي حكمته ولا تنتهي سيدرك أن هذا التفسير كغيره لا أساس له. يقول جاك بيرك (Berque Jacques)، الذي ليس بالمتطفل على الموضوع لأنه قام بترجمة مشهورة للقرآن، ما يلي: «لا يحتاج المرء لأن يكون مسلماً حتى يستشعر جمال هذا النص ورونقه المنفرد وشموليته وقيمته العالمية»[2].

بالإضافة إلى ذلك، فإن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ في القرآن الكريم بهذه الكلمات: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم»[3]. فهذه الآية تكفي لدحض هذه الادعاءات.

---

(1) Le problème de Mahomet, Régis Blachère, PUF, 1952, p. 129.

(2) L'Islam au temps du monde, Jacques Berque, Sindbad, 1989, p. 20.

(3) النحل، 98.

3. -3 كلمات لا يتلفظ بها أبدا متنبئ

الله يخاطب النبي ﷺ مباشرة

يخاطب الله جل جلاله النبي ﷺ مباشرة في كثير من الآيات القرآنية كما في الآية السابقة أو الآية التالية: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1].الحقيقة أن كلاما من هذا القبيل لا يمكن أن يوجهه شخص لنفسه إلا إذا كان مجنونا أو محتالا سخيفا يدعي أنه يتلقى الوحي من عند الله. والحقيقة أنه لم يوجد يوما من الأيام مجنون كتب نصًا بهذه الدرجة من الحكمة أو دجال أنشأ ديانة بقيت من بعده. ثم إن القرآن يصف المفترين بأنهم أكثر البشر ظلمًا. فلو كان محمد ﷺ دجالًا ويدين في نفس الوقت هؤلاء الدجالين في القرآن لكان ذلك منتهى السخافة والفضيحة.

وهو ما تستبعده اليوم وتنفيه الغالبية العظمى من دارسي الإسلام من المسلمين وغير المسلمين.

آيات تعاتب النبي ﷺ

نقرأ في القرآن أكثر من مرة آيات يعاتب فيها رب العالمين النبي ﷺ على سلوكه، كما في الآيات التالية: «عَبَسَ وَتَوَلّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزّكّى أَوْ يَذّكّرُ فَتَنْفَعَهُ الذّكْرَى أَمّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدّى وَمَا عَلَيْكَ أَلّا يَزّكّى وَأَمّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهّى كَلّ!»[2]

---

(1) القصص، 86.
(2) عبس، 1-11.

ورد في سيرة النبي ﷺ أن رجلا أعمى جاء إليه فوجده مشغولا مقبلا على بعض شيوخ مكة يحاول إقناعهم بالإسلام. فقاطعه الأعمى وطلب منه أن يعلمه مما علمه الله. عندئذ تقطب وجه النبي ﷺ فاعرض عن الأعمى الذي كان يثق في إيمانه وأقبل على الشيوخ طمعا في كسب قلوبهم للإسلام. فنزل قرآن يعاتبه على هذا التصرف وكان ذلك في سورة تسمى «عبس».

ومرة أخرى، نقول إنه لا يمكن لأحد أن يلوم نفسه بهذه الطريقة وينسب ذلك لله إلا إذا كان فاقد العقل أو كان من أخس الناس. ومع ذلك، فتلك الفرضيتان مرفوضتان اليوم لدى الغالبية العظمى من الباحثين الذين لا يجدون أي تفسير مقبول لهذا النوع من الآيات.

آيات تتوعد النبي ﷺ

هناك آيات أخرى لا تجد تفسيرا عند من يتمسك بالفرضية التي تقول إن القرآن من كلام محمد ﷺ وهي الآيات التي تتوعده. وإليكم، على سبيل المثال، ما قاله الله جل وعلا عن محمد ﷺ: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»[1].

هذه الكلمات الإلهية تعتبر ردا مدويا على أولئك الذين يتهمون محمدا ﷺ بنسبة القرآن زوراً إلى الله تعالى.

تهديد آخر للنبي ﷺ: «وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كدتَّ تَرْكَنُ إليهمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً»[2].

---

(1) الحاقة، 44-47.

(2) الإسراء، 74-75.

آيات لتسلية النبي ﷺ

في مناسبات عديدة، نجد الله تعالى يسلي نبيه ﷺ كما في الآيات التالية حيث يدعوه إلى عدم الحزن عليهم بسبب تعنتهم وكفرهم: «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»[1] و «لقَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ»[2]. إن القول بأن القرآن من تأليف محمد ﷺ أو حتى من تأليف خلفائه لا يصمد أمام هذا النوع من الآيات.

آيات تحث النبي ﷺ على اتباع الصراط المستقيم

ومادام محمد ﷺ بشر كغيره من البشر فإنه يُطلب منه اتباع المسار الصحيح: «وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ»[3]، بل ويؤمر أيضًا بخشية الله: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ!»[4]

آيات طال انتظار نزولها

تعرضت زوجة النبي ﷺ لحملة تشهير وتشويه من قبل المنافقين في المدينة المنورة نالت من سمعتها وقد أثر ذلك كثيرا على الرسول ﷺ لما فيه من المساس بشرفه. فهل نزلت الآيات التي تعلن براءتها على الفور؟ لا، بل ظل الجميع في الانتظار لمدة شهر قبل أن يأتي الوحي ويفصل الأمر تفصيلا: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»[5].

---

(1) فاطر، 8.
(2) الانعام، 33.
(3) الشورى، 15.
(4) الأحزاب، 1.
(5) النور، 11.



الفصل الثاني
علامات نبي

1. سامي من نسل إبراهيم عليه السلام

هكذا وصف الكاثوليكي إميل ديرمنخيم (Emile Dermenghem) النبي ﷺ قائلا: «إن محمدا هو بالتأكيد نبي من سلالة أنبياء التوراة الساميين: أوتي جوامع الكلم وله روح متحمس وقلب لا يعرف الخوف»[(1)].

ومن جانبه يؤكد لامارتين (Lamartine) وهو من المعجبين بالرسول ﷺ أن الجنس السامي، جنس البدو الصحراويين الذين هم الأكثر قدرة على تأمل السماء وخالقها، هم أيضا الأكثر غموضًا على الإطلاق: «بعيدًا من أن يؤثر على هذا الجنس الغامض والمتدين التفوق الذي ينسبه رجال هذا العصر إلى الشعوب الغربية التي تعتبر بشكل حصري حَسَّابة ومتشككة فإننا نؤمن أن الله قد أعطى شعوب الجزيرة العربية الرعوية أفضل نصيب وفقًا لتعبير الإنجيل»[(2)].

لقد ذكرنا في بداية هذا الكتاب الوعد الذي قطعه الرب لإبراهيم عليه السلام بجعل نسله أمة عظيمة والعهد الذي أبرمه الله مع الشيخ الجليل وذريته وهو العهد الذي علامته الختان. ثم بينا أن هذا العهد لا يمكن إلا أن يشير إلى ولادة أمم يَهديها الأنبياء. وفي الحقيقة، فإن جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام هم من ذريته، سواء كانوا يهودًا، مثلهم مثل

---

(1) Mahomet et la tradition islamique, Dermenghem, Le Seuil, Paris, 1994, p. 11.

(2) La vie de Mahomet, Lamartine, Paris, 1854, p. 45.

الآباء الشيوخ في التوراة أو العرب مثل محمد ﷺ أو المديانيين، مثل شعيب الذي وصفه القرآن بأنه نبي.

يؤكد القرآن أن جميع الأنبياء الذين عاشوا بعد إبراهيم عليه السلام هم من نسله، وهو تحقيق جلي للوعد الذي قطعه الرب: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ»[1].

2. بداية الوحي

نداء من فوق

قصة الوحي الأول الذي تلقاه محمد ﷺ في سن الأربعين فيها الكثير من العبر.

في أحد الكهوف العديدة المحيطة بمكة المكرمة كان ﷺ يحب الخلاء والتفرد للتأمل في أسرار الكون حيث يتلقى زيارة ملك الوحي، جبريل الذي قَالَ له: اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئ. ويتابع الرسول ﷺ نفسه القصة قائلا « فَأَخَذَنِي فغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ». فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلَّا وَاللَّهِ مَا

(1) العنكبوت، 27.

يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ»[1].

لنلاحظ أن محمدا ﷺ كان قبل تلقي الوحي بفترة وجيزة ينسحب إلى كهف في مكة، تماماً كما كان يفعل عيسى عليه السلام قبل تلقيه الوحي حيث كان يذهب إلى البرية»[2]. وهذا أيضا حال موسى عليه السلام الذي كان يتوارى في الصحراء بحثا عن الخلاء والمرعى لغنم حَميهِ وهناك سمع لأول مرة نداء الرب وزاره الملك[3].

عمره ﷺ عند تلقي الرسالة

دعونا نتحدث قليلا عن عمر محمد ﷺ عند تلقيه للوحي الأول: لقد بلغ يومئذ أربعين سنة.

---

(1) البخاري، 3.
(2) مرقس 1، 12-13.
(3) الخروج 3، 1-2.

وعدد الأربعين هذا، حسب ما ذكر سانت أوغسطين (Saint Augustin)، يعبر عن الكمال. ويقول إيريناوس ليون (Irénée de Lyon) إن عيسى كان عمره أربعين عامًا تقريبيًا عندما بدأ يتلقى الوحي. ويبدو أن إيريناوس اعتمد في ذلك بشكل خاص على هذا الفصل من يوحنا: «فَقَالَ لَهُ اليهود: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟»[1] ونجد القرآن كذلك ينص على أن سن الأربعين هي سن النضج الكامل. قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾[2].

وهنا مسألة أخرى لا بد من ملاحظتها وهي أن محمدا ﷺ كان عمره عند بداية نزول الوحي أربعين سنة وهو ما يعني أنه عاش معظم حياته في وسط قبيلته وكان معروفا جدا بين أفرادها. وقد اشتهر بالصدق والأمانة وأقل ما يمكن أن يقال عنه أنه لم يكن معروفا بالكذب ولو كان كذلك ما آمن به هذا الكم الهائل من الأتباع. وقد ذكر القرآن هذا العنصر المهم إحقاقا للحق وتصديقا لما جاء به: «قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟»[3] يمكن أيضًا تفسير هذه الآية على هذا النحو: لقد أمضى النبي ﷺ أربعين عامًا بين أظهركم دون أن يدعي أبدا أنه نبي. لماذا يفعل ذلك فجأة في مثل هذا السن المتقدم؟

(1) يوحنا 8، 57.
(2) الاحقاف، 15.
(3) يونس، 16.

انقطاع الوحي

انقطع الوحي، بعد هذه الحادثة الأولى، لعدة أيام وأزعج ذلك النبي ﷺ أيما إزعاج حتى وصل به الأمر إلى التفكير مرارًا في القفز من أعلى جبل[1]. وأخيرا عاد الوحي واستمر حتى وفاة النبي ﷺ. وهكذا بدأ القرآن الكريم ينزل عليه تباعا، حسب مقتضيات الحياة وظروفها، من 610 إلى 632، أي على مدار ثلاث وعشرين عامًا.

تعجَّل النبي ﷺ لحفظ القرآن

كابد رسول الله ﷺ، في بداية رسالته، مشقة كبيرة مع الوحي وكان يحرك شفتيه مسرعا حرصا على مواكبة الملك جبريل الذي يقرأ عليه القرآن حتى نزلت عليه هذه الآية: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ»[2]. بمعنى آخر: التزم الصمت حتى ينتهي الملك جبريل من قراءته، عندها فقط يمكنك تكراره ولا تخف من نسيانه.

بعد نزول هذه الآية، أصبح النبي ﷺ يصغي لجبريل تمام الاصغاء حتى يلقي إليه كلمات الوحي وبعد ما يغادره يكتفي بتكرار ما كان يدرسه[3].

3. النبي اليتيم

وُلد النبي ﷺ يتيماً، حسب ما جاء في الروايات، توفي عنه والده وهو في بطن أمه التي ماتت عنه هي الأخرى وعمره ست سنوات بعد مرض ألم بها. وعندما أصبح يتيما من الأب والأم كفله جده ولما مات جده كفله عمه،

(1) البخاري، 6982.
(2) طه، 114.
(3) البخاري، 5.

أبو طالب. ويذكر القرآن الاهتمام الذي أحيط به محمد ﷺ قائلاً: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟»[1]

غياب الأب من الأمور الملفتة حقا في حياة كبار الأنبياء. فقد وُلد عيسى عليه السلام بدون أب، ولا ذكرَ في الكتاب المقدس ولا في القرآن لوالد موسى عليه السلام، النبي اليهودي، خلافا لوالدته التي ورد ذكرها عدة مرات. أما إبراهيم عليه السلام، فقد أنكره والده المشرك بل وأخرجه من وطنه[2].

4. لا كرامة لنبي في قومه

هناك نقطة أخرى مشتركة بين كبار الأنبياء وهي تعرضهم بشكل عام للاضطهاد على أيدي قومهم حتى يضطروا للهجرة ومغادرة أوطانهم.

إبراهيم عليه السلام

مر بنا للتو كيف أن إبراهيم عليه السلام، كما جاء في القرآن، طرده والده الذي لم يتقبل انتقاداته للممارسات الوثنية الشائعة بين قومه. أما في الكتاب المقدس فنقرأ أن إبراهيم عليه السلام، استجابةً لنداء الرب، الإله الحقيقي، غادر بلده، حران، حيث يعكف الناس على عبادة النجوم، واستقر في أرض كنعان.

موسى عليه السلام

حسب الروايات الواردة في الكتاب المقدس وفي القرآن، فإن موسى عليه السلام قد أجبر على الفرار من وطنه، مصر، حيث قتل مصريا دفاعًا

(1) الضحى، 6.
(2) مريم، 41-48.

عن عبراني ووجد ملجأ في مَدْيَنَ. وبعد غياب طويل، وبأمر من الرب، عاد عليه السلام إلى مصر وأخرج منها الشعب العبري تاركا وطنه نهائيا ليشرع في نزوح طويل قاد اليهود إلى أرض كنعان.

عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام الذي هو يهودي من الجليل، لم يكن موضع ترحيب كبير في وطنه، مما جعله يقول: «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَقْرِبَائِهِ وَفِي بَيْتِهِ»[1].

محمد ﷺ

تعرض النبي ﷺ والمسلمون لضغط شديد جعلهم يغادروا مكة، التي هي وطنهم، ويهاجروا إلى المدينة المنورة، ضمن تحرك عرف بالهجرة التي هي أمر في غاية الأهمية لدرجة أنه يمثل بداية التقويم الإسلامي. لقد وجد المسلمون أنفسهم مضطرين لمغادرة وطنهم والهروب من الاضطهاد الذي يتعرضون له على يد الوثنيين في مكة.

5. تبتَّل النبي ﷺ إلى الله

كان النبي ﷺ يتعبد بعيدا عن الأنظار، وفي زاوية من منزله عبادة لا يمكن أن يفسرها إلا صدق إيمانه. ولعل مثالا واحدا يكفي لإثبات ذلك ألا وهو صلاته بالليل. تروي زوجته عائشة أنه كان يصلي في الليل حتى تتفطر قدماه»[2]. وها هي تقول: «كُنْتُ أَنَامُ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرِجْلاَىَ فِي

(1) مرقس 6، 4.
(2) البخاري، 4718.

قِبْلَتِهِ، فَإِذَا سَجَدَ غَمَزَنِي فَقَبَضْتُ رِجْلَيَّ، فَإِذَا قَامَ بَسَطْتُهُمَا. قَالَتْ وَالْبُيُوتُ يَوْمَئِذٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَابِيحُ»[1].

نستنتج أمرين من هذه الواقعة: الأول هو أن النبي ﷺ، كان يتورى عن الأنظار في بيته، ويصلي في جوف الليل، عندما تكون زوجته نائمة، والثاني هو الفقر الشديد الذي يعيش فيه لأن منزله كان ضيقا للغاية بحيث لم يتمكن من السجود أمام زوجته الملقاة أمامه ولم يكن لديه مصابيح.

حدث الصحابي ابن مسعود فقَالَ: «صلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قائِمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرٍ سُوءٍ». قِيل: «مَا هَممْت؟» قَالَ: «هَممْتُ أَنْ أَجْلِس وَأَدعهُ»[2].

لقد كان النبي ﷺ حريصا على الانصياع للأمر الإلهي الوارد في هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[3].

وكان ﷺ يحث أهله على تقليده، وعلى الصلاة في جوف الليل كما يفعل هو. وهكذا، وحسب رواية صهره علي، قام النبي ﷺ ليلة بزيارته هو فاطمة، وقال لهما، «ألا تصليان؟»[4]

(1) البخاري، 513.
(2) البخاري، 1135؛ مسلم، 773.
(3) الاسراء، 79.
(4) البخاري، 1127؛ مسلم، 775.

الفصل الثالث
صفات نبي

1. الإيمان الصادق والتوكل على الله

ذكرنا في الفصل السابق أن النبي ﷺ كان يكثر من القربات مما يدل على إيمانه الذي لا يتزعزع بالله الذي أرسله وقد دفعه هذا الإيمان إلى التوكل على الله في كل شيء والمضي في الدعوة غير مبال بما يلقاه في سبيلها.
وكما قلنا من قبل وكررنا، فإنه لا يوجد دارس جدي للإسلام يشكك اليوم في صدق إيمان محمد ﷺ. وإن كتاب توماس كارليل (Thomas Carlyle) حول أبطال التاريخ يشكل أحد نقاط التحول في دراسة حياة النبي ﷺ. وحول هذا الموضوع إليكم ما كتبه ويليام مونتغومري وات (William Montgomery Watt) (1909-2006)، المستشرق الاسكتلندي والقس الأنجليكاني: «منذ دراسة كارليل لمحمد في كتابه Heroes and Heroworship (الأبطال وعبادة البطل)، أدرك الغرب أن ثمة حجج و براهين قوية تثبت صدق محمد. فاستعداده لتحمل الأذى في سبيل إيمانه، والأخلاق السامية التي يتحلى بها الرجال الذين آمنوا به وكانوا تحت إمرته وأخيراً عظمة إنجازاته الأخيرة، كل ذلك يشهد على مدى استقامته. أما اتهامه بأنه دجال فيثير المشاكل أكثر مما يحلها. ولم يسجل التاريخ أن أيا من الشخصيات العظيمة في الغرب كانت موضع تقدير منحط إلى هذه الدرجة مثل ما حصل مع محمد»[(1)].

(1) Mahomet, Montgomery Watt, Payot, 1959, p. 77.

وفي بداية القرن العشرين، أكد هانري دي كاستري (Henry de Castries) أن صدق محمد ﷺ من الأمور المسلم بها بشكل عام لدى الباحثين الغربيين: «كانت أول فرضية تحتم على النقاد مناقشتها هي صدق محمد، وقد قلنا إن صدق محمد مسلم به، ما عدا بعض الاستثناءات، المتجسدة في معظم المستشرقين بل وحتى الغيورين على المسيحية»[1]. ويضيف بعد ذلك ببضع صفحات:» إيمان راسخ وصدق مطلق، فضيلتان لا يمكن لأحد أن ينكر أن محمدا تحلى بهما من أول حياته»[2].

وبعد ذلك جاء إميل ديرمنغيم (Emile Dermenghem) ليؤكد وجهة نظر كل من توماس كارليل أو مونتغمري وات أو هنري دي كاستري على النحو التالي: «لا يمكن للشك أن يتطرق إلى صدق محمد اليوم. فحياته كلها، على الرغم من أخطائه (التي لا ينكرها)، تشهد على شدة إيمانه برسالته»[3].

ولعل أكبر دليل على صدق إيمان محمد ﷺ هو توكله على الله في كل شيء. فأثناء هجرته إلى المدينة المنورة برفقة أبي بكر، لجأ الرجلان إلى كهف اختبآ فيه لمدة ثلاثة أيام في انتظار انخفاض حدة البحث عنهما. وفي تلك الاثناء اقترب بعض الكفار من الرجلين حتى همس أبو بكر إلى الرسول وقال له: «يَا رَسُولَ اللّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إلى قَدَمَيْهِ، أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ». فقال له الرسول: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ

(1) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 30.

(2) المرجع نفسه، ص 48.

(3) La vie de Mahomet, Emile Dermenghem, Plon, 1979, p. 277.

اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟»[1] وقد ذكر القرآن هذه الحادثة: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا»[2].

إذا كانت الغالبية العظمى من العلماء الغربيين يعترفون اليوم بصدق محمد ﷺ، فهم مع ذلك لم يقبلوه كنبي. فكيف تمكنوا من التوفيق بين هذين الموقفين المتناقضين ظاهريا؟ الجواب على ذلك أنهم، كما رأينا، يعتبرون أن الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ مرده أسباب نفسية، بل وحتى نوبات صرع وهي ظنون رفضها روجر دو باسكييه (Roger du Pasquier) الذي كتب يقول: «إن الدراسات التي أجريت في الغرب لمحاولة تحديد المصادر التي نهل منها محمد معلوماته أو لبيان الظاهرة النفسية التي كان يستمد بها إلهامه من »اللاوعي» عنده لم تثبت أبدًا إلا شيئًا واحدًا: تحيز هؤلاء الكتاب ضد المسلمين»[3]. كما أن مونتغمري وات (Montgomery Watt) يرفض هو الاخر اعتبار تجارب محمد ﷺ الدينية مجرد نوبات صرع: «غالبًا ما ادعى معارضو الإسلام أن محمدا كان مصابًا بالصرع وبالتالي فإن تجاربه الدينية لم تكن صالحة. الحقيقة أن ما يصفون من أعراض ليست شبيهة بأعراض الصرع الذي هو مرض يؤدي إلى التدهور الجسدي والعقلي، بينما محمد كان دائما وأبدًا يتمتع بكامل قواه»[4].

---

(1) مسلم، 1854.

(2) التوبة، 40.

(3) Découverte de l’islam, Du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 63.

(4) Mahomet, Montgomery Watt, Payot, 1959, p. 83.

2. الصدق والأمانة

إذا كان محمد ﷺ صادقًا في إيمانه، فإنه أيضًا صادقًا مع الناس. فالحادثة التالية تكذب الرأي القائل بأنه كان دجالا: تصادف أن حدث في اليوم الذي توفي فيه ابنه الصغير إبراهيم خسوف فاعتقد بعض المسلمين أن الشمس قد اختفت بسبب وفاة ابن النبي ﷺ. لكنه أعلن: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَإِنَّهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ»[1].

كان العرب يعتقدون في ذلك الوقت أن الشمس والقمر لَا يَنْخَسِفَانِ إلا لِمَوْتِ شخص مهم. وكانت هناك خرافات أخرى تحيط بالخسوف والكسوف قبل أن يأتي العلم فيشرح الظاهرتين المثيرتين للدهشة واللتين ترتب عنهما ظهور العديد من الأساطير ترتبط عند كل قوم بحيوان سماوي يستولي على القمر أو الشمس وقت الكسوف: الذئب في الأساطير الجرمانية، والتنين في الأساطير الصينية.

ويحكي فولتير (Voltaire) في مقالته حول الأخلاق: «لا تزال العادات القديمة (الهندية) المتمثلة في الغوص في الأنهار عند الكسوف قائمة؛ وعلى الرغم من وجود علماء فلك هنود يعرفون كيفية حساب الكسوف، إلا أن الشعوب كانت مقتنعة بأن الشمس سقطت في فم تنين، وأنه لا يمكن تخليصها منه إلا بالغوص عاريا في الماء، والصراخ عاليا حتى يفزع التنين وتفلت منه ضحيته»[2].

ما أبعد هذا من التفسير العقلاني حقا الذي أعطاه النبي ﷺ الذي لم يسع أبدا - خلافا لما كان سيفعل لو كان دجالا - إلى استغلال هذا الخسوف الذي تزامن مع موت ابنه. كان بوسعه أن يلتزم الصمت ويترك الاخرين

(1) البخاري، 1044.

(2) Essai sur les mœurs et l'esprit des nations, Voltaire, 1756.

يخوضون دون أن يعتبر كاذبا. ولكنه فعل أفضل من ذلك، ألا وهو محاربة هذه الخرافات بدل استغلالها لصالحه. ويعتبر إميل ديرمنغيم أن موقف محمد ﷺ، وقت وفاة ابنه، هو أفضل دليل على صدقه، مؤكدا، وهو محق في ذلك، أن مثل هذه الكلمات لا يمكن أن يتفوه بها دجال.

3. الرحمة والعطف

جاء موت ابنه ﷺ إبراهيم ليميط اللثام عن جانب آخر من شخصية الرسول ﷺ لا يعرفه الكثيرون، ألا وهو عطفه. فعندما دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، جعلت عيناه تذرفان. عندئذ سأله أحد الصحابة: «وأنت يا رسول الله؟!» أجاب النبي ﷺ: «إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

بل إن عطف النبي ﷺ لا يقتصر على المسلمين بل يتعداهم إلى غير المسلمين الذين يحب لهم الخير والنجاة وهي الحالة التي نجد صداها في القرآن: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»[2].

وكتب مونتغمري وات في سيرته الذاتية لمحمد[3]: «إن عطفه ليشمل حتى الحيوانات وهو أمر رائع في زمنه وفي تلك البقعة من العالم». وعلى وجه الخصوص يشير وات إلى هذا الحديث الذي أجاب فيه عندما قيل له: «يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟» قال: «في كل كبد رطبة أجر»[4].

---

(1) البخاري، 1303.
(2) الشعراء، 3.
(3) Mahomet, Montgomery Watt, Payot, 1959, p. 600.
(4) البخاري، 2323.

إن رحمة محمد ﷺ معروفة حتى لدى خصومه. وفي هذا الموضوع كتب غوستاف لو بون يقول: «إذا كان الحكم على قيمة الرجال يكون من خلال عظمة الأعمال التي أنجزوها، فيمكننا القول أن محمدا كان من أعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ. ما أكثر المؤرخين الذين منعتهم الأحكام المسبقة الدينية من الاعتراف بأهمية ما جاء به؛ لكن الكتاب المسيحيين أنفسهم بدأوا الآن ينصفونه. اليكم ما قاله في هذا الصدد السيد بارتيليمي سان هيلير (Saint-Hilaire Barthélemy) الذي هو من أكثرهم تميزًا: «كان محمد أكثرهم ذكاءً وتبتلا وأكثر العرب رحمة في عصره. كما أن تفوقه هو وحده الذي يرجع له الفضل في إقامة إمبراطوريته وأن الدين الذي دعا إليه عاد بالنفع العظيم على الشعوب التي تبنته»[1].

يرسم إرنست رينان (Ernest Renan) لوحة تطفح بمدح نبي الإسلام ﷺ بشكل مدهش: «باختصار، يبدو لنا أن محمدا رجل لطيف وحساس وأمين ولا يضمر الحقد لأحد. عواطفه صادقة. شخصيته تميل، بشكل عام، إلى الإحسان. عندما تصافحه يرد عليك بحرارة ولا يسحب يده أبدًا هو الاول. يسلم على الصبيان ويعامل النساء والضعفاء بالكثير من العطف والحنان»[2].

وهذه أيضا لورا فيكسيا فاجليري تصف النبي ﷺ بعبارات مليئة بالمدح: «بالنسبة لمحمد، فقد كان بصفته حامل وحي إلهي، لطيفًا ورحيما حتى مع ألد أعدائه. كانت روحه مزيجا بين العدل والرحمة، وهما من أنبل الصفات التي يمكن للعقل البشري أن يتخيلها»[3].

(1) La Civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.
(2) Etudes d’histoire religieuse, Garnier, 1992, p. 187.
(3) Apologia dell’ Islamismo, A. F. Formiggini, Rome, 1925.

4. الزهد والفقر

حدث عمر الخليفة الثاني قال: «في أحد الأيام دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فابتدرت عيناي، فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب، فقال: يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك، قال: يا ابن الخطاب؛ أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى»[1]. ويقول عمر أيضا: «لقد رأيت رسول الله، يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقَل ما يملأ به بطنه»[2].

ويقول المستشرق الفرنسي هنري دي كاستري (Henry de Castries)، إنه «كان شديد الزهد وقد ذكر أبو هريرة عنه أنه مات ولم يشبع يوما من خبز شعير. ثم إنه لم يكن طموحًا وكان أهم إنسان في شبه الجزيرة العربية ومع ذلك لم يحاول استعبادها»[3].

لم يحصل النبي ﷺ أي ثروة، على عكس ملوك الأرض وعَواهلها: «يتكون ميراثه من بيت بناه بيديه وبعض النوق وهو الميراث الذي رده الى بيت مال المسلمين فهو القائل: «لا نورث وما تركناه صدقة»[4]. وعن عائشةَ رضي اللَّه عنها قالت: «تُوفِّيَ رسولُ اللَّه ﷺ وَمَا في بَيْتي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْر شَعيرٍ في رَفٍّ لي»[5].

---

(1) البخاري، 3629.
(2) مسلم، 2978.
(3) L'Islam : impressions et études, Henry de Castries, A. Colin, Paris, 1907, p. 49.
(4) المرجع السابق، ص 61.
(5) البخاري، 3029.

كما مر بنا فإن من الأمور التي يمكن أن تدفع الناس إلى ادعاء النبوة هي الرغبة في الحصول على المال.

5. التواضع والبساطة

عاش محمد ﷺ زاهدا كما يعيش من لا يرى نفسه إلا عبدا متواضعا لله. وصفه إرنست رينان قائلا: «فيه رصانة العادات العربية؛ بعيد عن الأبهة. فراشه عباءة بسيطة، وسادته من جلد محشوة بأوراق النخل. يحلب غنمه بيديه ويجلس على الأرض ليصلح ملابسه وأحذيته»[1].

وها هو المؤرخ الفرنسي جورج بيروني (Georges Peyronnet) يرسم هو الآخر صورة لإنسان متواضع ميال بفطرته إلى فعل الخير: «نفسه تحب الخير وتعرف كيف تفعله: حرم الربا وحدد قيمة الزكاة. كان معتدلا في مشيته، طلق المُحَيَّا، شديد الحرص على كرامته. بعض أتباعه يعزون له معجزات وهو ينفي ذلك»[2].

قال له أحد أصحابه ﷺ ذات مرة: «أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالى. قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ الضلال. لا أريدكم أن ترفعوني فوق مقامي الذي وضعني الله فيه. إنما أنا عبد الله ورسوله»[3]. لم يفعل النبي إلا تطبيق ما يعلم هو نفسه فقد قال لأصحابه: «من في قلبه مثقال ذرة من الكبر لا يدخل الجنة»[4].

---

(1) Etudes d'histoire religieuse, Ernest Renan, Garnier, 1992, p. 188.
(2) L'Islam et la civilisation islamique, VIIe -XIIIe s., G. Peyronnet, Colin, Paris, 1992.

(3) أحمد، 12295.
(4) مسلم، 225

ويذكر إدوارد جيبون (Edouard Gibbon) هو الآخر جانبا من تواضع محمد ﷺ: «كان حسه السليم يبعده كل البعد عن أبهة الملوك، كان يمارس شؤون البيت العادية؛ يشعل النار، ويكنس المكان ويحلب الغنم ويصلح حذائه وملابسه بنفسه»[1].

(1) Histoire du déclin et de la chute de l'Empire romain, Robert Laffont, 1983, p. 515.



الفصل الرابع
الرد على بعض الانتقادات الموجهة للنبي ﷺ

لقد كان نبي الإسلام ﷺ وما يزال عرضة لكثير من النقد في الغرب وهو ما تناوله بيير كرابون دي كابرونا (Pierre Crapon de Caprona)، في دراسته للقرآن، حيث بين أسباب هذه الإصرار: «الحقيقة أن محمدا الذي هو مؤسس حضارة، يقف في أفق التاريخ كشخصية لا مثيل لها. ولكن وبما أن تلك الحضارة كانت في صراع مباشر وشبه دائم معنا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، لم يُتح لنا أن نفهمها لأن فهمها يعني قبول قيم منافية لقيمنا، مما جعل «الكتاب الغربيين غالبا ما يميلون إلى سوء الظن بمحمد حتى أنهم كلما سمعوا نقدا موجها اليه يرون أنه معقول، يبادرون إلى تزكيته»[(1)].

وينصب نقد الغربيين أساسا على مسألة تعدد زوجات النبي ﷺ. فقد ترسخ في أذهانهم نموذج المسيح والعزوبية التي يطالب بها الرهبان الكاثوليك وينسون (أو يتناسون) أن معظم أنبياء التوراة لديهم عدة زوجات: فإبراهيم عليه السلام كانت عنده ثلاث زوجات وخليلات ويعقوب عليه السلام أربع وداود عليه السلام ثمانية عشرة وسليمان عليه السلام سبعمائة امرأة وثلاثمئة خليلة![(2)]

ويأتي عالم الأنثروبولوجيا غوستاف لو بون فيلقي بعض الضوء على هذه الممارسة الشرقية البحتة ويبين فوائدها: «إن القارئ الذي يريد قراءة هذا الفصل، واضعا جانباً أحكامه المسبقة كأوروبي، سيقتنع، كما آمل

---

(1) Le Coran : aux sources de la parole oraculaire, Publications Orientalistes de France, 1981, p. 129.

(2) ملوك الأول 11، 3.

ذلك، بأن تعدد الزوجات عند الشرق مؤسسة ممتازة تسمو كثيرا بالمستوى الأخلاقي للشعوب التي تمارسه، ويضفي المزيد من الصلابة على الأسرة ويجعل النساء، في نهاية المطاف، أكثر احتراماً وسعادة مما عليه الحال في أوروبا. وقبل أن أخوض في الدفاع عن هذه الظاهرة، سأذكر أولاً وقبل كل شيء أن تعدد الزوجات لا يرتبط البت بالإسلام، لأنه كان موجودًا قبله ومنتشرا بين جميع شعوب الشرق من يهود وفرس وعرب، إلخ. وبالتالي فإن الأمم التي اعتنقت الإسلام لم تكسب شيئا جديدا من هذا القبيل عندما تبنته»[1].

ويضيف: «في الغرب، حيث المناخ والمزاج لهما متطلبات أقل، لا يكاد الزواج الأحادي يوجد إلا في القوانين، ولا أحد، في اعتقادي، ينكر أنه نادر في الممارسات. لا أرى كيف يكون تعدد الزوجات القانوني عند الشرقيين أحط شأنا من تعدد الزوجات المتسم بالنفاق لدى الأوروبيين، بينما تفوق الأول واضح لي وضوح النهار على الثاني»[2].

ويتصدى روجر دو باسكييه للذين يرمون النبي ﷺ بالجنوح نحو الشهوانية بسبب تعدد الزوجات قائلا: «ظل محمد، لأكثر من عشرين عامًا، الزوج المثالي لامرأة أكبر منه بخمسة عشر عامًا [...] وبعد وفاة خديجة، عاش عدة سنوات بمعزل تام عن النساء ولم يتزوج حتى بلغ الثالثة والخمسين حين بدأ ممارسة تعدد الزوجات. وليس من المعقول ما ذهب إليه بعض المؤلفين الغربيين، بأن محمدا، بمجرد ما استقر به المقام في المدينة المنورة، انتابته فجأة لحظة ضعف أمام إغراءات «الجنس». لقد

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.
(2) المرجع السابق.

أصبح بعد ذلك رئيسًا لمجتمع ما فتئ تأثيره ينمو باطراد، ولأنه كان يمارس وظيفة أبوية إلى حد ما، فإن معظم الزيجات التي تزوج بها كانت ذات طابع سياسي»[1].

يضاف إلى ما تقدم أن جميع النساء اللواتي تزوج بهن كن أرملات، باستثناء عائشة.

حتى أن البعض يرى أن سبب انتشار الإسلام هو التساهل في جانب الأخلاق وهو ما يرد عليه غوستاف لو بون قائلا: «إن السرعة الهائلة التي انتشر بها الإسلام بين الناس ما برحت تحير المؤرخين المعاديين لهذا الدين والذين لم يجدوا من تفسير إلا تساهل هذا الدين في جانب الاخلاق واستخدامه للقوة؛ ولكنه قول مردود على أصحابه لأنه لا أساس له من الصحة. ويكفي أن نقرأ القرآن لندرك مدى الصرامة التي يدعو إليها في جانب الأخلاق والتي لا تقل شدة عن الأخلاق في الأديان الأخرى. لا شك أنه يقبل بتعدد الزوجات ولكن، وبما أن الظاهرة كانت قائمة بين جميع الشعوب الشرقية قبل الإسلام، فالذين اعتنقوا هذا الدين لم يجدوا في هذا التعدد أي ميزة جديدة ما دام كان معروفا عندهم. ومنذ فترة طويلة قام الفيلسوف العالم بايل (Bayle) هو وغيره بدحض حجة القائلين بتدني الأخلاق الإسلامية وبين أن قواعد الإسلام المتعلقة بالصيام وبتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق أكثر صرامة مما هو موجود عند المسيحيين. ويضيف بايل قائلا: «إنه لمن الوهم أن ندعي أن شريعة محمد لم يستقم أمرها بهذه السرعة الكبيرة جدًا ولم تتسع كل هذا الاتساع إلا لأنها خلعت عن الانسان الضغوط التي تتطلب الأعمال الصالحة والممارسات الصعبة وأنها تسمح بالتحلي بالأخلاق السيئة. ويقدم لنا

(1) Découverte de l'islam, Du Pasquier, Les trois continents, 1985, p. 56-57.

هوتينجر (Hottinger) قائمة طويلة من الأمثال والحكم المتداولة عند المسلمين. ويمكن القول دون مجاملة أن هذا الدين يحتوي على أفضل المفاهيم الممتازة التي يمكن أن تقدم للإنسان حتى يتعلم الفضيلة ويمارسها ويبتعد عن الرذيلة»[1].

الحقيقة أن الإسلام من أكثر الديانات صرامة. وهذا دليل آخر على صحته وصدقه. فالمتنبي لا يستطيع أن يفرض على المؤمنين به الزكاة أو خمس صلوات يومية أو صيام شهر كامل، من الفجر حتى الغسق، وهو ما يصعب تحمله تحت شمس حارقة في شبه الجزيرة العربية. ولا يمكن له أن يحرم الربا أو الميسر أو الخمر التي كان العرب مثل غيرهم من الشعوب الأخرى منغمسين فيها.

يرد فولتير على أولئك الذين يزعمون ـ وعلى رأسهم المسيحيون ـ أن الإسلام يتساهل في جانب الأخلاق قائلا: «يا أصحاب الشرائع و يا أيها الرهبان بل و يا أيها القساوسة، إذا فرض عليكم القانون ألا تأكلوا أو تشربوا من الساعة الرابعة صباحًا حتى العاشرة مساءً، خلال شهر يوليو، عندما يحين وقت الصوم الكبير؛ وإذا منعتم من لعب أي نوع من ألعاب القمار تحت طائلة العقوبة باللعنة؛ وإذا كان الخمر محرما تحت طائلة نفس العقوبة؛ وإذا كنت ملزما بالحج في صحارى مشتعلة؛ وإذا كنت ملزما بإعطاء ما لا يقل عن اثنين ونصف في المئة من دخلك للفقراء؛ وإذا كنت معتادًا على الاستمتاع بثماني عشرة امرأة، فقد انفصلت عنك منها فجأة أربع عشرة؛ هل تجرؤ، بحسن نية، على تسمية هذا الدين بالشهواني؟»[2]

---

(1) La civilisation des Arabes, Gustave Le Bon, La Fontaine au Roy, 1990.
(2) Dictionnaire philosophique, Voltaire, 1764.

يصر فولتير على الطابع الصارم للإسلام: «دينه حكيم وشديد وعفيف وإنساني: حكيم لأنه لا يقع في الجنون فينسب شركاء لله، وليس دين ألغاز، شديد لأنه يحرم ألعاب القمار والخمر والمشروبات الكحولية القوية ويأمر بالصلاة خمس مرات في اليوم؛ وعفيف لأنه خفض إلى أربع نساء العدد الهائل من الزوجات اللائي كن يقاسمن سرير جميع أمراء الشرق؛ إنساني لأنه يأمرنا بالزكاة التي هي أكثر صرامة من فريضة الحج إلى بيت الله الحرام. أضف إلى كل هذه الصفات الحقيقية صفة التسامح»[1].

ومع ذلك فقد شهدت صورة محمد ﷺ في الغرب تطورا كبيرا نحو الأحسن حتى أنه لم يعد اليوم يتعرض للهجوم إلا من أولئك الذين لا يفقهون شيئًا عن حياته. وترى موسوعة الإسلام أن هذا التغيير بدأ يظهر مع مطلع القرن الثامن عشر بعد نشر كتاب حياة محمد (la Vie de Mahomet) للكاتب بولينفيليه (Boulainvilliers): «سيرة محمد الأولى التي تجمع بين السعي نحو الدقة التاريخية والتقدير الإيجابي لشخصيته وللإسلام تلكم هي حياة محمد للكاتب بولينفيليه (نشرت بعد وفاته في لندن عام 1730). يصف هذا المؤلف محمدا ﷺ بأنه رجل عبقري ومشرع كبير وفاتح وملك يتسم مذهبه بالعدالة والتسامح. كما يقدم ليبنز (Leibniz) هو الأخر صورة إيجابية في كتابه تيوديزي (Theodizee) (1710)، لأن النبي لم ينحرف عن «دين الفطرة». وفي مقالته عن الأخلاق (1756) وكذلك في القاموس الفلسفي (1764)، يقدر فولتير في محمد الفاتح والمشرع والملك وكذلك رجل الدين. وقد جره تأثره بما قاله بولينفيليه في الموضوع فأكد على عظمة محمد الذي يرى فيه داعية للتسامح»[2].

(1) Il faut prendre un parti (1772), in Œuvres complètes de Voltaire, Moland, 1875, vol. 28, p. 547.

(2) Encylopédie de l’islam, vol. VII, Maisonneuve et Larose, 1993, p. 384.

وعليه وحسب ما جاء في موسوعة الإسلام، فإن أول سيرة ذاتية موضوعية لمحمد ﷺ هي كتاب بولينفيليه الذي نُشر عام 1730. ولقد مر بنا أن وات (Watt) يرى أن التحول المذكور حصل بعد قرن من الزمان بالتزامن مع صدور كتاب Heroes and Heroworship (الأبطال وعبادة البطل) للمؤلف كارلايل (Carlyle). والحقيقة أن أول سيرة محايدة لنبي الإسلام ﷺ هي تلك التي نشرها الإنجليزي هنري ستابل (Henry Stubble) في عام 1671 والتي ادعى البعض أنها أحدثت «ثورة كوبرنيكية في دراسة الإسلام» تلك التي تنظر إلى محمد ﷺ باعتباره «رجلا استثنائيا» و«روحا نبيلا». وبعيدًا عن إفساد المسيحية، فقد سعى ﷺ، وفقًا لما قاله ستابل، إلى استعادة نقاوتها الأصلية التي لوثتها العقائد الوثنية والطقوس التي جاءت بها الكنيسة. فيرىستابل أن عيسى عليه السلام لم يدع أبدًا أنه إله وأن المسيحيين الأوائل واليهود أنفسهم لم يعتبروه إلهًا. ويضيف أن قسطنطين استدعى ألفي أسقف إلى مجلس نيقية (Nicée) إلا أنه لم يتبن سوى رأي ثلاثمائة وثمانية عشر منهم. وبالتالي فإن الرمز والشرائع المعتمدة في هذا المجلس والمفروضة على الإمبراطورية كلها لا تمثل إجماعًا مسيحيًا. ما أشد التشابه بين ما استنتجه ستابل وما جاء في العقيدة الإسلامية.

ستابل يشيد بأركان الإسلام الخمسة ويرى أن الحج والصيام يشكلان الجانب المادي والروحي بينما الزكاة والصدقة يحدان من تراكم الثروة ومن الرفاهية. أما الالتزام بالصلاة خمس مرات في اليوم، فيشجع على الرصانة والانضباط.

شهد القرنان التاسع عشر والعشرون تغييراً جذرياً في وجهة نظر الكتاب الغربيين حول نبي الإسلام ﷺ الذي لم يعد، وفقا للنظرة الجديدة، مشرعًا كبيرًا ومصلحًا متميزا ورجلا صادقا فحسب، بل غدا أيضا نبيا إبراهيميا حقيقيا. وقد تنبأ ريجنالد بوسورث سميث (Reginald Bosworth Smith) في عام 1874 بأنه سياتي يوم يعترف المسيحيون فيه أنه نبي حقيقي[1].

لقد تحققت تنبؤات القس الإنجليزي بطريقة ما في القرن العشرين من خلال تصريحات الفاتيكان الثاني. ففي عام 1964، اعترف البابا بولس السادس بأن «خطة الخلاص تشمل أيضًا أولئك الذين يعترفون بالخالق، وهم، في المقام الأول، المسلمون». وهي التصريحات التي شجعت بعض رجال الدين على الاعتراف دون تردد بمحمد ﷺ باعتباره نبيًا حقيقيًا. ومن أمثال هؤلاء البلجيكي العيسي ي جاك دوبوي (Jacques Dupuis) (1923–2004)، أستاذ اللاهوت السابق في الجامعة الغريغورية في روما والذي أكد في كتابه «نحو لاهوت مسيحي للتعددية الدينية» على أن للأديان غير المسيحية قيمة من حيث الخلاص ويقول إن نعمة النبوة لا تقتصر على العبرانيين، كما يتضح من حالة محمد الذي كانت رسالته توحيدية تعتبر، حسب قوله، وحيا إلهيا جاء به نبي حقيقي[2].

(1) Mohammed and Mohammedanism, Bosworth Smith, London, 1874, p. 292.

(2) Vers une théologie chrétienne du pluralisme religieux, Jacques Dupuis, du Cerf, Paris, 1997.



الخلاصة

ها نحن قد برهنا، من خلال إعلان مجيئ محمد ﷺ على ألسنة الأنبياء الذين سبقوه ومن خلال نبوءاته التي تحققت حتى الآن وكذلك أيضا من خلال الرسالة التي حملها إلى البشرية وأخيرًا من خلال الإنجازات التي تحققت على يديه والخصال التي يعترف له بها ألد أعدائه، أن محمدا ﷺ لا يمكن إلا أن يكون نبيًا حقيقيًا من سلالة الأنبياء الساميين، جاء مناديا بالتوحيد الأنقى وبالأخلاق الأسمى. وبالتالي لا غرو إن أصبح الدين الذي يدعو إليه يتوسع وينتشر دون أن يعترض شيء طريقه حتى إن التوقعات الأكثر ثقة لَتتكَهن بأنه سيغدو، في غضون خمسين عامًا، أول دين في العالم. وبالتالي فعلينا ألا نتفاجأ إذا رأينا المزيد والمزيد من الرجال والنساء من الثقافة اليهودية المسيحية والذين لا يؤهلهم شيء لتبني هذا الدين، يعتنقون الإسلام. من ذا الذي كان يتوقع من الهولنديين أرنود فان دورن (Arnoud van Doorn) أو يورام فان كلافيرين (Joramvan Klaveren) المعروفين بعداوتهما للإسلام أن يتبنياه ويعتنقانه في يوم من الأيام بعد حملة التشويه الشرسة التي ظلا يشنان عليه؟ من ذا الذي خطر على باله أن فنانين في ذروة عطائهم الفني من أمثال كات استيفنس (Cat Stevens) أو سيناد أوكنور (Sinead O'Connor) سيتخلون عن الشهرة ويعتنقون دينا مشوها إلى هذه الدرجة؟ بل ما ذا دهى نسوة عرفن بالدفاع عن حقوق المرأة من أمثال دومينيك ثيسوين (Dominique Thewissen) أو سوزان جانيت كارلاند (Susan JanetCarland) حتى ارتدين هذا «الحجاب الإسلامي» رغم كثرة ما أثير من لغط حوله؟ وما هي القوة التي دفعت بالكثير من المسلمين

المجهولين إلى المجاهرة بإسلامهم علانية متحدين خطر التعرض للاعتداء والتمييز؟ هذه القوة ليست سوى الإيمان الذي لا يتزعزع بمعرفة الحقيقة، هذا الإيمان الذي فارق تلك المجتمعات حتى أصبحت علمانية منذ زمن طويل وهؤلاء الرجال والنساء الذين جعلوا من العلمانية دينهم الجديد. لذلك علينا ألا نتفاجأ اليوم إذا شاهدنا الإسلام يتعرض لهجمة شرسة من أعداء الدين لم يسبقه إليها أي دين آخر:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1].

(1) التوبة، 33.

ملخص البراهين على صحة رسالة النبي ﷺ

